الهيئة العامة لقصور الثقافة
اقليم القناة وسيناء الثقافى

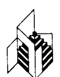
كنوز الملك سوس

«رواية»

على المنجى

بسم الله الرحمن الرحيم

الهيئة العامة لقصور الثقافة
اقليم القناة وسيناء الثقافى



مطبوعات
اقليم القناة وسيناء الثقافى



انى أحبك كى ابقى على صلة
بالله بالأرض بالتاريخ بالزمن..
بالماء بالزرع بالأطفال ان ضحكوا..
بالخبز بالبحر بالاصداف بالسفن..
بنجمة الليل تهديني أساورها
بالشعر أسكنه والجرح يسكنني..
أنت البلاد التى تعطى هويتها
من لا يحبك يبقى دونما وطن..

«نزار قبانى»

-١-

السفينة تتحدى الفضاء المترامى، أسمع صوت مصارعتها للمياه الهادرة يعلو فوق صوت ماكيناتها، همهمة الجنود فوق سطحها، لا أشعر بدوار البحر، لم تتقاذفن الدوامات، ظللت ثابتاً، سلاحى فى جانبى، أرقب جنودى، أتمم عليهم، أواسى من يسستسلم إلى دوار البحر بينهم..

أخبرنى أبى عبد الغفار رخا منذ نعومة أظافرى عن جبروت البحر، قص لى حكايته هو وعمى جميل وتحديهما الغاطس الرهيب، ها أنا ذا قادم من الموت إلى أسطورة أبى وعمى..

لحظات قليلة نصل بعدها إلى غاطس السويس.. ماذا سأحكى لهم؟.. الرحلة كانت طويلة، محفوفة بالمخاطر، ظلها الموت فى كل خطواتها.. هل أخبرهم عن صولاتى وجولاتى؟.. هل أحدثهم حول النجمة الثانية فوق كتفى عنواناً استثنائياً عن بطولتى؟.. بطولتى وفحولتى فى قتل البشر!!، فى إنحاز التدمير والهدم المخطط!!.. أم أخبرهم كيف مات سيف وأنا أبكى؟..

سيف الحبيب، ابن العم وصديق العمر.. ضاع هناك بين الجبال الوعرة، وسدته الصخور، غطيت جسده المسجى بالحجارة، تركته فى ملابسه ممداً تحت الأحجار والدموع تبلل وجهى، قبلته فوق جبينه المثقوب، لم أجد له كفين أضمهما إلى صدره، على تلك الصورة التى لم يحلم بها كلانا راح منى سيف.. مع كل حجر غطيت به جسده انتابتنى ذكرى حميمه تخترق فؤادى.. الحجر الأول تفجرت دموعى، كما انفجرت يوم تصارعنا أمام الفصل فى كُتاب الشيخ عبد الظاهر عند أول حارة رشيد، سيف الأقوى والأكبر، سيف بن جميل ونبيله، القوى الجسد، الحلو التقاسيم والذى كان لا يضع الطربوش فوق شعره الناعم الجميل فاحم السواد.. صرعنى سيف يومها أمام الأولاد حولنا مهللون، تداركنى

سيف، أنحنى فوقى يرفعنى، يزيح بكفه الصغير عن جلبابى التراب العالق بها، صرخت، ضربته بقوة وأنا أبكى فوق رأسه بلوح الإردواز، من خلال دموعى رأيت الدماء تندفع من رأس سيف.. نفس مكان الثقب، هربت إلى البيت..

أضع الحجر الثانى والثالث فوق جسده المُسجى، تغزونى معارك سيف وتحدياته فى روضة مدرسة النهضة، تنطبع الصورة بذهنى، يوم شمسه غائبة، بفناء المدرسة ساعة الفسحة، اقتسم وابن عمى رغيف الخبز الملئ بالبيض، أخرجه سيف من داخل حقيبة كتبه، جلسنا سوياً فى جانب من سور الفناء، تقدم منا ابن المعايرجى المشهور بشراسته وتسلطه، مد ابن المعايرجى يده يطلب جزءاً من الغذاء، لم يرده سيف، انثنى فوق نصيبه يقتطع منه جزءاً لابن المعايرجى، لا أنسى أبداً عينى ابن المعايرجى وهما تدوران، دب التوجس داخلى، قبل أن أحذر ابن عمى انقض ابن المعايرجى على الخبز والبيض بين يدى سيف، سرعان ما كان يجرى مبتعداً والطعام كله بين كفيه، انطلق سيف خلفه داخل الفناء الواسع.. سيف يطارد ابن المعايرجى دون كلل أو توقف، ابن المعايرجى يزوغ أمامه من جانب إلى آخر حتى أمسك به سيف أخيراً وسط حشد من التلاميذ الصغار.. لم يكن فى يد ابن المعايرجى أى أثر لطعام، فمه محشو حشواً حتى أن صدغيه انتفخا انتفاخاً شديداً..

وقف سيف وابن المعايرجى أمام الحشد كديكين يستعدان للقتال، ابن المعايرجى شرس له ماض معروف فى الشر، لم يتغلب عليه حتى المدرسين بالمدرسة، سيف يعتز بنفسه ولن يتنازل عن حقه، نسى هدوءه وخجله، ابن المعايرجى فحل يكبر سيف بسنوات..

تحلق التلاميذ حول سيف وابن المعايرجى يضحكون ويتندرون.. ابن المعايرجى يزدرد طعام سيف مزهواً نافخاً صدره واثقاً من فوزه.. دونما أى انتظار قفز سيف برأسه إلى أعلى مصيباً هدفه تماماً فوق أنف ابن المعايرجى، ترنح ابن المعايرجى ورزاز الطعام يندفع خارج فمه، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يضع كفيه فوق أنفه، تراجع إلى الخلف، انبثقت الدماء غزيرة من بين أصابع يديه فوق وجهه، قبل أن يستوعب الأولاد ما حصل سقط ابن المعايرجى على الأرض تحت أقدامهم فاقد الوعى.. آه يا سيف.. عاقبوك يومها، رأيت قدميك معلقتين بالفلكة، كنت أغمض عينى عندما يقعون بالعصا عليهما، أسمع دق العصا

الغليظة المكتوم فيهتز قلبى، لا أسمع لك صوتاً، ظننتك فقدت وعيك،، ووقفت بعد أن انتهى العقاب، المعاقبون ينظرون بعضهم إلى البعض متعجبين، مشيت بجانبى تسب وتتوعد.. على باب المدرسة انتظرك ابن المعايرجي ومعه أخته انتظرك حتى يأخذ بثأره فى حماية أخته الجميلة الكبيرة عنا فى السن والفهم سنوات..

عندما رآك قال لها مشيراً نحوك ها هو ذا.. لم ينتظر، هجم عليك يبغى أن يلقيك أرضاً، أيقنت أنا ساعتها أنك مضروب لا محالة، أعلم حال قدميك أثر العقاب، لا يقدران على حملك، وأخته التى هو فى حمايتها.. كبيرة، طويلة بسهولة تستطيع عصرك،أخرجتنى من توجس المفاجأة، رأيتك تلقى بابن المعايرجى أرضاً، تكيل له الكلمات والركلات، أخته تجذبك بقوة من ردائك حتى خرجت ياقته فى يدها، احتضنتك ورفعتك من فوق أخيها الملقى على الأرض يغطيه الغبار..

التلاميذ حولكم مذهولون مبتهجون بسقوط عرش هذا الشرير..

صفعتك أخته صفعة قوية سمع الجميع رنينها فوق وجهك، أمسكت بأخيها من فوق الأرض، جرته جراً وهى تخرج من بين زحمة الأولاد المبهورين، انكسر ابن المعايرجى، وإن لم تنته حكايتك معهما..

مازلت أتذكر تحدياتك، حتى فى ترنيماتك المعروفة عنك، لمحت شعرك المدون بين دفتى كراريسك، عرفت سرك دون أن تعلم، مطبوعة داخل عقلى، أحببت كلماتها البسيطة..

سجى الليل وما هجر.. قومٌ عواذل وليلٌ سحر.. بالله ناديه اذكرينى. إذا ما جن الليل ولاح القمر.. قمرٌ هلالٌ ليس بمكتمل بوجهك من وراء الخمر.. أنت مجنون بناديه، تعودناك تحب المستحيل البعيد، همت بخيالك فى حب ابنة الجيران التى تكبرك بسنين وأعوام، أنت فى السادسة عشر وهى فوق الخمس والعشرين، جميلة حقاً، ممشوقة، كحيلة العين، فاحمة الشعر، وجهها طفولى.. خطيبها مهندس البترول الوسيم تنتشر الشعيرات البيضاء خلال سواد رأسه وأنت تنازعه حب ناديه داخل خيالك، لم تنظر إليك مرة، لم تخاطبك.. أنا أوقن أنك حتى لم تسمع صوتها، ظلت ناديه داخل قلبك سنوات طويلة يا سيف..

يوم أن دخلت أنا الجامعة، زرتنى أنت فى واحدة من إجازاتك أثناء دراستك بالكلية الحربية، مازحتك.. قلت لك تلك الشرفة هناك تسكن قشطه طبق الأصل من حبيبة القلب

ناديه.. أحمر وجهك احمرارا شديداً، نظرت إلى نظرة موحشة أخافتنى، علمت أنها مازالت من تحديات قلبك كل تلك السنين، رغم مداراتك وحبسها داخل أسرارك..

هل تتذكرك ناديه اليوم عندما يظهر القمر؟.. تتذكر سيف الذى ظل السنين يضمها داخل سر قلبه؟..

ما حيلتى فى تلك الدموع التى تضبب عينى كلما تذكرتك؟..

الأنوار تتداخل ممتدة فى أشكال غريبة ومتباينة خلال رقرقة الدموع داخل العين.. أعرفها تلك الأضواء المتلألأة تغطس فى حلكة الليل تفرق ما بين مياه البحر الداكنة والسماء المرصعة بالنجوم..

الأنوار بعيدة.. بعيدة.. داخل الوجدان والقلب، ترتسم معالم كل شب فوق الأرض هناك، تحت أضواءها، حتى فى حنايا ظلامها..

المدينة العتيقة المثيرة الجميلة والتى عشناها أنا وسيف ابن عمى، نعرف ترابها حبة حبة، اغتسلنا فى كل قطرة مياه حولها، حمام بوجيه، بحر الكورنيش القديم، شاطئ بور توفيق، الحمام الفرنساوى، بحر ركس والزيتيه، شاطئ عتاقة ومياه السخنة حتى ترعة الإسماعيلية الحلوة غطسنا فيها، وقفزنا فى القناة نتسابق، وتغذينا على كل أنواع أسماكها وقواقعها وقشرياتها..

ونحن فى طريقنا إلى المدرسة الثانوية القديمة المطلة على الكورنيش العتيق، انتظرنا فى الصباح بنات الكسارة والسليمانية وهن فى طريقهن إلى مدارسهن، عرفنا مشروب السحلب المحوج والقهوة المضبوط وتعلمنا لعب النرد والورق والدومينو فى مقهى الأندلس بالكورنيش القديم، اشتد عودنا وتجهنا إلى حيث يتوجه الرجال لقضاء وقت فراغهم، مقهى بكر فى وسط المدينة بجوار سينما نون أمام سينما رجب الشتوى ورجب الصيفى، انتقل معنا من مقهى الأندلس بالكورنيش القديم القهوجى كرم.. فى الحقيقة نحن انتقلنا وراءه، القهوجى كرم هو علم المقهى، لا نستطيع الاستمتاع بأى مقهى لا يوجد فيه المعلم كرم.. كرم القهوجى صديقنا قصير نحيل، بل هو كومة من العظام فى شكل إنسان، نوبى أسمر، فهمنا وفهمناه، أحبنا وأحببناه، ينتظرنا وكنا ننتظر لقاءه، لا يحلو اليوم أو تحلو البلدة دون جلسة سمر فى مقهى بكر حيث وجود كرم والمعسل يحترق تحت جمرات الشيشة..

الأنوار هناك تحوى كل هذا وأكثر.. أنها الحياة.. ذهبت كثيراً بعيداً عنها، أعود إليها، أهب فى بعض الأحيان ناقماً غاضباً، يمر زمن رتيب معين، بعد قليل ينتابنى الحنين، أكذب نفسى، ويشتد الحنين، تعلو أمواج الشوق، تحوطنى أذرع الذكريات، تدغدغنى، تنبثق داخل وجدانى الوجوه الحبيبة تعاتبنى، أرض الشوارع، جدران المبانى، الآذان فى المساجد، أجراس الكنائس، أشجار الحدائق، أبواق السيارات، أضواء الملاهى، ضجيج المقاهى، شرفات المنازل، أجساد فتيات بدون ملامح، كلهن ملمحاً واحداً يتكون فيه المكان الحبيب..

تصالحنى مع نفسى، أشد الرحال للعودة إليها إن استطعت، وإن لم أستطع أتحايل، لا.. بل أصارع.. ويملأ عبيرها نسيم أحلامى، أتمنى ترابها حتى ألتقى على أرضها مرة أخرى.

تخاصمنا كثياً، التقينا أكثر، لا أقدر أن أنساها، تغيرت فيها معالم، ريحها وطيبها ظلا نابتان لا يتغيران، حبى لها أبدي، لن يتوارى حتى أوارى ترابها..

أبن عمى وحبيبي سيف مثلى.. لا.. جسده دُفن تحت الصخور هناك.. روحه الهائمة فى حبها تعود إليها معى.. تعود إلى أرضنا وأحبائنا..

السفينة ألقت مخطافها فى قاع مياه الغاطس، الليل يتعمق فى مسيرته متجها نحو الفجر، النجوم تزداد لمعانا، الأضواء البعيدة اقتربت، تعرجات مبهمة تتجسم أبعادها من خلال ستار الليل، المبانى والجبال والعمران الممتد، بقعة غير واضحة التعاريج، تنتشر داخلها اضواء المصابيح، النجوم فى السماء ترصعها والمصابيح فوق شبح المدينة الهاجعة تزركشها..

تنطلق الأفكار بالملازم أول إحتياط رخا، يقف مائلاً على حاجز السفينة، يتكئ فوق حافته بمرفقيه..

تحدث جندى إلى زميله.. حضرة الضابط لا يمل النظر إلى مدينتكم يا عثمان.. لم يرد عثمان.. نظر ناحية الضابط رخا القابع تحت الضوء الخافت فوق سور السفينة.. لم يتغير، نحيل طويل، هادئ، عرفه العمر كله.. منذ روضة أطفال مدرسة النهضة، أول رغيف محشو بالبيض خطفه من بين يديه، لم يتب عن ذلك إلا على يد المرحوم، لماذا يخفق القلب بشدة عند ذكر المرحوم.. هل أصبح سيف مرحوم؟.. كلنا مرحومين برحمة الله، وسيف.. أعنى حضره الضابط والصديق سيف هو أولى الناس برحمة الله، مات موتة الأبطال، كيف مات يا عثمان؟.. مثل ما سقط آلاف الشباب هناك فوق الصخور.. مات موتة فريدة، كل أفعاله فى حياته على أرض المدينة إتسمت بالإنفراد، بالتميز..

فى الروضة والابتدائى إنتزع موقفه من الجميع، كنت تكبره بسنوات يا عثمان، انتزع منك الريادة وألقاك أرضا..

بعناده وتحديه مهما كانت الصعوبات علمك أن الحق إنتصار.. تمكن أن ينتصر عليك بحقه، أدخل فى عقلك المعجوج أن الانتصار ليس بالقوة، علمك مبكرا أن الثبات على طلب الحق هو القوة..

فى المدرسة الثانوية عرفت أنه رائدها إن لم يكن زعيمها.. فى طابور الصباح، فى

تنظيماتها، جمعياتها، احتفالاتها، هو رئيساً لفريق كرة السلة.. علمك درسك الثانى فوق أرض الملعب..

دارت الأيام، قدت فريق كرة السلة لمدرسة الصناعات البحرية ببور توفيق..

إقتربت من تصفيات البطولة، حلمت تكتسح بفريقك كل مدارس المدينة، بل كل مدارس المنطقة، ضاعت أحلامك على واقع الملعب، سيف وفريقه المدرب المنظم جعل من فريقك أضحوكه الفرق..

إحتككت به على أرض ملعب السله، شيطانك يوسوس لك بأن مامضى من انتصاره عليك كان مصادفة، وأن وقت الانتقام قد حان، أثبت سيف لك أنها لم تكن مصادفة أبدا.. كان مهذبا رغم عنفك، مؤدباً أمام تلك الكلمات البذيئة التى كنت تلقيها على مسامعه، استغرق فى لعبه النظيف، تملكك شيطان الغيظ، خططت له مع افراد فريقك لاصابته واخراجه من الملعب، لماذا يدق قلبك ويأسف بالك الآن؟.. أنك من يومها وأنت آسف وقلبك حزين، كنت تود أن تكون مكانه، لم تسخر منك الأقدار، لم يسخر هو منك، واصل اللعب رغم آلامه المبرحة من اصابته التى كنت أنت سبباً لها، عنيداً هو صلب، نظر إليك باشفاق والحكم يطردك خارج الملعب، كل الساحة تبصق عليك، حتى أفراد فريقك.. أصبح هو يومها بطلا وظل بطلا.. أنت ظللت عثمان المعايرجى المتوجسون منه الشر دائما.

لم تستطع أن تجاريه فى نبله، تقربت إليه صادقا لمصادقته..

أتيحت لك الفرصة يا عثمان فى ساحة نادى الاتحاد الشعبية، كنت يومها سعيداً بحق، هو رئيس فريق المصارعة اليابانية بالساحة وأنت أهم أفراد فريقه.. بدأت من يومها تتذوق حلاوه النبل والبطولة..

كنت تحكى لأختك ثناء، تنظر هى إليك مشفقة، قالت لك مرة وهى مغتاظة من حماسك معك حق.. أظن ضربة لك فوق أنفك ورأسك غيرا من طبعك.. لم تمتعض يومها أو تغضب، سكت وأنت تفكر فى كلامها..

أتى اليوم الذى ذهبت إليه ثناء بنفسها..

جُندت أنت بالقوات المسلحة، عرفت أنك لا محالة سوف تكون فترة تجنيدك بعيدا هناك عن السويس، حزنت كثيرا، علاوة على تعب وآلام التجنيد تضاف إليك وحشة الغربة والبعاد..

ثناء طُلقت من زوجها لأسباب عديدة أهمها غباء زوجها، عادت إلى منزلنا كسيفة

مكسورة الخاطر..

هى جميلة، أنيقة، طيبة، لاحظ لها مع زوجها..

أردت أن تخفف عنها أحزانها، شكوت لها همومك.. لا تدرى ما الذى جرى بخاطرها.. أكانت تنتظر منك مثل هذا الحديث أو هو عفو الخاطر... قالت لك أن زوجها، عندما كانت بمنزلها، أخبرها أن صديقك سيف قد تخرج ضابطا من الكلية الحربية، إنه رغم نجمته الوحيدة فوق كتفه له إتصالات ممتازة.. سألتها ما علاقة هذا بذاك؟.. أجابت.. تحكى أنت دائما عن شهامته.. لما لا تطلب مساعدته فى هذا الأمر؟..

لم يخطر لك هذا على بال.. سيف مازال ضابطا صغيرا لا حول له ولا قوة.. وحتى لو أن له فى ذلك الأمر لن يفعل شيئا.. لماذا؟.. لم تستطع الأجابة.. رجوتها أن تصرف نظرها بعيدا عن هذا الموضوع ولا تفكر فيه أبدا، أنت لم تحدثها فى أمر تجنيدك إلا من قبيل التخفيف عنها.. ولم تتحدث أنت وثناء فى هذا الأمر بعد ذلك..

ظننت أن الأمور انصلحت من تلقاء نفسها، كنت تقول ببركه دعاء الوالدين، ثناء تضحك وترد قائلة.. والداك دائما يدعوان عليك لكثرة شرك.. قلت لها دعاء الوالدان دائما من القلب وليس من اللسان.

.. أعلمتك الأحداث إنها ذهبت إليه، لم تعرف ما تحدثا فيه، أو كيف عرضت عليه الموضوع، كل الذى عرفته أنك جُندت فى منطقة السويس قريبا من حياتك ومدينتك.

لا تعرف لماذا لم تنتابك الدهشة؟

لا تدرى لما لم تتساءل أيامها..!!

الضابط سيف أصبح صديق الأسرة، يدخل بيتكم من حين لآخر، بل أنه يدعى إلى الغذاء وفى مرات أخرى إلى العشاء..

شيئ غريب أن تلك الأمور لم تثر تساؤلك ساعتها.. آخر ما كنت تفكر فيه أن تكون هناك علاقة ما تربط بين سيف وثناء.. لماذا؟.. لأسباب كثيرة..

أهمها وأوضحها فارق السن الذى بينهما يزيد على عشر سنوات وطبعاً هى تكبره، ثم أنها مطلقة ولها طفلة جميلة، الأهم من كل هذا أن المساعى الحميدة على أشدها من أجل عودتها إلى زوجها الغبى..

أما سيف فلا يمكن أبدا مع ما علمته عنه أن يكون مفتونا بثناء، ومع ما خبرته وعرفته من أخلاقه أن يكون انتهازيا.. ووصل إلى أذنك يوما ما هدم كل تلك الأحاجى والأسباب

التى تضعها حرزاً بين سيف وثناء..

فى يوم من الأيام قررت قرار حازم أن تحطم ضنم الأخلاق المعبود..

لاحق ولا أخلاق ولا فضيلة، بل كذب وانحطاط ورياء.. هكذا تصورت.. كأنما عقلك المريض يتلمس الفرص ليثبت لقلبك أن أسطورة سيف ما هى إلا خداع.. سيف النبيل ليس بنبيل، إنه أحط خلق الله، هكذا انحرفت إحساساتك عن مسارها كل ذلك العدد المهول من الدرجات، كنت تعيش أكذوبة كبرى.. تقول لنفسك لا حول ولا قوة إلا بالله.. إننى شرير، أبله سطحى، همه على بطنه، أما هو فشرير أصيل عاقل من واضعى الخطط.. والله لأقتلنه.. هكا أقسمت يومها بينك وبين نفسك..

صممت على قتله، بت الليالى تحلم بهذا، انتظرت يوم إجازتك من المعسكر.. لم يأت يوم الإجازة أبدا.. اتت الطوارئ، الشدة..، الأستنفار.. قبل أن يبدأ العام الثالث والستون بيوم واحد كنت تطير فى الجو مع رفاقك من الجنود وجهتكم ميدان القتال..

فى ظلال الموت والقتال والدماء والدمار، اقترابك من النهاية كل لحظة، بل كل ثانيه.. تاه قسمك.. تاه سيف.. بل تاهت ثناء..

ثم.. أتتك الأخبار متوالية، تدفع بعيداً ثورة الشك تلك العجيبة والتى مرت كحلم.. بل كابوس رهيب.. عرفت عودة ثناء إلى بيتها وزوجها الغبى، قال لك أباك فى خطابه دون أن يوضح.. الدور الكبير والفضل يرجع إلى سيف ووساطته فى رجوع ثناء إلى بيتها..

ارتاح قلبك لتلك الجرعة التى أخرجت الشك، أتى اليقين.. سيف ما هو إلا أخ كريم وصديق نبيل..

فى يوم برد فيه القتال على الجبهه التى كنت بها، جلست تنظف سلاحك وترتب حوائجك.. رأيته يقف هناك بين الضابط بقامته المديدة..

تلاقت عيونكما.. ترك مكانه، تقدم نحوك فارداً ذراعيه، لم يدعك تؤدى التحية العسكرية، أخذك فى احضانه، قبلته على جبينه، احتضنته مرحباً..

يومها رجعت إليك روحك الخيره، عاد إليك مثلك فى الحق..

أياما قليلة بعد مقابلتك، عرفت أنه كان الوداع، أتاك نبأ سقوطه فى ساحة الوغى مغدوراً به، كنت تخشى هذا النبأ وتتوقعه، تقرأه مكتوبا فوق صفحة وجهه كل يوم من ساعة أن عرفته..

انقضى يومان منذ دخلت السفينة مرساها، خلفناها ورائنا مغادرون نحن وأمتعتنا..

جاءنى الأمر أنا الملازم أول احتياط رضا عبد الغفار رضا أن أكون الضابط المعنى بالمعدات والمركبات مساعداً لضابط الحملة..

أننا كتيبه محملة، نمتطى السيارات المدرعة والمجهزة..

معظم معداتنا والمركبات المدرعة والغير مدرعة المصاحبة لنا فى عودتنا مهلهلة، بذلنا كل الجهد فى ترميمها حتى تصمد ويمر العرض المنتظر فى سلام..

العرض اليوم فى الساحة الكبيرة أمام المحافظة الجديدة.. العرض سوف يحضره نائب السيد الرئيس، يلقى فية خطاب هام ويرحب بنا.. اليوم من أيام أخر مايو، الهواء القادم من جهة البحر يخفف من حدة حرارة الشمس..

حرارة غير عادية تسود الطقس كما تسود الأحداث..

نحن قادمون من ميدان الوغى فى أقصى الأرض حتى ندخل ميدان آخر للموت على حدود سيناء.. الأخبار جميعها تنذر بالحرب على الحدود السورية، أتتنا الأخبار ونحن هناك، منذ الساعات الزولى أول عامنا هذا السابع والستون، اندلعت التحرشات بين السوريين والأسرائيليين..

تلفخنا سخونة الموقف وثقل المهمة منذ كنا هناك بين الجبال..

لا أدرى لماذا الاصرار على الإستعراض أو حتى اعلان عودتنا..

عندما لامست قدماى أرض الوطن، جال نظرى فيما حولى، أيقنت أنها بلدى، أنا فوق ترابها، لفنى إحساس عميق، لم أحدد شعورى وأبعاده، كل ما انبثق داخل عقلى هو التمنى!! نعم التمنى.. أن لا أترك هذا التراب، اعيش فوقه واموت من اجله، وأدفن تحته..

ذهب سيف قبلى إلى هناك، فور بزوغ ثورتهم أول العام الثالث والستون، ذهب وجنوده إلى أرض الموت والأستنزاف..

لحقتُ به أرافق كتيبتى أواخر العام الرابع والستين.. أنا الملازم احتياط رخا عبد الغفار رخا وهو ابن عمى النقيب سيف جميل سيف مر على اسبوع واحد هناك وصلتنى أخباره مسطورة فى كل ربوع الجبال كما تعودت وكما توقعت، سيف المتوحد، البطل، الفدائى، الصاعقة، حبيب القبائل، يد الجمهورية القوى، قصص كثيرة ومثيرة، أصدق أو لا أصدق، إنه سيف ابن عمى وأنا أدرى بسطور حياته.. كل من يعرف أننى ابن عمه يزداد احترامه لى وتقديره لشخصى..

لما تقابلت وسيف خلال أحدث المهام بعاصمة الجبال، احتوانى فى أحضانه، أحاطتى كما تعودنا بحبه وإخوته، رأيته أكثر فحولة رغم نحول جسده الواضح، جلد وجهه صبغته الشمس أصبح داكناً مشدودا، شعيرات بيضاء تغزوا رأسه الحليق، نظرت يوم تقابلنا فى وجهه وهالنى التغير الواضح، أين الشعر الأسود الجميل المصفف، أين العينان الباسمتان، ما كل تلك النحوله.. ألا تأكل؟.. ضحك لأول مره منذ لقاءنا الصدفة، قال.. نعم آكل، الجيش سخى فى غذائه، لكنها الأفكار.. تأكل ما آكله؟ عادت الجهامة إلى وجهه المشدود، لم أدر ساعتها ولم أعرف مما يعانى، ظننته خائف من الموت.. قلت له هامسا.. أتظن يا سيف أننا سنعود أبدا إلى الوطن؟..

نظر داخل عينى نظرة أرعبتنى، بعض نظرته تصميم وعزم عرفتهما عنه دائما، مجمل نظرته ومن اعماق عينيه كانت تشع المرارة، لم أفهم ساعتها جيدا سبب مرارته، أجابنى وهو يشير فى وجهى بسبابته، يخرج الكلمات مضغوطه من بين شفتيه.. لا.. بل سنعود.. سنعود إلى الوطن، توقف قليلا ثم ابتسم، أعنى إلى بلدنا السويس.. مصر.. نذهب من هنا إلى هناك مستفيدين من درس ما نحن فيه.. ضحك وهو يقول تحدثنى عن العودة إلى الوطن وكأننا لسنا فى الوطن.. إنه وطننا يا أخى.. من الخليج إلى المحيط.. أمة عربية واحدة.. أما هناك فبلدنا، مسقط رأسنا.. أليس كذلك يا بلدياتى.. مازالت ضحكته ترن داخل اذنى وهو يسألنى سؤالا حيرنى.. يارخا.. هل ما نحن فيه هنا فوق الجبال يعود بذاكرتك إلى أيام كنا نحسم الأمور بيننا والحوارى الأخرى فى كفر البديوى بمعارك الحجارة فوق الطابية أم لا..؟ بعد شهور طويلة فوق أرض الصخور تغيرت وقارنت أنا بدورى، الجلد المشدود الداكن، الرأس الحليق يتخلله المشيب، العيون الحائرة الزائغة،

المراره تجتاج كل شئ، الطعم، الرائحة والأفكار..

أنها الخدعة الكبرى، تزود روحك بالعقيدة الراسخة، الأيمان العميق والمبدأ الصادق، تكرس حياتك لهذا، كفاحك وإمكانياتك، مستقبلك وكل كيانك، تشحذ نفسك ومعنوياتك، تتدثر بكل هذا الدثار الفخم الرنان..، تنزل إلى الميدان لمؤازرة الوثن الذى أفنيت الفكر والإمكانيات من أجله، لاتجد من تنازله إلا الوثن، يحتضك المعبود فإذا هو رمال ناعمة خانقة، تبتلعك قطرة قطرة، كل زرده منهم تسلخ جزءا من جلدك، تكسر عظمه من عظامك، تشرب جرعه من دمك.. وأنت حائر.. ما الذى كنت تعرفه؟.. ما هذا الذى أنت فيه ولاقيته؟.. أين الحقيقة؟.. ما هو الصواب؟.. أم هو ألم النضال يفقدنا الإيمان بما آمنا به..!! هل نداری قنوطنا من العذاب وخوفنا من مواجهة الموت بهروبنا إلى جحيم الكفر والحيره؟.. لا أدرى، كل ما عرفته أن الواقع الذى لقيناه على أرض الموت والصخور معاكس مائه وثمانون درجة لما كنا نعتقده ونشعر به ونتوقع أن نلقاه.. هل كانت اكاذيب كشفها الواقع المرّ؟.. لا أعرف.. هناك خطأ مازال يحيرنى، يعتصر قلبى، كما حير سيف واستنزف فؤاده..

ربما جاز لى أنا الحيرة والنكوص، أما سيف!!.. سيف الأسطورة فى مواجهاته، ثباته ورجولته.. هذا هو المحير فعلا..

كل هذا الحب أكنه لابن عمى سيف، لم يتركنى لحظه، أنا بدورى لم ولن أتركه، فى قلبى وعقلى، كلما تذكرت، أو تخيلت، سيف معى، عمرى الذى عشته، لازمته، نفترق ونعود ليحكى كل منا للآخر أدق التفاصيل البعيده، إنك معى يا اخى.. يا حبيبى سيف..

هل تذكر يا سيف الأيام الموحية، الأيام الداله، الأيام التى يظهر فيها معدن الإنسان دُون زيف.. أنت وأنا وزميلنا فى المدرسة محمود.. أذكر أنا.. ها ها .. ضحكنا كثيرا رغم صعوبة الموقف والموت يحيط بنا.. كان العام الخمسون، الكفاح على أشده خارج المدينة وداخلها أمام المستعمر الغاشم.. الرصاص بين لحظه وأخرى يمرق بين الجدران، يتخطى أجواء المدينة يزأر، أنا وأنت ومحمود نحضر الدرس اليومى فى اللغة العربية عند الشيخ عبد الظاهر.. الشيخ له حجرة ملحقة بكتابه وكلنا نعرف ذلك، لها باب آخر مستقل عن الكتاب ويطل على الشارع، لها دوره مياه تخصها بعيدا عن الكتاب، بعد انصراف التلاميذ

نحضر للتقوية حصه أو حصتين.. الشيخ يقرأ سورة الزلزلة، نحن نردد وراءه، ألح محمود على الدخول إلى دورة المياه، لما أصر وظهر الألم فوق وجهه سمح الشيخ بالذهاب.. قال له الشيخ وابتسامته الخفيفة غير الواضحة فوق وجهه المتجهم.. إياك أن تنسى الأستنجاء يا نجس..

واصل الشيخ معنا أنا وأنت.. بسم الله الرحمن الرحيم.. رددنا خلفه.. قرأ الشيخ بصوت جهير مميز.. إذا زلزلت الأرض زلزالها..، نطقنا أنا وأنت وراءه بصوت غير مميز، ضممت أنت الضاض كما نطقها الشيخ، فتحتها أنا، دون أن يتوقف عن القراءة والاعادة لسعنى بالخيرزانه الرفيعه فى يده فوق كتفى، تلويت أنا ألما، داريت أنت وجهك فى كتاب الله.. قال الشيخ مكررا وهو يضغط حروف التشكيل.. إذا زلزلت الأرض زلزالها.. تهيأنا للترديد، الدموع تكاد أن تطفر من عينى.. اهتزت الأرض، اهتزت الجدران، ارتطمت الأبواب والنوافذ، أتى الينا صوت الهدير والأنفجار، اهتزت أفئدتنا، جحظت عيوننا، هتف الشيخ.. الله اكبر.. الله اكبر.. يا ساتر.. يا ساتر..، قبل أن ندرك ما حدث جاء صدى خبطات طلقات الرصاص وأزيزها.. تخيلنا المعركة تدور فى الشارع.. بل أمام باب الفصل، إصفر وجه الشيخ، إنكمش فى مكانه، انزلقت أنا بجسدى وحتى رأسى أسفل المكتب.. أنت تنظر إلينا ولم أعرف تعبيرا على وجهك، لا أرى ذعراً فى عينيك، من بين أصوات الفرقعات القادمة أتانا صوتك يغطيها.. ها ها.. ها ها.. رفعت رأسى أنظر اليك متحيرا، لمحت الشيخ عبد الظاهر يرفع عصاه مغتاظا يهم أن يضربك بها فوق رأسك، لم تتوقف عن الضحك الصاخب، رفعت يدك تشير بها.. تجذب انتباه الشيخ إلى ما فجر ضحكك فى هذا الموقف العصيب المميت، توجهنا بانظارنا حيث أشرت.. انخفضت يد الشيخ بالخيرزانه إلى جانبه، علت وجهه ابتسامه باهته.. قال فى صوت محتج.. الله يخيبك.. شاركتك انا الضحك بصوت مكتوم.. محمود أمامنا علي باب دوره المياه يرتجف عاريا دون سرواله.. ها ها.. ها ها.. رحمك الله يا سيف، ذكرياتك حميمة متراصه.. لا منفذ فى داخل ذاكرتى دون حدث علم لا يمحى منها أبدا، أحداثه تكون بجوارك أو معك.. ما هذا؟.. آه.. إنها المركبات تستعد للتحرك بالجنود والأصطفاف فى أرض العرض.. الساعة الآن تقترب من الخامسة صباحاً، صلينا الفجر ونتهيأ للعرض.. سنمكث فى أرض الطابور حتى التاسعة صباحا

حيث يبدأ الإستعراض العسكرى.. أدعو الله أن يخفف عنا رهق الإنتظار..

إننى لن أشترك فى العرض، سوف أشترك بمسئوليتى فقط، أنا المسئول عن المركبات قبل وأثناء وبعد العرض.. إنها مهمه غير سهله، بل هى فى غايه الخطوره.. حدثتنا الأخبار عن ذهاب بعض المسؤاون عن المركبات فى مثل وضعى هذا إلى السجن والتشرد.. نعم صحيح.. لى صديق.. نفس دفعتى فى كلية ضباط الأحتياط، لم يذهب إلى الحرب مثلنا، فى عيد من الأعياد الوطنيه أسندت إليه نفس مسئوليتى الآن.. أثناء العرض مرت المركبات أمام المنصه.. هناك نوع من العربات المدرعه تثبت فى مقدمته مدفع ماكينه جرينوف.. أعلى السيارة وأمام المدفع يقف جندى فى حلة القتال جاهزا، أهم أدواره أنه عندما تمر السيارة أمام المنصه يؤدى الجندى التحية العسكرية موجها نظره ناحية الرئيس والمسئولين.. من المعروف المدفع يجب أن يكون خالى من الذخيرة، منزوع أداة التشغيل.. ولسوء حظ صديقى المسؤل عن المركبات يوم هذا العيد.. تقاطرت العربات أمام المنصه لعطل اصاب إحداها بعيداً فى الأمام..

زيادة فى سوء الحظ ضغط سائق أحدى السيارات المدرعه اعلاها الجرينوف كابح سير السيارة فجأة ودون انذار لتفادى الإصطدام بالسيارة التى أمامه.. وقفت السيارة مكانها بقوة لتهز كل من فيها وعليها.. الجندى المقاتل أمام المدفع اختل توازنه، مال بثقل جسده متشبثا بالمدفع امامه حتى يتفادى السقوط، رباط تحريك المدفع إلى كل الاتجاهات فوق قاعدته غير محكم، لا يتصور أحد أن يجرى هذا وبكل تلك الدقة دون ترتيب، تحرك المدفع تحت دفع ثقل الجندى، أصبحت فوهته مصوبه فى اتجاه المنصه.. حدث هذا فى لمحة سريعه لا تتعدى الجزء من الدقيقة.. الأسباب والدوافع غائبه عن فكر الجميع، لم يفكر أحد فى أن المدفع خالى من الذخيرة منزوع أداة التشغيل، الموضوع ما هو إلا عرض مسرحى مائة فى المائة، لم يلتفت احد إلى أن السبب الأساسى هو عطل أحد المركبات المتقدمة فى طابور العرض.. يؤكدون أن عدد من المسئولين انبطحوا أرضا على وجوههم وآخرون نزلوا إلى ما تحت المقاعد، راح صديقى الضابط المسئول إلى ما وراء الشمس..

استر يارب.. استر يا الله.. سوف أنبه الجميع.. بل افتش بنفسى على كل أربطة المدافع فوق قواعدها ولو استطعت تثبيتها بالنار واللحام سوف افعل..

تناست وعادت إلى بيتها وزوجها.. اقنعها هو... اسعد الجميع، ثم ابتعد.. حبه يملأ القلب، يمتلك الوجدان، حب نادر، فريد، لالبس فيه ولا شبهه.. ذكراه اليوم تفرض نفسها.. رفاق له يعودون، تستطيع أن ترى صفوفهم والتجمعات حولهم فى الساحة الكبيرة أمام المحافظة الجديدة..

تطل برأسها من أى نافذه فى شقتها، لو جلست فوق المقعد هناك فى الشرفه الضيقة ترى تلك الصفوف فى ملابسها الكاكيه بين أيديها أسلحتها اللامعه.. ترى ظهر المنصه التى أقاموها، البحر يمتد بعيدا هناك خلفيه لهم، إنها ترى حتى السفن البعيدة فى مدخل الخليج والمنتشرة من داخل الميناء متناثرة إلى الحافة ما بين البحر والسماء..

لا تستطيع أن تميز وجوه الجنود فى الصفوف الطويلة، هى متأكدة أنه ليس بينهم.. منذ أكثر من سبع أشهر جاءها الخبر..

كذبته أولا، قالت لنفسها وغيرها إنها أكذوبة، أعماقها موقنه بأنها تناور نفسها، تعلم.. بل أنه كان مسطورا فوق جبينه أمامها أن نهايته لن تكون إلا كما سمعتها.. نهايته؟.. سيف؟.. هكذا؟.. إذاً تلك هى النهاية؟.. ظنت فى وقت من الأوقات أن لا نهاية هناك.. لم تفكر لحظة قبلها فى ذلك.. أعماقها هى التى كانت تفكر وتعلم وتتآمر..

تأكد الخبر.. قابلت نبيله أم سيف..

نبيلة أم البلد.. تدخل كل بيت يستقبل مولود جديد.. مولده قانونيه قديمة، أحبها الجميع، أكثر من ثلاثين عام لا تأمن عائلات المدينة لغيرها دخول بيوتهم وتوليد نسائهم.. أكبر عدد من فتيه البلدة وبناتها أول من استلمهم فوق يديه وسمع صرخاتهم الأولى فى الحياة كانت نبيلة أم سيف.. فى الأحتفال بأسبوع ولاده أبنة خالتها تقابلت وأم سيف..

الحاجة نبيلة انحنى منها الظهر، زاد اسمرارها، الدموع تملأ عينيها.. كانت تتشح بملابسها السوداء، تحاول أن تبتسم حتى لا تعكر صفو الناس..

يبدو أنها تحاول أن تتناسى، تفضحها رغرغه الدموع بين جفونها.. حضر زوج ابنة خالتها.. سلم على الحاجة نبيلة، قبل طفلة بين يديها قال فى هدوء وهو ينظر إلى الطفل فى احضانها.. نسميه سيف إن شاء الله.. رأت ثناء كيف ينتفض جسد نبيله الضعيف النحيل.. تحاول أن تتماسك والطفل بين ذراعيها، اتسعت ابتسامة حائرة تملأ وجهها، جرت الدموع غزيرة على خديها، قبلت الطفل فوق جبينه وأعطته لأمه.. تلفتت حولها وهى تمسح دموعها فى طرف طرحتها التى حول رأسها، تهالكت على اقرب مقعد امامها..

تركت ثناء الناس حولها.. اقتربت من أم سيف ووضعت يدها على كتفها، تلاقت العيون، رأت أم سيف الدموع داخل عينى ثناء، وقفت واحتضنتها، أختلطت الدموع، همست أم سيف.. إننى.. إننى.. ربتت ثناء فوق ظهر العجوز المنحنى وقالت فى صوت مرتعش وهى تقبل جبهتها.. لا تقولى شيئا.. لا تقولى شيئا..

المرأتان داخل رأسيهما ألف ذكرى وألف شجن وكل المرارة..

نبيلة لم تنس قسوتها وهجومها على ثناء من أجل فلذة كبدها سيف.. ثناء لا تتذكر إلا أن نبيلة أم مكلومة.. ضاع ولدها..

آخر مرة رأت فيها نبيلة منذ أكثر من أربعة أعوام، كانت نبيلة مفرودة و الظهر، خمريه اللون، يلتمع سواد عينيها، تتحدث عن ابنها بفخر واعتزاز، توضح لأم ثناء خطورة علاقة أبنها بهم، رغم رقتها فى عرض وجهه نظرها إلا أنها كانت تقطع أوصال ثناء وأمها بناعم الحديث ومستتر التأنيب، لم يستطعا يومها هى ولا أمها الرد على أم سيف خوفا من اتساع الموضوع، أن تزج الفضيحة برأسها داخل المشكلة، خافت أم ثناء أن يدرى بالموضوع أبو ثناء الذى يكن كل الحب والموده لسيف.. أو أن يعرف بها إبنها الصديق الصدوق لسيف، وخافت ثناء أن يغيب عنها سيف..!!

تركتهما أم سيف يومها يعتصرهما الألم ويلفهما الخوف الممزوج بالحيرة.. أتى سيف بعدها بعينيه العميقتين وقدة الممشوق وجبينه العالى.. أتى بحصافته وعقله، تحدث وتحرك، نطق لسانه ببلسم الحياة.. أنتجت حركته ما أرضى الجميع وأنهى المشكلة..

تتذكر ثناء كل هذا وهى جالسة جوار نبيلة، كما تتذكره الآن وهى تطل من نافذتها أعلى العمارة التى تقطنها أمام ساحة المحافظة الجديدة..

.. ثناء تستدعى صورة سيف.. تطف بخيالها حرقه القلب، أحب صورة له رأته عليها، لم تنمح من ذاكرتها أبدا.. سنوات طويلة مرت.. كانت عائدة من مدرستها الثانوية، مرت على مدرسة النهضة، رياض الأطفال، لتصطحب عثمان معها فى عودتها، وقع نظرها على وجه عثمان، انزعجت تورم أسفل العين، دماء تحت الأنف وفوق صدر المريله، دموعه فى عينيه.. كانت تطمئن إلى جبروت أخيها ومنعته بين رفاقه، فوجئت بما لم تحتسبه.. لم تسأله يومها ما الذى حدث؟.. سألته من فعل بك هذا؟.. لم يرد إلا بجمله واحدة.. ولد مثل الطور.. أخذته من يده.. قالت له مثل الطور.. مثل البغل.. فى حجم الفيل.. أرنى كيف تأخذ منه بثأرك..

رأت عثمان يشير ناحية ولد.. طويل فعلا، لكنه نحيل، ليس مثل الطور كما اخبرها أخاها.. لمحت على وجه الطفل الطيبة والهدوء، لم تبال، دفعت بأخيها معضدة إياه ليأخذ بثأره.. إندهشت، خاب أملها، رأت الطفل الوديع ذا الوجه الطيب يلقى بأخيها على الأرض ويكاد أن يرغمه على مضغ التراب، لم تشعر بنفسها، تحاول إبعاده عن أخيها، تتذكر كأنه الآن.. رغم ثقتها فى قوتها لم تقدر على جذبه حتى تمزق ثوبه المدرسى فى يدها.. احتضنت الولد بكل ما استطاعت من قوة لتبعده عن أخيها.. تركته بعد أن أبعدته، إستدار نحوها، نظرت عيناها فى عينيه.. لا تنساهما أبدا.. تراهما الان.. متسعتين السواد، عميقتين، لم تر فيهما حقدا أو غلا.. رأت التحدى، خيل اليها ساعتها أنه رجل.. ليس طفلا هذا!! ارتعش جسدها، شعره الجميل الأسود مبعثر فوق جبهته السمراء اللامعه، يقف بطولة ونحافته دون أن يهتز، يرفع يدين متقابلتين فى وضع الإستعداد للصراع، ينظر داخل عينيها فى تحد تارة ثم إلى حقيبة كتبه الملقاة فوق الأرض تارة أخرى.. ملأها الغيظ يومها، جمعت كل قوتها صفعت هذا المتحدى الغبى كما دعته ساعتها، لم يضع الطفل كفه مكان الصفعه، لم يصرخ، لا ينطق أو يسبها، لايهتز بالمرة، ظل ينظر داخل عينيها فى تحدى، اهتزت هى، استدارت تجر أخيها جرا.. غير قادرة على مواجهة الطفل الصغير النحيل..

اختزنت له داخل عقلها، أمضت اياما تفكر فيه بغيظ وحمق، حكت لأمها، عرف ابوها ما جرى، لما سمع القصة.. ذهب إلى مدرسة أبنه، استقصى الأمر، عاد ليحكى لهم عن

دناءه ابنهم وخطفه لطعام رفاقه الأطفال مستغلا كبر سنه عنهم وفحولته، قالت الأم اعرف دناءه عثمان، ضربه أبوه ضربا مبرحا عقابا له حتى يثنيه عن تلك المشاكل القبيحة..

لم تتوقف حكاية سيف معها عند هذا الحد، من حين لآخر يأتى عثمان من المدرسة بقصة غريبة عن هذا الولد العجيب..

بعدت الأيام عن بعضها، كثرت الأحداث فى حياتها، كأى فتاة عادية غزا الحب قلبها، تزوجت حبيبها.. عباس الترزى الحريمى.. قريبهم من بعيد.. طيب.. مثابر.. جمع ثروة من عمله، وسيم، يهتم كثيرا بمظهره، الفتيات حوله فراشات يحمن، اختارها هى.. جذبه طولها، تناسق جسدها، تربيعه وجهها، عيونها الذهبية، شعرها فى لون عينيها يعلو رأسها غزيرا.. شقراء جميلة تهافت عليها الكثيرون.. أحبت هى عباس من كل قلبها، شملت أسرتها السعادة والبشر..

لم تكتشف مدى انغلاق عباس وأنانيته إلا بعد زواجهما!!..

تغير عباس؟.. أم هى التى تغيرت؟.. تذوق المر!!.. عباس يكسب كثيرا.. هذا فى حد ذاته شيئ جميل ولا ينغص العيش.. السيئ والقبيح هو كيف يصرف عباس هذا المكسب.. اللعنه.. اللعنه انتابت مكسب عباس.. أكثر من نصف دخله على المخدرات والخمر والسهر مع حاشية السوء.. الغبى!! لم يستثن عباس البيت من سهراته، واصدقاء السوء، زاد الأمر.. احتجت على دخول أصدقائه المنزل للسهر وتدخين المخدر وشرب المسكر.. أبوها رجل متدين، أمها لايفوتها فرض صلاة.. كيف تتحول حياتها إلى هذا الذى هى فيه؟.. ضربها عباس، أبت الشكوى فضلت الستر.. تأمل أن ينصلح حال عباس، يتنبه أن له الآن اسرة.. ربما خاف عباس أن يفتضح أمره بين افراد الأسرة، هو قريبهم ويحاول قدر استطاعته أن يظهر بين افرادها قريبها وبعيدها أنه الرجل المثالى، الأهم من ذلك أن عمله ترزى حريمى وإذا عرف عنه مسلكه هذا تأثر عمله، يهجره العملاء من حريم الأسر العريقه، مجتمع المدينة صغير، محافظ، متدين..

أمتنع عباس عن اصطحاب الرفاق فى سهراته داخل المنزل، يقضى سهراته بالخارج ويعود مع اقتراب الفجر لا يدرى رأسه من قدميه، ليست هى مرات قليلة التى يسهر فيها خارج المنزل، ولا حتى تلمس الحذر خوفا من امكانية افتضاح أمره، ملأه الرعب فى ليلة

حالكه السواد، اكتشفت جسده ملقى على اسفلت الشارع المظلم فى منتصف الطريق، تحوطه اكوام وبقايا ما ألقاه جوفه من طعام وخمر تفوح رائحته النتنه، تلفت حوله مذهولا، لم ير غير الكلاب والقطط تتصارع بين اكوام القاذورات المنتشرة، فاجأة ضوء ساطح قادم من بعيد، تحرك من مكانه بصعوبة يزحف على يديه وقدميه، لم يكد يصل طوار الشارع حتى مرقت سياره نقل كبيرة، داست البقايا فى البركة التى تركها خلفه، انتثرت قطعا من اسفل عجلات السيارة المسرعة تغطى وجه عباس وملابسه.. أزاح عباس عن وجهه الرزاز النتن، تسند الجدران، لا يعرف كيف وصل شقته بالدور الرابع بالمنزل المطل على ساحة المحافظة الجديدة..

فرحت ثناء لما أخبرها عباس وهو يصالحها أنه لن يسهر خارج المنزل أبدا ابتداء من تلك اللحظة، تجنب أن يحكى لها السبب، ولم تسأل هى.. قالت لنفسها تلك هى أول خطوة حلوه نالتها مكافأة على صبرها.. خمنت، بل كادت أن توقن حملها الذى داخل بطنها هو الباعث على قرار عباس.. كل يوم بعد العاشرة مساء يجئ عباس إلى منزله، يجهز لنفسه مجلسا، يوقد الفحم، يغسل الشيشه، يحضر الثلج، يظل يكركو ويقرقر، تخبره هى عن نوعية العشاء ومكانه فى المطبخ، تصلى العشاء وتدعو الله أن يتم نعمته على عباس، يهديه، يتوب عما هو فيه من لغو.. تأوى إلى فراشها، تأخذ سنة نعاس، تنتبه على أصوات كركرته وتحركاته، تنام مرة أخرى، عندما تستيقظ صباحا لا تجده.. لا تدرى هل نام؟.. أين نام؟.. كيف استيقظ للذهاب إلى عمله؟.. لاتعرف.. انتبهت ثناء من افكارها، رأت طابور العرض يتحرك، توقفت الأغانى الوطنية المنطلقة من مكبرات الصوت، أتت أصوات موسيقى المارش العسكرى، صوت المذيع ينبعث.. هؤلاء الأبطال هم الذين يذودون عن شرف العروبة.. ابطالنا الذين انتصروا على اعداء العروبة، سطروا بالدم أمجاد تاريخنا.. تلك المدرعات علهيا الأسود قادمين من الوغى، هم الذين سيلقنون عدو العرب الأكبر الدرس، حنكتهم المعارك، صهرهم القتال الحقيقى.. انهم قادمون.. قادمون ليسحقوا تكبر العدو، يلقنوه الدرس، يلقون به إلى البحر، يخرجونه من الأرض المسلوبه، علا الضجيج، تداخلت الموسيقى للمارش العسكرى وحماس المذيع، اهتزاز ذبذبات التردد بأجهزة مكبرات الصوت.. صدر عن الأجهزة صفير يصم الأذان...

كانت ليلة ليلاء.. راحت فى نوبة نعاس بعد أن اغلقت التليفزيون.. فيلم السهره حزين كئيب.. يحكى حكايات سوداء عن زوجة خائنه وزوجها الطيب المتفانى فى حبها..

انتبهت مذعوره على يد تهزها، فتحت عينيها الخائفتين، لاتعرف أن كانت عينيها تخدعانها أو كان هو يتمايل والكأس فى يده، سألته عن ماذا بك يا عباس؟.. أجاب متلعثما.. ألم تشتاق ألى؟.. أنا مشتاق.. لم ترد، جلس جوارها على الفراش، رفع الغطاء، التصق بها.. جسده ينتفض، يهتز، مد يده يقرب الكوب فى يده إلى فمها، شمت الرائحة النفاذة الكريهه، تحركت مبتعده عنه تدفع بيدها الكوب بعيدا عن وجهها.. ما هذا؟.. هذا دواء منشط للحب يا حبيبتى.. مد يده بالكوب مرة أخرى إليها، اغتاظت دفعت يده بها الكوب فى قوة.. وقع الكوب من يده فوق الفراش، تناثر ما فيه من خمر، طال قميص نومها، بلله، شعرت به على جسدها لاذعا باردا، دفعت ثناء عباس بعصبيه فى صدره، ارتمى على ظهره فوق السرير، قفزت هى إلى الأرض.. أنت سكران.. أنت مجنون.. جننت والله..

يقف عباس بصعوبة، جسده يترنح.. أنا.. أنا.. جننت.. صحيح.. ألم تدرِ؟.. جننت وتزوجت.. أنا جننت يا أبنة اللئام؟!..

انكمشت.. خافت.. لأول مرة يسبها.. لا تتكلم هكذا.. لا تعلو بصوتك.. سوف توقظ الجيران..

الجيران؟.. أى جيران؟.. تتركينى.. لا تشاركينى.. تهجرينى.. هل عندك اكتفاء ذاتى؟.. هه.. هل هناك زوجا لك غيرى؟.. تركت أصحابى.. أحبابى.. أسهر كل ليلة وحدى.. وحدى. لا أنيس ولا جليس.. تتركينى وتنامين.. لاتسألين عن حالى.. هل أخبرك أحد أننى انتهيت؟.. هل أنا خيال مآته؟.. ترنح إلى الخلف بقوة، تساند على الحائط، تجشأ بصوت كريه، رأت لعابه فوق فكه، عينيه محمرتين، عضلات وجهه ترتعش، تطوح وهو يسند جسده بيده اليمين على حافة السرير، أستدار أمامها نصف استداره وهو يشير فى وجهها، أرعبها منظره، قالت تحذره.. أياك أن تلمسنى.. سامع.. إياك أن تقترب منى.. أنت مجنون..

أنا مجنون؟.. آه.. مجنون لما تزوجت.. أسمعى يا أبنه اللئام.. لاتريدين أن ألمسك أو

أقترب منك.. موافق.. انتهى.. هذا طلبك.. اذهبى.. اذهبى أنت طالق.. طالق.. طالق..

رأته والفزع يحتويها يرتمى فوق الفراش، قبل أن تفيق من ذهولها سمعت غطيطه يملأ الغرفة حولها..

توقف تفكيرها، جلست بركن مظلم ترتعش طوال الليل، عند الصباح، قبل أن يفيق عباس.. حملت ملابسها ورحلت إلى بيت أبيها فى وسط المدينة.... هؤلاء الأبطال الذين سطروا ومازالوا يسطرون بدمائهم وثيقة وحده ومجد العرب.. وسكت المذيع، أتت موسيقى المارش قويه تهز الفؤاد..

سألت أم ثناء منزعجه.. كيف؟.. الطيب الذى لايهش ذبابه.. ماذا تقولين؟.. أكيد.. ضرورى هناك سبب.. ما هو يا أبنتى؟.. لا شئ يا أمى.. عنْدّ.. خلاف حول العشاء والنوم والكسل وفجأة وهو فى عصبيته ألقى اليمين.. انزعجت أم ثناء، حزن أبوها، لم يحضر عباس للإعتذار أو حتى التوضيح.. هم الأم وتفكير الأب كلما طال عدم اهتمام عباس هو معرفة السبب.. تصر ثناء على ما ذكرته.. تحاول الأم دفع أبو ثناء للذهاب إلى عباس.. تعز نفس الأب على استجداء زوج ابنته.. طال البعاد والانفصال بين عباس وثناء.. أول الأمر عللت ثناء نفسها بالحجج المختلفة.. ثم عزت الأمر إلى خوفه أن تكون حكت لهم الحقيقة، لما طال الأمر وضحت لها أنانيته.. الجبان!! الغبى!! حاولت بكل قواها أن تحجب البغضاء بعيدا عن قلبها.. تتماسك.. تضع كفها فوق جنينها.. أبن عباس داخل بطنها..

فى ليلة جلس عثمان يحكى واحدة من حكاياته حول بطوله سيف رئيس فرقتهم للمصارعه اليابانية، يخبرهم عن ذكاءه ونبله وانتصاراته.. وجدت نفسها داخل عينيه المتحديتين، لا تستطيع أن تنسى هذا الطفل، عيناه العميقتان الموحيتان... أخوها يحكى عن شاب يافع، رجل، ضابط فى جيش مصر.،. خيالها لا يستوعب إلا هذا الطفل النحيل ذا المريله الممزقة ونظره التحدى التى تشعها عيناه.. لم تره أبدا بعد موقفه المتحدى معها..

لما انفردت بأمها بعد العشاء كانت تتألم، قربت ساعات وضعها وليدها.. مازالت تفكر فى هذا الطفل العجيب.. هل هى حكايات أخوها المستمره حول سيف؟.. أو هو الشخصية النحيلة غير المستسلمه التى لا تفارق مخيلتها.. أشتد بها الألم.. قالت لأمها وهى تحاول أن تبتسم، تجز بأسنانها الوجع.. أتعرفين يا أمى.. أشتهى أن يكون لى ولد مثل سيف هذا..

نظرت أمها اليها متحيرة.. هى هلوسه الوضع اكيد.. يا أبو عثمان.. هات لنا أم سيف.. ضحكت ثناء وهى تتلوى وجعا.. هى تريد سيف الصغير وأمها تستدعى أم سيف.. فى تلك الأيام كانت أم سيف سمراء جميلة عيناها سوداوتان، عميقتان مثل ابنها، بشوشة إبنة نكتة، يحبونها جميعهم، تلقت على يديها إبنة ثناء البكرية الجميلة..

قبلت ثناء أبنتها العارية، أم سيف تدثر الطفلة وتلفها بأول دثار لها فى الحياة..

ضحكت أم سيف بصوت عالى.. تتربى فى عزك وابوها حتى تزفوها إلى بيت العدل.. أبن الحلا.. سمعت ثناء نفسها بصوتها الضعيف الخفيض..

عندما أرزق ولد سأسميه سيف، أغمضت عينيها، أمها تنظر إليها فى توجس وقلق، زادت ضحكة أم سيف.. وترينه ضابطا يملاء الدنيا.. اعقبت أم ثناء.. يارب.. ويبارك لك فى أبنك المحروس..

... تغير ايقاع المارش العسكرى داخل مكبرات الصوت.. تحركت ثناء من أمام النافذة، عبرت الحجرة والردهه، استقرت داخل الشرفة الضيقة، تتفرس المهرجان وسط الساحة المتسعة..

... المشاه.. المشاه سادة المعارك.. علا صوت الطبل يدوى، يصم الآذان..

قبل الأحتفال بأسبوع ميلاد أبنتها البكريه منى أتتها ورقة الطلاق على يد محضر...

الجبان.. قطع كل الآمال.. لماذا؟.. لم أسئ اليه، لم أفش سره.. الجبان.. الغبى.. يطفئ آخر شعاع.. أهتزت الأسرة.. كانوا ينتظرون عودته بعد أن رزقه الله بمنى الجميلة.. مؤكد هناك أمر جلل دفعه إلى هذا.. نظرات الشك تحيط بثناء.. لماذا يا أبنتى؟.. ضرورى هناك سبب قاهر.. اخبرينا يا ثناء حتى يتصرف أباك..

لامناص، لا حيله، لا سبب يدعوها للسكوت، حكت لهم.. لم يصدقوا.. أثبتت لهم، روعوا، اهتزوا من اعماقهم، هتفوا فى صوت واحد.. الجبان!! الغبى!!

أغلق أبو عثمان على نفسه باب حجرته، فكر طويلا، كبرت أبنته أمام عينيه، احترمها كما لم يحترم أحد فى حياته، خرج من حجرته، شدد عليهم جميعا أن يكونوا مثل ابنتهم فى محنتها.. عقلاء.. لاينبسون، لايتفوهون، لايحكون، يتركون الأمر بعض الوقت.. ينتظرون حتى يأتى الله أمرا كان مفعولا..

الأسرة جميعها تجتر مصيبتها فى زوج ابنتهم بصمت، تتبع تعليمات الأب فى حكمتى السكوت والصبر، حتى عثمان الأهوج هزه الموضوع وحرك عقله للتفكير..

... خفت صوت قرع الطبول المصاحب لموسيقى المارش العسكرى المنبعثه من مكبرات الصوت.. المشاه تبدأ بهم المعارك.. تنتهى بهم .. مهما كثرت أو عظمت الأسلحة.. المشاه هم أساس المعركة.. بارك الله فى أبطالنا.. سادة المعارك..

سيف كان ضابط مشاه.. اخوها عثمان جندى مشاه.. اللهم احميه وأعده الينا سالما.. آتاها خطاب منه منذ شهر.. نعى فى الخطاب سيف.. لا يعلم أنهم عرفوا منذ شهور طويلة..

لا يعلم عثمان ما الذى فعله سيف من أجله ومن أجلها..

.... مع أن أصوات موسيقى المارش ارتفعت بطبول عميقه عاليه متواليه يخفق لها القلب.. سمعت ثناء الصوت المتحمس.. الصاعقة.. تضحية.. فداء.. شرف..

لما قابلت سيف رأت شارات ونياشين الصاعقة تزين صدره وأعلى ذراعه.. إنها لم تقابله.. الحقيقة سعت لمقابلته..

حكى لها عثمان عن انزعاجه وألمه عندما عرف بأن مكان تجنيده تأكد فى سلاح يوجب عليه قضاء معظم خدمته بعيدا فى الاسكندرية.. لا تدرى ما الذى أوحى لها أن تقترح عليه الاستعانه بسيف صديقه.. لم يتخيل عثمان تخيلها. لا يعلم ماذا يمثل سيف داخل وجدانها..

.. قبل أن ترحل إلى بيت أبيها من عند عباس.. حكى لها وسط أحاديثه الكثيرة عن هذا الضابط ابن الحلاق..

مثار عجب عباس حول هذا الضابط هو من يرافقونه.. أنهم من كبار القوم.. فهمت من حديث عباس أن هذا الضابط ذا الإتصالات المميزه نجم من نجوم نادى بورسعيد الإجتماعى، النادى يلاصق محل عباس أمام ميدان النافورة.. الضابط هو سيف ابن أم سيف المولده وجميل الحلاق..

استجابت الأيام تحقيق أمنيتها الكامنه فى أعماق نفسها..

تثابر عند خروجها أو عودتها أن تمر من أمام نادى بورسعيد الإجتماعى.. بعد عصر

نسميه منعش رأته فى حلته الرسميه وهو يدخل من باب النادى.. طويل عريض ممشوق، خفيف الحركة، رأته من جانبه وظهره.. أحست بشعور غريب غامر.. هل هذا هو الطفل الذى صفعته؟.. معقول؟.. احتل فكرها وخيالها.. ربما لا يكون هو .. أو ربما هو.. كيف تعرف.. كيف تحدثه فى ماذا؟.. بخصوص مساعده عثمان طبعا.. أحقيقى هذا أم هناك شيئا آخر؟.. شئ آخر!!.. لا شئ بالمره.. يجب مساعده أخى.. لماذا هو يساعد أخيك يا ثناء؟.. لأنه صديقه.. لأنى.. نعم أعرفه تعرفينه؟.. هه.. هه.. منذ متى؟.. منذ تحداك وصفعتيه على وجهه؟.. هه.. ذلك الطفل النحيل صاحب الرداء المدرسى الممزق بين يديك؟.. إنك تهزلين.. لم تستطع.. لم تستطع أول مرة..

مرت بعدها ثلاثة أيام، كل يوم.. فى نفس الميعاد تكون فى طريقها أمام نادى بورسعيد الإجتماعى..

هل جننت؟.. تبجحت أمام نفسها.. لا لم أجن، من الضرورى أن أساعد أخى، لا طريق غير ذلك..

أجمعت أمرها فى اليوم الرابع.. تتذكر.. يوم خميس.. الشارع يعج بالناس، من يعرفها ومن لا يعرفها، صدقت قرارها، دخلت من باب النادى.. خفتت الموسيقى العسكرية فى مكبرات الصوت.. علا صوت المذيع المتحمس.. أنهم شباب آمنوا بربهم.. شباب مصر.. صدورهم مشدودة.. جباههم عالية شامخة..

داخل النادى اضطربت ثناء، الازدحام شديد، اللغط عالى، أرادت أن تعود من حيث أتت، لاحظت أنه لم يلتفت إليها أحد، لمحته بعيدا جوار أحد الأبواب يقف وحيداً يتلفت، تقدمت نحوه وهى تحس غيبوبه أستمتعت بها، شقت طريقها فى الزحام، ظنت أنها مشت ساعات.. وقفت أمامه، رغم طولها المشهود له وجدته أطول منها كثيراً، رأسها توازى صدره العريض، لمحت شعيرات سوداء كامنه خلال فتحه قميصه الكاكى الداكن، رفعت عينيها حتى حاذت كتفيه.. عريضتين، أعلا كل كتف نجمه ذهبية لامعه تعلو فرشه خضراء من القطيفه.. تشجعت.. رفعت عينيها الذهبيتين إلى وجهه الأسمر الناعم المشدود الجلد، أنه هو.. أكيدا هو.. العينان العميقتان السواد، المتحديتان.. تغرق فيهما.. أرتعشت.. أحست بعينيه تبتلعانها.. خفضت عينيها بسرعة، رأت شعر صدره المتوارى، أستقرت بهما

أخيرا فوق هذا النسر الفارد جناحيه.. الصاعقة.. همست.. الأستاذ سيف؟.. سمعت ضحكته.. أهلا ست ثناء.. لست أستاذا أنا ضابط.. يضحك منها.. لمسها الغيظ.. كيف عرفها.. إنها عرفته من عينيه؟.. رفعت اليه عينيها متحديتين، غرقت مرة أخرى داخل عينيه اللامعتين.. هل هذا هو الطفل الذى صفعته؟.. هل مر الزمن بتلك السرعة؟.. شئ كالحلم.. هذا إذا سيف الذى اتخذه عثمان مثلا لا يعلى عليه.. تماسكت، استردت نفسها.. تحدثت بشئ من التردد ولكن بجديه.. شرحت له مشكلة عثمان.. لأول مرة تنتبه إلى عينيه دائمتى الإبتسام.. تنفرد عضلات وجهه وتنضم بكل الأنفعالات اللازمة للموقف، عيناه ثابتة الأبتسام.. لما تحدث شعرت براحة لم تحسها فى حياتها، وعدها بأنه سيفعل ما فى وسعه، أكد لها أن الأمر سينتهى كما تشتهى، أكدت عليه هى بأن لا يخبر عثمان عن وساطتها، أفهمته أن هذا يجرح مشاعر عثمان.. بالضرورة سيكون فيه إحراج لها.. وافقها سيف على ذلك، تحدث معها وهو يغض من بصره، لم يشر إلى أيام الصفعه، لا تحاول هى أن تتحدث فى غير ما أتت من أجله، شكرته، مدت إليه يدها، أخذ كفها داخل كفه الكبير، سلم عليها وهو مازال يغض من بصره..

اخبرت امها وأباها بما جرى، شددت عليهما أن لا يتحدثا إلى عثمان فى هذا الأمر، أكدا هما عليها أن لا تحاول ذلك، وفى سيف بوعده لها.. فرحت الأسرة بتجنيد أبنها جوار مدينتهم، تكتموا الأسباب عن عثمان... أنتهى أيها المواطنون العرض العسكرى لأبطالنا العائدين من معارك العزة والشرف والكرامة، معارك الزود عن عروبتنا، هنيئا عودة الأبطال.. وطوبى لأبطالنا الشهداء.. بسم الله الرحمن الرحيم.. ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون صدق الله العظيم.. سكت الصوت.. صدحت الموسيقى.. بالأحضان.. بالأحضان يا بلدنا الحلوه بالأحضان..

خفق قلب ثناء، أرتجف جسدها.. بكت فى حرقه وألم.. آه يا سيف.. أيها الرجل.. أيها الشهيد.. أحبك والدى، أحبتك أمى قبل أن تراك.. سعى أبى إليك، شكرك، صمم أن يدعوك عندنا..

أعلم أنك رفضت كثيرا، اخيرا دخلت منزلنا، لا أعرف كيف أقنعك أبى الطيب بذلك.. أكيد أنت أحببته، برهنت كثيرا على حبك له وحبك للجميع.. اذكر تلك المرات القليلة التى

دخلت فيها منزلنا.. مرتان على الغذاء ومثلهما فى العشاء، أصبحت تلك اللحظات القليلة فى عمر الزمن مرات ومرات فى أحاديث الناس..

لا أستطيع أن أحدد شعورى تلك الأيام، كل ما اذكره أننى كنت فى حاجة إلى رؤياك دائما.. ارتاح لحديثك.. لقدومك، لمجرد تواجدك بيننا.. افتقدتك فى غيابك كثيرا، لاحظت نفسى فى غيابك وأنا عصبيه متوتره، لا أهدأ ولا أرضى إلا بوجودك.. أحيانا كثيرة كنت لا أتصور الحياة دون وجودك.. حاربت نفسى كثيرا تلك الأيام، حاربت إحساساتى، ناضلت أعماق أمنياتى.. أمى هى الأخرى توجست اتجاهات شعورى، لا تستطيع أن تواجهنى، أنه الجنون بعينه.. لاحظتها وهى تتلمس الحجج لإبعادى عندما تكون أنت موجود.. من يصدق أن يكون هناك شيئا بيننا، أننى اقترب من أن أكون أمك.. تمنيت كثيرا أن يكون لى ابنا مثلك.. وأصبحت اساعد أمى وحججها حتى أبتعد حينما تأتى أنت، كان هذا لازما حتى أبعد شكوك أمى وقبلها شكوك نفسى فى خيالى الجامح..

وأتت أمك الينا.. وضعت كل هذا بين قوسين.. حددته بحديثها الناعم الهادئ الرقيق والقاتل، احتوانا الصمت والخوف أنا وأمى.. رغبتى كانت جامحة مجنونه فى أن أحطم هذا الشعور المبهم، أحدد موقفى من هذا الكابوس.. أنا أحبك.. أحبك نعم.. والسؤال أى نوع من الحب هو؟..

هل أنا أحب هذا الطفل عميق العينين المتحديتين المزق المريله؟..

أم أنا أحب حكاوى أخى وزوجى حولك؟..

أو هو أننى أحب هذا الضابط المشوق صافى العينين الحانيتين؟..

أحبك كأبنى؟.. أو أحبك كأخى؟.. أو أتمناك لنفسى؟..

أنه كل هذا يا سيف.. أحبك كل هذا؟.. لكن كيف؟..

كيف وكل ما حولنا لا يقبل ولا يستقيم لذلك؟..

لم نتحدث فى الحب أنا وأنت ابدا.. هى مرة وحيدة اتيت إلينا فيها بعد أن علمت بزيارة أمك لنا.. استمعت صوتك الحبيب يستفسر فى رصانه، اخبرتك أمى بما كان من أمك، زادت على ذلك وهى متلعثمه أنها ترى ما تراه أمك.. سمعتك تتحدث فى صدق.. لم أتمن أن تكون لى شريكه فى حياتى مثل ما تمنيت أن تكون ثناء، ما اشتهيت أن تكون لى أخت

الاثناء، هى حسب الواقع والنصيب أحب اخوتى بل أعزهم، أنا لن أتخلى أبدا عنها كأخت عزيزه كريمه وأتحمل كل مسئولياتى أمامها،.. يومها طلبت أنت من أمى ملحا فى طلبك قصتى مع عباس، استمعت أنا وأنت لأمى وهى تحكى لك قصتى مع زوجى عباس، لم تتحدث بعدها كثيرا.. قبل أن تودعنا أكدت لنا أن كل الأمور ستنتهى على خير.. كنت تعرف ما تفعل يا سيف، أتضح لى هذا فى تجربتى الحزينة معك، سمعت منك وعدك لأمى بأن اختك ثناء الحبيبة سوف تعود إلى بيت زوجها عباس، طلبت منى وأمى أن نعد لهذا الأمر بحسن لقاء عباس عندما يحضر إلينا.. حسبتك أمى أنك تجاملنا، ظننتك أنك تتحدث معنا لتطيب خاطرنا مستبشرا خيرا..

أما أنا فأنت مزروعا داخل كيانى، تسللت إلى وجدانى منذ أن كنت طفلا بعينيك العميقتين الرجوليتين..

كنت أوقن أنك ستنفذ ما وعدت، لم أعلم أبدا كيف سارت أمورك.. كل ما فعلته أننى صدقتك فور سماعى لوعدك أمى، جهزت نفسى ومعنوياتى للقاء عباس كما طلبت أنت..

اندهشت أمى وتحيرت.. أما أنا فقد صدق ظنى فيك عندما شاهدت عباس يقف على باب شقتنا لما فتحت الباب، كان ذلك بعد وعدك لنا بأسبوع واحد فقط..

سكتت الموسيقى والأغانى الوطنية فى مكبرات الصوت المنتشرة حول ميدان العرض العسكرى..

نهضت ثناء من مقعدها فى الشرفه الضيقة، سمعت نداء أبنتها الصغيرة منى بعد استيقاظها من نومها.. ماما .. ماما..

انتفاخ بطنها فى حملها الثانى واضح، تبعا لحسابات أمها يحين ميعاد الوضع منتصف الشهر القادم..

القت نظره أخيرة على الميدان والشارع الطويل المكتظين بالجنود والناس والعربات المختلفة المصفوفة صفوفا طويلة.. المدينة جميعها تقف حولهم سمعت المتحدث متحمسا عبر مكبرات الصوت.. أيها المواطنون، فى شرف لقاء الأبطال والترحيب بعودتهم إلى أرض الوطن يتحدث السيد نائب الرئيس..

الشمس بأشعتها الساخنة تغمر الجدران والشرفة الضيقة.. أغلقت ثناء خلفها باب

الشرفة.. سمعت مكبرات الصوت..

إيها المواطنون الشرفاء.. جميعنا وقوفا صامتين دقيقة أجلالا وذكرى وعرفان لأعزاء لم يعودوا، قضوا شهداء بعيدا، رويت الأرض بدمائهم الطاهره الزكيه فى سبيل العزه والكرامة وأداء الشرف والواجب.. ساد صمت كئيب لايقطعه إلا صفير مكبرات الصوت..

توضأت لتصلى، وهى تضع الطرحه فوق رأسها لمحت شعرها فى المرآه الكبيرة بمدخل الردهه، أبيض كالقطن، تتخلله شعيرات تائهه رماديه أو سوداء، تحسبها بعض الشوائب العالقة بتلك الكتلة من القطن..

غطت شعرها، أحكمت دثارها وتوجهت إلى الله..

استغرقت طويلا تغسل روحها بنفحات القرآن والدعاء، تدعو الله الصبر والسلوان والستر.. أن يلحقها بحبيبها الشهيد فى جنة الخلد..

سمعت اقدام جميل يصعد السلم بعد أن أدى صلاة الفجر فى مسجد جليدان، فتحت له الباب قبل أن يطرقه، ألقى عليها السلام، ردت سلامة، دخل هو إلى حجرته، جلست هى فوق الأريكة الأسيوطى المقابلة الباب، سمعته بعد حين.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.. والفجر وليال عشر والشفع والوتر..

يقرأ فى عمق واخلاص، يلوذ من هجير الألم بكلمات الرحمن..

تعجبت نبيلة داخل نفسها من احوال البشر، تمتمت.. سبحان المغير ولا يتغير، أهتزت، شعرت بدموعها تقترب، تكاد أن تنهمر.. نبست بصوت مرتعش.. الحمدلله الذى يغيرنا إلى ما يختاره وهو الأفضل أن شاء الله.. انهمرت دموعها.. تغيرت الأشكال والأفعال.. سألت نفسها.. هل تغيرنا نحن أيضا؟.. تأملت.. أنه الأمس القريب.. كم يساوى هذا الأمس فى حساب زمن الناس.. عشرون سنة.. خمس وعشرون.. أكثر.. ثلاثون.. تتذكره كأنه الأمس.. جميل يطاردها فى حوارى الأربعين.. فى حارة رشيد، كفر البخارى، المرور، حتى فى الكساره والسليمانيه.. بحكم عملها مولده بمستوصف الحكومة.. أينما ذهبت رأت وجه جميل يحدق فيها، يبتسم لها.. أول مرة رأته عندما ولدت عزيزه زوجة أخاه عبد الغفار.. خرجت من الغرفة إلى فناء البيت الواسع خلفها زين أم عبد الغفار.. تقول لزين والله يا أمى بنت مثل القمر.. تسمونها زين كأسمك.. البنت تحمل الكثير من ملامحك.. ترد زين..

أسمها مريم أن شاء الله على أسم جدتها لأمها.. مريم جدتها رحمها الله حبيبتي.. أوصتني قبل موتها، عاهدتني على زواج عبد الغفار أبني لابنتها عزيزة والتي هي ابنة عمه..

نبيلة تغسل يديها تحت صنبور في نهاية صهريج من الصفيح دلتها عليه زين في جانب من الفناء الترابي، تضع الصابونة الفنيك على جانب قاعدة الصهريج الخشبية، التفتت ناحية زين التي تحمل المنشفة وتقف خلفها، وقعت عيناها داخل عينيه الجميلتين، رأت جبهته البيضاء الوضاءه ترتمي فوقها خصلات من شعره الناعم شديد السواد.. أهتز كيانها. لم تتمالك نفسها.. خافت الأبتسام، تجهمت.. نظرت زين خلفها.. مالك يا ولد؟.. ما الذي تفعله بوقفتك تلك؟.. أذهب ابحث عن عبد الغفار لتخبره.. هيا يا ولد..

لا تنسى نبيلة رمشه جفونه واختلاجه وجهه.. كأنها تراهما الآن، والقت بعينيها بعيدا عنه..

.. بعدها اينما ذهبت في عملها أو ترحالها وجدته بقامته المديده ووجهه المتجهم الجميل أمامها..

أياما وشهور وأتاها اباها عبد الرحيم بوجهه الداكن السمرة الطيب القسمات متهللا فرحا.. قال لها كطفل نال كل ماتمنى.. مبروك يا نبيلة.. مبروك يا أبنتي.. طلبك مني اليوم شاب هو زين الشباب.. أرجو من الله أن تكوني من نصيبه.. أنه رجل الرجال يا أبنتي..

ماذا قالت لأبيها يومها؟.. لاتتذكر ماقالته.. تمتمت ساعتها.. وتواكبت الأمور.. سارت دون أن يرتب لها مخلوق.. قدر مقدور.. عرفت من هو زين الشباب ومن هو رجل الرجال.. إنه ذو الوجه المتجهم الجميل والقامة المديدة.. جميل ابن زين..

ثارت خالاتها اللائي ربينها.. هي لم تر أمها أبدا.. تسمع أن أمها رحلت عن الدنيا وعنها بعد العام الأول من عمرها، شبت في كنف خالاتها القاسيات..

عبد الرحيم هريدى أبوها رجل قبلي أسود جاء من أقصى الجنوب، أتى يحمل قلب طفل وطبع الفطره.. استقامة القبليين وطيبتهم واعتزازهم بأنفسهم..

قال لها أنه من البشاريين.. من سادتهم.. نزح من هناك عن طريق البحر، ظل يعمل في البحر عندما وصل المدينة..

طباعة، إتباعه الطريق المستقيم.. حقق رزق وفير.. قبلوا أن يزوجوه أمها رغم قبليته وسواد بشرته، يقول أنه لم يعرف فى حياته امرأة غير أمها.. البيضاء.. بل شديدة البياض.. المتوترة شديدة العصبية.. أخبرها أن زواجه بأمها لم يدم إلا ليلة واحدة لا ثانى لها..

فزعت البيضاء من القبلى الأسود الطيب.. كانت ليلة واحدة حملت فيها بنبيله.. نبيله تحمل بصمات ابيها فى طولها الفارع وشعرها المجعد، تداخل فى لونها بياض أمها فخفف من سمرتها، كانت كأميره قادمه من الهند أو من أقصى الجنوب.. رغم الحده التى يقال أنها ورثتها عن المرحومه أمها والتى لم ترها أبدا ألا أنها وكما يعرف الجميع صفاتها البارزة الطيبة والأستقامة فى الرأى، نبل المقاصد، عدم خبث، الطويه والميل إلى العشره وحفظ الواجب تجاه الآخرين.. كلها صفات الواضح منبعها الرجل القبلى الطيب أبوها عبد الرحمم هريدى..

مالت نبيله إلى ميل عبد الرحيم هريدى نحو رجل الرجال جميل.. تحدث بذلك خالاتها وكل أسرة المرحومة أمها، قال ابن خالتها الذى لم يتعد الخامسة عشر وهى تسميه دلوع العائلة.. كيف تتزوج ابنة خالتى المتعلمه هذا الحلاق الفلاح الجاهل..

أهتزت دنيا أسرة المرحومة أمها، اشتعل الحديث، كثر اللغط، زاد الضغط، حمدت الله على وجود عبد الرحيم هريدى وأن جميل لم يضل الطريق إليه، الحقيقة رغم التباين الواضح بين شكلى جميل وعبد الرحيم ولونهما إلا أنه جمع بينهما ارتباط شديد واعجاب متبادل إلى حد التعصب.. جمعت بينهما شدة الولاء لمعانى الرجولة..

سعدت نبيلة كثيرا لتعجل أبوها الأمور، لم يستطع أحد من اسرة أمها مواجهة عبد الرحيم هريدى.. هناك ود مفقود بينهما، تفصلهما هوه سحيقه يحرسها من جهتهم الملاوعه والرياء ويحرسها من جهته هو الأستقامة والأخلاص..

.. أنتبهت نبيله من أفكارها على صوت طرقات خفيفه على الباب.. إنها مريم.. كعادتها.. تتجنب الضغط على زر جرس الباب الكهربائى.. فتحت نبيلة الباب. كيف تحملين كل هذا وحدك يا أبنتى؟.. أنك تتعبين يا مريم.. لماذا خرجت مبكرا هكذا.. هل ستطير الأشياء من السوق؟.. تجيب مريم.. الأشياء الطازجة لا تحصلين عليها وبأحسن الأسعار

إلا أذا كنت أول من يصل السوق.. ثم أنه ليس هناك وقت.. النهار يمر هاربا مذعورا يكره الانتظار..

آه يا مريم.. يا أبنه عبد الغفار وعزيزه وأعز على من ابنتى.. دخلت بيتكم هناك فى حارة رشيد بعد ولادتك على يدى هاتين بأقل من عام..

البيت فى الحارة بكفر البديوى.. أول حجرة على يسار الداخل من الباب العالى الضخم، الحجرة بها نافذة كبيرة لها حواجز من الحديد وضلفتين داخليتين من الزجاج باطارهما الخشبى، وخارجتين من الخشب الموسك المتداخل ليوفر فتحات تهويه مختفيه ببعضها، الحجرة متسعة تضم حاجات عرسنا أنا وجميل.. السرير والصوان الكبيران، صندوق ملىء بأطباق كبيرة وصغيرة وفناجيل من الصينى، هدايا وأكواب من الزجاج والكريستال، ألحفه ومراتب ملفوفه وموضوعه باتساق فوق الدولاب الكبيرة..

جميل أصر على صب أرض الحجرة بالأسمنت الناعم المدموج باللون الأحمر الفاتح.. أهدانا أبى كليم صوف أسيوطى أظنه مازال عندنا إلى اليوم، مصباح غاز من النيكل المطلى زجاجته بلجيكى أصلى أتى بها من الميناء..

أتذكر جيدا أن صهريج المياه.. نفس الصهريج الذى كنت أغسل تحته يداى يوم مولد مريم يقبع فى مواجهة باب حجرتنا.. أيام من أحلى الأيام، كنا نسهر كلنا متجمعون فوق حصير مفروشة بجوار صهريج المياه أمام حجرتى، مصباح غاز نمرة عشرة معلق فى مسمار مثبت على حافة شراعه حجرة زين أم جميل، كنا نجلس أنا وجميل وعزيزه فى حجرها مريم جوارها عبد الغفار، زين تنضم الينا بعد أن تجهز العشاء.. نتسامر ونتضاحك ونحكى الحكايات، اضطررنا إلى تثبيت مسمار آخر اعلا الحصيرة، فى مكان منخفض من جدار الحوض الترابى حتى ننقل إليه المصباح الغازى نمرة عشرة.. تغيير مهم حدث فى جلسه سمرنا تلك.. اقتنى عبد الغفار كتاب ضخم اصفر فى اربعة أجزاء.. يقرأ لنا منه كل ليلة مع الترتيب فصلا.. الكتاب يحكى قصة تغريبة بنى هلال وفارسهم أبو زيد، القصة ملكت علينا مشاعرنا، جملت لنا وقت سمرنا، أحاطتنا بالمتعه والتشوق والمعنى، كنا ننتظر كل ليلة فى لهفة عبد الغفار حتى نتابع أخبار الفارس المقاتل، زاد وقت سهرنا.. أجمل لحظات الصباح لما كنت أصحو على صياح الديك عندما تطلق زين الدجاج من

عششه إلى الحوش الواسع حيث كنا نسهر فى المساء..

...انتبهت نبيلة على صوت جميل.. أنى ذاهب.. سألته.. أين تذهب مبكرا؟.. جاء صوته مرتعش مبحوح.. هل نسيتى؟.. اليوم الأحتفال باستعراض العائدين.. سمعت صوت اغلاق الباب خلفه، سمعت أصوات تحركات مريم داخل المطبخ.. الدموع ساخنه تحت عينيها.. تعودت عليها، أصبحت جزءا من كيانها، كأنها زفير وشهيق أو تنهد.. الدموع أذبلت جفونها، نضب عليها بريق عينيها، خف بصرها، لا تملك إلا أن تبكى.. العجيب أنها يوم أن عرفت لم تبك.. لم تصدق.. هل من المعقول؟.. لن يعود؟.. لن تره أبدا مرة أخرى؟.. لن يدخل من هذا الباب كما كان يدخل عليهم؟.. لن تتحدث وجميل فى شئونه بعد الآن.. لن يكون له هم فى هذه الدنيا؟.. وآه يا ولدى.. واحر قلبى عليك أيها الحبيب.. كيف كان ذلك يا فلذة كبدى.. كيف يا سيف؟..

لم تبك لأيام طويلة.. نصحوها بالبكاء.. تجمدت الدموع.. تحولت إلى دق مستمر وانفجارات متواليه داخل رأسها.. تورمت العينان وانتفخ الوجه، وكثر الأغماء والغياب عن الوعى، تعدد الزطباء وكثرت الأدوية.. أدركتها نفحه من رحمه الله، انفجرت الدموع نزيف أحمر دموى يخرج من أنفها حتى أنهم اضطروا إلى تعويضها بالمركزات، أخيرا جاءت الدموع متواليه لاتنقطع.. لن تنقطع أبدا يا أبن عمرى، مهما واسونى، مهما قالوا، مهما تذكرت.. لن ترحمنى فى لوعتى فيك غير رحمة الله أيها الحبيب سيف..

اتت مريم من المطبخ، جلست جوارها فوق الأريكة، فى حجرها وعاء به ثمرات بطاطس وسكين رفيع، لم تنظر مريم ناحية نبيلة، ترى دموعها دون أن تلتفت اليها.. الدموع هى ملجأهم للهروب من الهوس، قلب مريم مليئا بالحزن، لا تعرف لها أما غير نبيله... صحيح أنها بين الحين والآخر كانت تزورهم عزيزه قبل أن ترحل عن دنيانا، وتعلم أنها أمها التى ولدتها، تتحدث معها وتحكى لها.. لكنها لاتستمع.. لا تعرف غير حديث أمها نبيلة التى هى زوجة عمها..

عرفت مبكرا كيف عذبت أمها عزيزه أبوها الطيب عبد الغفار.. أحب عزيزه إبنة عمه، أصبحت حلمه ومناه، يومه وغده، سعد قلبه بزواجها، احضرتها أمه معها عندما جاءت من أحمديه البحر إلى السويس، أيامها لم تهدأ زين حتى باعت الدوار هناك بأحمديه

البحرولحقت بأبنها الطيب عبد الغفار، كانت عزيزه معها، وعبد الغفار اشترى الأرض وبنى البيت فى حارة رشيد بكفر البديوى داخل حى الأربعين بالمدينة العتيقة.. طابت الحياة.. تزوج عبد الغفار أبنه عمه، مر العام والنصف بالتمام وأطلت مريم على الدنيا..

تحولت بعدها احوال عزيزه، ظهر تبرمها وتمردها.. تمردت على تلك الخزنه دون شباك أو باب إلا الباب الذى تمر منه على حجره زين أم عبد الغفار طلبت لنفسها حجرة مستقلة، زين لاتستطيع أن تبتعد عن عبد الغفار، تتعلق بأبنها تعلق شديد، لا ترى غضاضه فى أن يكون أبنها وزوجته التى ربتها بنفسها يزاولان حياتهما فى حجرة داخل حجرتها يطلقون عليها الخزنه لعدم تواجد نوافذ أو أبواب لها إلا الباب المؤدى إلى حجرة زين.. يتحدثون عن عزيزه وهى تصرخ فى وجه زين، تضعيننا فى الخزنه مثل ماتحتفظين بطيورك وحيواناتك فى عششها، لاتخرج إلا بإذنك ولا ندخل إلا تحت بصرك، سمعتك تنصحين عبد الغفار أن يترفق بصحته، هل تتضنتين علينا ليلا يا خاله..

بحزن وحكمة أفردت زين حجرة أخرى فى المنزل الواسع الممتد، عنيت زين أن تكون الحجرة بعيدا عن حجرتها.. هناك فى الخلف تطل نافذتها على المنور حيث عشش الدجاج والأوز والأرانب.. يصفون حزن زين فى ذلك الوقت وكأن ابنها انتقل إلى بلد آخر بعيد.. يقولون أن عزيزه ظلت أكثر من اسبوع تغنى فرحة سعيدة، تركت مريم الصغيرة فى أحضان غريمتها زين وتفرغت لحب عبد الغفار..

عبد الغفار قابل فرحة عزيزه واقبالها عليه بحزن ونفور، يحب أمه ولا يتخيل الحياة دون رضاءها عليه وعلى كل ما يفعل، عذبه ضميره لحزن أمه وعدم رضاءها.. صب جام حزنه وغضبه فوق رأس عزيزه..

زاد تمرد عزيزه حبيبته وأبنه عمه عليه.. زوجته وحياته بعد أمه.. ترد عليه فى عنف، أعلنت عدم رضاءها، لن تتراجع عن عنادها حتى يصفو لها وحدها، أوقفت مساعدتها له بتجهيز الحليب ليلا واضافة ما يضيفون إليه ووضعه على النار وتقليبه حتى يغلى، العناية بالحليب الذى هو مصدر رزقهم وكل ما يعيشون فيه، الحليب المجهز ليلا يحمله عبد الغفار عند الفجر فوق عربته اليد إلى معمل الدندورمه، يجهزه هناك.

عربة اليد التى يدفعها عبد الغفار أمامه طول النهار يبيع عليها الآيس كريم فى ربوع

البلده هى علم من اعلام المدينة..

أمتنعت عزيزه عن تجهيز الحليب، أتى عبد الغفار آخر النهار.. كان تعبا.. طوال اليوم يدور بعربته فى أركان المدينة حتى باع كل الدندورمه لديه، لم ينتبه إلى أن عزيزه لم تجهز اللبن، أوى إلى فراشة مبكرا حتى يستطيع الراحة لمجابهة يوم جديد يصلى فيه الفجر ثم يتجه إلى معمل الآيس كريم.. قبل أن يذهب إلى المسجد ليصلى الفجر بحث عن مقدار اللبن المجهز حتى يستعد به فى وعاء عربه اليد.. وجده بعد بحث مضنى.. كان يسأل عزيزه عنه وهى لا ترد.. عندما وجد الحليب شك فى أمره، شمه، تذوقه.. مازال نيئا لم يوضع على نار أو أضيفت إليه أيه اضافات.. سأل عزيزه.. لماذا لم تجهزى الحليب؟.. أجابت فى غباء واقتضاب.. أننى لا أعمل جاريه عندك وعند غيرك.. عبد الغفار هادئ لا يثور بسهوله، لكنه كان يختنق غيظا، ضاع رزق اليوم، والذى زاد الأمور تعقيدا تخسر كمية اللبن الغالية أساس حياتهم وقوتهم..

رفعت مريم الوعاء الذى تقشر فيه حبات البطاطس جانبا، نهضت مهروله ناحية المطبخ، سألتها نبيلة منزعجة؟.. مالك يا مريم؟.. ردت مريم.. لا شئ.. لا شئ.. أغلى الحليب لأفطارك..

قالت نبيلة لنفسها.. لست أدرى ماذا كنت سأفعل دون مريم؟..

إنها تقوم بكل شئ رغم علتها وضعفها، أرجو من الله وأدعوه أن يمن عليها بالصحة وتسترد عافيتها المفقودة..

كيف تسترد مريم عافيتها وقد ولت دوون رجعه!!، تعرف نبيلة داخل اعماقها أن ما تعيش فيه مريم من عله لاشفاء منه، ولا عودة أبدا إلى ما كانت عليه من صحة..

تركتها أمها وهى فى عامها الثانى، تركتها فى حجر زين معاندة مخلفة ورائها عبد الغفار وزين ومريم وكل من يعيش فى تلك الدار بحاره رشيد، انقلبت السعادة إلى جحيم مستعر داخل الدار، ركب الشيطان رأس عزيزة، حاولت زين معها، لم تبتسم عزيزة أبدا فى وجه من حولها إلا حين عرضت زين عليها أن تترك لها المنزل وتعود إلى أحمدية البحر، أدرك الجميع أن لا حياة بين زين وعزيزة، قالت زين لا أعرف!! ربيتها طول السنين، زوجتها أعز من نفسى على، هى ابنتى قبل أن تكون زوجة ابنى.. لقد حسدونا.. لم يحسدنا

إلا أقارب أمها الموجودون هنا فى جبلايه أبو عارف بالجناين، أعلم أن تلك المرأة الحقود خالتها تهمس لها دائما، رحمها الله مريم أم عزيزه كانت حبيبه ولن ترض عن هذا أبدا.. لا أنسى طيبة وحكمة مريم أم عزيزة ووصيتها لى بعزيزة.. كيف تكون تلك الشيطانة الماكره بجبلايه أبو عارف اختها؟..

تركت عزيزه الجميع بما فيهم طفلتها ذات العامين وولت إلى جبلايه أبو عارف تلوذ بخالتها المشجعة على تمردها..

طلقها عبد الغفار حزينا قانطا، وضع قلبه تحت قدميه، دفن احزانه فى عمله وزادت أعبائه..

مرت الشهور، ازدهرت الطفلة الجميلة مريم، تحدث الجميع عن جمال الطفلة وحلاوتها، العيون المتسعة ذات الأهداب الطويلة، الشعر الفاحم الناعم، تفاصيل الوجه الدقيقة لطفلة حلوه بريئه والجسد السابق عمره..

أصبحت مريم فى الثالثة من عمرها، نبيلة كانت لم تنجب بعد، مشغولة فى عملها، قلق عبد الرحيم هريدى، زين تدارى قلقها، تقول كل شئ بميعاد، ان شاء الله تملأ علينا نبيلة البيت بالصبيان والبنات، جميل لا يعلق بأى حديث، نبيلة تتمنى أن تكون لها ابنة فى جمال مريم.. رفرف الخوف مرة أخرى بجناحيه على المنزل فى حارة رشيد..

مرضت مريم مرضا شديدا.. ترتفع حرارتها وتنخفض، ارتفعت الحرارة ولم تنخفض، توجست نبيلة شرا، حملتها باكيه بين احضانها وهرولت بها إلى مستشفى الحميات.. حجزوا الطفلة الصغيرة ولم يسمحوا لها بالخروج، لم تتركها نبيلة لحظة واحدة، راحت الطفلة فى غيبوبة طويلة، ظلت نبيلة باكيه حزينه جوار الطفلة، تقوم بتمريضها واتباع اوامر الأطباء فى علاجها، مرت أيام طويلة وثقيلة تعدت الشهر، يئس الجميع من شفاء الطفلة، حتى أمها لم تعد تطل عليها، بات جميل يتبرم من بعاد نبيلة..

نبيلة يملوءها الأمل متعلقة بالطفلة الصغيرة.. استجاب الله دعواتها.. عادت مريم إلى وعيها، انخفضت الحرارة تدريجيا، تناولت السوائل، الطعام الخفيف، زاولت طبيعتها، تعجب الأطباء، قالوا إنها لاتحدث حتى ولا واحد فى المائة، سمحوا للطفلة بالخروج من المستشفى مع مراعاة العلاج ونظام خاص لمدة طويلة..

عادت الطفلة مع نبيلة، لم تكن مريم النضرة الجميلة، أصبحت طفلة هزيله عجفاء تساقط شعرها، يعلو الأصفرار وجهها، ترتخي عيناها بعد أن ماتت واضمحلت أعصاب جفونها الخاليه من الرموش..

مع الايام وعناية نبيلة بها نما شعرها الجميل مرة أخرى، عادت الدماء إلى وجهها، نبتت لها رموش متباعدة، لاحظوا بطء نمو جسدها حتى توقف فى سن الثالثة عشر مع بدء طمثها.. هاهى تخطت الثلاثين من عمرها فتاة بها مسحه من جمال غامض، قصيرة نحيلة وهزيله صفراء لكنها شعلة من نشاط.. رجعت مريم من المطبخ واتخذت مكانها جوار نبيلة فوق الأريكة تكمل تقشير البطاطس.. لما وضعت نبيلة حملها طفل جميل صحيح اختار له أبوه جميل اسم جده سيف.. كانت مريم فى السادسة من عمرها، عمه عبد الغفار يقول.. أتى ابنك سيف معه بالحرب، اقترحت زين وهى تبتسم نسميه هتلر، لأن هتلر قادم ليقتل الأنجليز.. انتفض عبد الرحيم هريدى جادا.. لن يقتل الأنجليز غير سيف حفيدى.. عبد الرحيم هريدى يقول والله لو خيرونى بين ديك الطابيه وحفيدى لدست بقدمى فوق ديك الطابيه وما ورائه من كنوز.. حفيدى هو الدنيا كلها.. يمازحه عبد الغفار.. لكن يا والدى ديك الطابيه تملك به كنوز الأرض يرثها حفيدك بعد عمر طويل، تقول نبيلة فى حنان.. يكفى أن يرث من جده الشهامه والنبل، ينظر عبد الرحيم إلى سيف الصغير فى حجر أمه، اشتهى أن يسميه هريدى.. رأس القوم وشيخهم.. يبتسم جميل وهو يتحدث.. أخشى أن يكون مثل عمه عبد الغفار، يعيش ليحلم بديك الطابيه وكنوزها أو يرى فى المنام أبو زيد الهلالى والملك سوس متنازعين.. تنظر زين ناحية ابنها عبد الغفار بحنان وحب.. هل هناك مثل عبد الغفار.. ولاتقولها خوفا من الحسد والقيل والقال.. فى أيام الصفاء التى لن تعود تحكى نبيلة حكاية عبد الغفار وفاطمة.. مرت الشهور بعد مغادرة عزيزه بيت حارة رشيد، عرفوا أنها تزوجت أبن خالتها وهو من أصحاب الغيطان المتسعة فى جبلايه أو عارف.. حزن عبد الغفار كثيرا، هم على عمله الذى رد عليه العوض كثيرا من المال..

مع بدأ طوربيدات الألمان فوق معسكرات الأنجليز حول المدينة، أصيبت كثير من كفور البلدة وحواريها، سقط عديد من الناس الضحايا الأبرياء، انتشر الخوف والترقب وتبلبلت الأفكار، فى يوم بعد ليلة مسهده بالمدينة أكل فيها طوربيد نصف كفر النسوان.. أتى عبد

الغفار بكهل صديق له يصحب ابنته الجميلة الخجول ولا يحملان أى متاع معهما، يحمدان الله على أنهما استطاعا النجاة بحياتهما من وحشية الطوربيد الألمانى، رحبت زين بهما، الواضح أنهما من أقصى الصعيد فضحتهما فى ذلك لهجتهما، وملابس الكهل عبد الدايم أبو فاطمة، تلك الدقة الخضراء الزاهيه الصغيرة أسفل شفتى فاطمة الورديتين..

فاطمة خجولة دائما عيناها مسبلتان عرفوا أنها مطلقة منذ أكثر من عامين، لم يسألوا عن السبب، لم تتح لهم الظروف أن يعرفوا إلا بعد حين.

أفردت لهما زين حجرة صغيرة أماميه لها باب آخر ناحية مدخل سلم الدور العلوى، كان باب السلم مغلق بالحجارة حتى لا يتسرب أى متسلل إلى سطح الدار، كأنه فناء صغير ربت فيه زين بعض الأوز..

نقلت زين الأوز إلى المنور الخلفى وكست الحجرة بما أتيح لها من فراش وأحسنت ضيافة الرجل وأبنته..

لم يلحظ أحد تغير يذكر فى سلوك عبد الغفار، يخرج عند الفجر ولا يعود إلا مساء، عبد الدايم أبو فاطمة هو الآخر نجت عربته اليد الصغيرة من الغاره، اجرى بها بعض الترميمات البسيطة، ملأها بكوم الترمس وقوالب الحلبة الخضراء، اتخذ موقعه بالعربه على ناصية حارة رشيد تحت بيت الكرانسى ناحية شارع صدقى المسفلت المتسع الملئ بالماره، أصر الرجل أن يدفع ايجار الحجرة التى أقام بها هو وأبنته..

فاطمة الجميلة البيضاء كستنائيه الشعر أصبح لا عمل لها بعد مراعاة جوال الترمس المنقوع فى الماء ومتابعة كيزان الحلبه الخضراء فى أوانيها إلا تحضير وجبة الحليب لعمل الدندورمه وتجهيزها لعبد الغفار..

قابلوا هذا منها أولا بالدهشة والممانعه ثم الأمتنان، مرت الأيام وأصبح واجب من واجباتها تسأل عنه، اندمجت فاطمة وأبوها مع أصحاب البيت فى حارة رشيد حتى أنهم شاركوهم سهراتهم وهم يستمعون إلى صوت عبد الغفار يقرأ عليهم قصة تغريبة بنى هلال وفارسهم أبو زيد من الكتاب الأصفر ذى الأربعة اجزاء.. سألت زين أبنها عبد الغفار رأيه فى فاطمة الحلوه الطيبة..

فاضت مكنونات عبد الغفار لأمه بهذا الفرح المطل من عينيه..

لم يمانع عبد الدايم أبو فاطمة، هقد عبد عبد الغفار على فاطمة فى هدوء، أنتقل مرة أخرى من جوار أمه فى الخزنه الملحقة بغرفتها إلى الحجرة المتسعة الخلفيه المطلة على المنور.. فوق نفس سرير عرسه الأول، وامتلأ صوان عزيزه الكبير بملابس العروس الجميلة الجديدة فاطمة.. أحبت زين فاطمة، أحبها الجميع، وضحت روحها المرحه وحبها للضحك والمؤانسه، كانت دائمة اللعب مع مريم كأنها فى السادسة مثلها، تبادلتا حمل سيف الصغير طول النهار، غذاء الأرانب والطيور وتزغيطها من صميم عمل فاطمة مما قربها أكثر وأكثر إلى قلب زين.. يقول عبد الغفار لفاطمة فى ساعة هناء.. أنت ديك الطابيه.. أنت كنز حياتى، ترد عليه فاطمة بلهجتها الصعيدية.. أنا فرخة يا رجل.. فرخة.. ألا تشعر بهذا؟.. وتضيف خجله من بين رنين ضحكاتها.. أنت الديك.. لايعرفك أحد مثلى.. فى ليلة قالت نبيلة.. وجهك سعد يا فاطمة.. الأخبار تتحدث عن ضراوة القتال وآلاف القتلى فى العالم، من يوم زواجك عبد الغفار هدأت الأحوال فى مدينتنا.. بعدها بأيام قليلة جلسوا ليلا فى دائرة على الحصيرة فوق تراب فناء المنزل بحارة رشيد، تعلوهم لمبة الغاز ذات الزجاج البلجيكى اللامع.. نبيلة وزوجها جميل، عبد الرحيم هريدى فى زيارتهم يضم سيف الصغير فى حجرة يداعبه جواره عبد الدايم أبو فاطمة، زين ترتاح تضع فوق وسطها شال من الصوف، فاطمة ومريم تعدان طعام العشاء فوق خشب الكانون المتوهج بجانب باب المنور فى آخر الفناء الواسع، تتذكر نبيلة عندما قرأ عبد الغفار.. ألقى بالدرع ورفع الرمح.. انتابتها رجفه، أتاهم صريخ صفاره الخطر يتردد مرعبا فى أجواء المدينة العتيقة، هبت زين واقفه، هتفت.. يا ساتر يارب.. وقف عبد الغفار.. تكلم موضحا سبب ارتفاع صوت صفارة الخطر، كأنها تطلق من داخل الفناء.. أنهم ركبوا جهاز صفارة انذار جديد منذ أيام قريبة أعلا بيت الكرانى..، همس جميل أشعر أن هناك شيئا غير عادى.

عبد الدايم يبسمل ويتعود ولايشترك فى الحديث، تكلم عبد الرحيم هريدى.. لا تخافوا.. لا تخافوا.. إن الله ولى المؤمنين.. هب جميل واقفا.. نادى.. اطفأى النيران يا فاطمة تعالى أنت يا مريم.. هيا بنا جميعا إلى المخبأ.. زاد صريخ صفارة الأنذار وعويلها مدويا، خرجوا كلهم إلى هواء الحارة البارد.. الظلام حالك.. قال عبد الغفار امسكوا أيدي بعضكم البعض حتى لايتوه أحد.. تقدمهم يمسك يد أمه زين وهى تحتضن ساعد فاطمة التى

تحمل بين ذراعيها سيف الصغير، جميل يضم كف نبيلة داخل كفه اليمين، نبيلة تحوط مريم بذراعها اليمين تضمها إلى جانبها، عبد الدايم يسند عبد الرحيم هريدى يهرولان خلف الأشباح المتقدمة فى ظلام الحارة الحالك ناحية السماء اللامعه الواضحة فى مدخل الحارة البعيد، يسعى بهم عبد الغفار ناحية شارع صدقى حيث المخبأ الحكومى المقوى بالحديد المسلح وأكوام الرمال..

داخل المخبأ أحلك ظلاما من خارجه، اصطدموا بكثير من الأجساد المحتجه ولم تتخل أيديهم عن بعضها، سمعوا همهمات، بسمله واستعاذه، تعودتا عينا عبد الغفار الظلام، داخل مساحة من الأرض أنها غير مشغولة، همس لهم.. اجلسوا.. قعدوا فوق الأرض متلاصقون، شعروا بالبلل يغمر مقاعدهم، الأرض تغطيها مياه، لم يهمهم البلل، غزا الخوف منهم كل جارحه، يحسون برجفه أجسادهم المتلاصقة، صفارة الأنذار سكتت، همسات الناس تعلوا داخل المخبأ، عاليا أسم الله، ترددت كلمة الستر، مقاطع من أيات قرآنية، صوت بكاء الأطفال الحاد العالى، صرخ سيف، فاطمة تربت على ظهره.. هووه.. هووه.. لاتخف يا حبيبى، سمعا أزيز بعيد توقف الهمس واللغط، أرتفع بكاء الأطفال، علا صوت الأزيز، لحوا من فتحة المخبأ الوحيدة والتى هى مدخلة وميض برق، أهتزت الأرض.. ظنوا أن الخندق أنهار عليهم، أنكمشوا وتعلقوا ببعضهم البعض، الأتربه والغبار تتساقط فوق رؤوسهم، تملأ أنوفهم وعيونهم، سمعوا فى نفس اللحظة فرقعة انفجار مروع طنت له آذانهم، بعدها أحتواهم صمت مخيف.. أتى صوت قوى لرجل.. الله أكبر.. أستر يا ستار.. صوت رفيع لأمرأة باكيه.. لطفك.. لطفك يا لطيف.. توالى صريخ الأطفال وعويلهم.. بكت مريم مرتجفة، صرخ الطفل سيف بين ذراعى فاطمة.. ماما.. ماما.. مر وقت كأنه الدهر، أتى صوت صفارة الأمان المتصل يغطى كل الأصوات المرعوبة.. أضئ النور الباهت داخل المخبأ، ظهر انكماش المرعوبون كتلا بشرية متلاصقة فوق أرض مغموره بمياه جوفية متعفنه، أصفرار أولاءك المتعلقون بالجدران القبيحة المشققة يتعوذون ويبسملون، مرت لحظات قبل أن يتمالك القوم روعهم..

شعر الجالسون على الأرض بالبلل، نهضوا مسرعون فوق أقدامهم، جميعهم يعرفون بعضهم البعض، كلهم الناس القاطنون أول شارع صدقى والحوارى المحيطة به، أتجهوا

ناحية بعضهم البعض يطمئنون أنفسهم ويحمدون الله على السلامة، أصوات عديدة تقسم على الهجره والهروب إلى الأرياف بعيدا عن معسكرات الأنجليز..

انتابت فاطمة نوبة ضحك عالية وهى تدارى عينيها بكفها، سمعوا هرج، أصوات ضحك جمع من الناس داخل المخبأ، ارتبك عبد الغفار لضحك زوجته المفاجئ، نبيلة تخفى وجهها بكفها اليمين وبيدها اليسار تدارى عينى مريم، التفت جميل رأى الحاجة أم حنفى تلف وسط زوجها العجوز الحاج صادق بملاءتها وهى تتمتم محمره الوجه، قالت زين لا حول ولا قوة إلا بالله.. الواضح أن الحاج صادق كان نائما مع الحاجة عند اطلاق صفارة الخطر.. الرجل يا ولداه أتى مرعوب ونسى أن يرتدى سرواله.. علت قهقهه عبد الدايم أبو فاطمة، أبتسم عبد الرحيم أبو نبيلة

فى الصباح علموا أن الطوربيد الألمانى اكتسح كازينو عدن الممتد داخل مياه البحر على مشارف بورتوفيق، قال عبد الدايم.. اللهم عليهم لا علينا.. هذا جزاء الكفار.. يسلط عليهم من يأخذهم بكفرهم، اللهم اهزم أعداءك اعداء الدين..

كثرت تحركات القوات الأنجليزية داخل المدينة وخارجها..

أتى جميل عند الليل ثائرا، أقسم أن تلك الحارة لن تنجو من طوربيد ينسفها، استعاذت زين بالله، سألته لماذا يابنى تقول هذا؟.. أشار ناحية آخر الحارة.. هل تعرفين تلك البيوت من دور واحد آخر الحارة اسفل الطابيه..؟.. قالت زين أعرفها.. تحدث جميل بغضب.. خصصوها سرا للساقطات، رخصوا لهم استقبال زبائنهم من الأنجليز والأوغاد.. سأل عبد الرحيم هريدى مستنكرا.. تعنى الدعاره؟.. رد جميل وهو يرتعش.. دعاره مرخصه وبأشراف صحى.. هتف عبد الدايم.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. قال عبد الغفار.. يا لطيف.. لا إله إلا الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. يمهل ولا يهمل..

زاد معدل الغارات الألمانية حول المدينة، أصيب داخلها بأضرار جمه، الليالى كلها مزارا للرعب والخوف والدمار، تأتى المصائب مصاحبة لرسول الموت مع الطائرات الألمانية..

فى ليلة ارتفعت حرارة سيف، أحتوى نبيلة هاجس مرض مريم اللعين، زاد رعبها باستمرار ارتفاع حرارة الطفل ونوبات الأسهال المتتالية، هرولوا بالطفل إلى الطبيب، لامهم

على أهمالهم، كتب الدواء وقال لهم الله هو الشافى.. أهتز وجدان عبد الرحيم هريدى، جلس إلى جوار فراش حفيده.. ضيعتى الولد يا نبيلة.. ضيعتى هريدى.. اللهم لا تضيعه.. اللهم اشفيه.. اللهم أنا لا هو.. تبكى نبيلة.. ليس هكذا يا أبى.. أنت مؤمن.. لاتفعل بنفسك هذا.. سيشفى سيف أن شاء الله يا أبى.. لأول مرة ترى دموع أبيها العجوز الطيب على صفحة وجهه الداكن السواد.. إرادة الله أن تخف الحرارة وتزول عن الطفل الصغير سيف.. يتوقف الأسهال، يسترد عافيته بين يوم وليلة.. ويرقد عبد الرحيم فى فراش أبنته مرتفع الحرارة كثير وجع البطن والأسهال، يتحامل عبد الرحيم على نفسه مدعيا الشفاء، يخرج نهارا ثم يعود ليلا وحالته أكثر سوءا.. تنزعج نبيلة أشد الانزعاج على أبيها الحبيب، يركب الهم الجميع، كلهم يحبونه.. هو بالنسبه لهم الطيبة، الأيمان، الأخلاص والوفاء، الخير داخل دنياهم تلك الصاخبة..

كانت أبواق الأنذار تدوى فى سماء المدينة وهم يلتفون حوله ولا يتركونه.. يمد عبد الرحيم كفه المرتعش ويخرج من تحت الوسادة لفافه طويلة يناولها إلى ابنته نبيلة، تفتح نبيله اللفافة، ترى أمامها سيف طويل له جراب قديم مزركش بنقوش باهته ولكنها جميلة، وخنجر معقوف فى جراب بالى محوط بزخارف ذهبية لامعه، تنظر نبيلة إلى أبيها مندهشة.. متسائلة.. تتطلع إلى زوجها جميل بجانبها، ترى الدموع داخل عينيه.. تتجه بعينيها إلى عبد الغفار جالسا يتمتم بآيات من القرآن، زين متشحة بملابس سوداء تطرق برأسها حزينه..

بصوت واهن تكلم عبد الرحيم.. هذا للحبيب سيف.. كل ما أعتزبه.. أخبرنى أبى هريدى أن هذا السيف وهذا الخنجر لجدنا الشريف الذى حملهما وجاهد بهما فى سبيل إعلاء كلمة الحق التى أوصى بها الله سبحانه وتعالى،.. نحن من أشراف الخلق الموعودين من والمعاهدين يا أبنتى.. تلك حقيقة.. اما هذان فهما لحفيدى هريدى.. أذكرى له أننا من النسب الشريف وسيفهم هو.. نظرت إليه نبيلة بعينيها الدامعتين.. أبتسم عبد الرحيم، تنهد.. أعنى سيف يا أبنتى.. سيف حفيدى.. بكت زين، بكى الجميع... فى الصباح كانوا يوارون عبد الرحيم هريدى الطيب التراب..

.. لم تأمن المدينة بعد تلك الليلة.. أبتليت المدينة العتيقة.. إن لم يكن بغارات الألمان

ليلا.. فسدت بعربده جنود الأحتلال الأنجليز ليلا ونهارا.. حزمت الأسرة متاعها.. جميل صر عدة الحلاقة فى صره كبيرة، عبد الغفار لم يرض أن يبيع عربه اليد الجميلة بثمن بخس، أدخلها إلى حوش المنزل خلف الباب الضخم العتيق، أعطى كل ما جمعه من مال إلى أمه التى صرتها حول وسطها.. نبيلة أخفت سيف أبيها وخنجره المزركش داخل مرتبه سريرها، لم تأخذ معها غير شنطة معدات الولاده الطبية..

فى صباح يوم غير مشمس ودعوا عبد الدايم الذى رفض مغادرة المدينة، تركوا البلدة العتيقة خلفهم ببحرها وبواخرها.. بمآذنها وكفورها.. تركوها وعيونهم دامعه، أملين فى اللقاء، أستقلوا قطار السكة الحديد وجهتهم أحمديه البحر مركز شربين..

... دق جرس الباب دقات متواليه.. مريم وهى فى طريقها إلى المطبخ تحمل وعاء البطاطس التى انتهت من تقشيرها تفتح الباب، تعلن بصوت عالى.. الشيخ سعد، ويدخل الشيخ الضرير.. السلام عليكم.. وترد نبيلة فى صوت حزين دون أن تتحرك من مكانها.. عليكم السلام يا شيخ سعد.. اتفضل، الرجل يعرف طريقه، يتحسس الأرض والأشياء بطرف عصاه، يجلس الشيخ قبالتها فوق كرسى أسيوطى كبير ومتسع فوقه مقعده ومسند ظهر من القطن المكسو بغطاء من القماش الكحلى تزينه رسومات أزهار كبيرة بيضاء لها فروع مختلفة الألوان، يخلع الشيخ سعد حذائه، يتربع فوق المقعد، يرفع كفيه إلى جانبى وجهه.. بسم الله الرحمن الرحيم..

واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال أنما يتقبل الله من المتقين..

ارتجف قلب نبيلة، انهمرت دموعها، همست.. لا إله إلا الله محمدا رسول الله.. أتى صوت الشيخ رخيم عذب..

لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين..

جاءت مريم من المطبخ تحمل صينيه بين يديها، وضعت الصينية فوقها كوب القرفة أمام الشيخ المقرئ الذى يواصل قراءته لقرآن الله العظيم..

.. تحركت نبيلة واقفة، اتجهت ناحية حجرة جانبيه، صوت القارئ بآيات الذكر الحكيم تتابعها..

إنى أريد أن تبوأ بإثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين..

فتحت نبيلة باب الحجرة وهى ترتعش، أكثر من ستة أشهر وفى نفس الميعاد تدخل تلك الحجرة تحوطها نفس الرعشة، حجرة الحبيب الغالى الذى تركها مبكرا.. حجرة أبن عمرها الذى لن تنساه حتى تلقاه، حجرة سيف بكريها وأكبر أبنائها وأعزهم على قلبها.. نفس السرير المرتب الذى تشاهده كل يوم، بيجامته معلقة فوق المشجب جوار الصوان الصغير، الستائر مسدله..

.. ضغطت زر النور.. المكتبة هناك جوار النافذة مملوءه بكتب كثيرة ومتنوعه.. تعرف أن أول كتاب أهدته له مازال موجودا داخل المكتبة.. المكتب ذو الأدراج الثلاثة الجانبية وهذا الدرج الرابع الكبير بعرض المكتب.. الكرسى الخيرزان عليه مقعدة صغيرة من القطن، لمحت كما تلمح كل يوم مداس قدمه أسفل الكرسى، أعلا المكتب نظيف.. لا ورقة ولا قلم.. تقدمت نبيلة وجلست متمهله فوق الكرسى الخيرزان أمام المكتب..

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين..

جرت الدموع غزيره تغسل وجه نبيلة، أخرجت مفتاح من صدرها معلق بنهاية سلسلة فضية حول عنقها، وضعت المفتاح فى ثقب الدرج الكبير بالمكتب، جذبت الدرج تخرجه من مكانه، رأت الخنجر المعقوف ذا الجراب المزركش بالذهب فى ركن الدرج، القت بعينيها على السيف المعلق فى جرابه فوق الجدار أمامها أعلا المكتب جوار إطار خشبى داخله صورة سيف ببدلته الأميرية والسيف يتدلى من وسطه فوق جانبه اليسار.. عادت بعينيها إلى الدرج.. كما تركته بالأمس.. فوق الأوراق المرتبه فى الجانب اليمين من الدرج كانت رواية خان الخليلى لنجيب محفوظ.. فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه.. مدت يدها نقلت الرواية إلى الجانب اليسار من الدرج جوار الخنجر المزركش.. حملت كفها اليمين المذكره الخضراء المنتفخة والتى كانت تداريها رواية خان الخليلى، وضعت المذكرة أمامها فوق المكتب، الدموع تحجب رؤيتها، شهقت نبيلة وهى تفتح المذكرة.. تحفظ كل سطر فيها.. من الجلدة إلى الجلدة.. عشرات الصفات تقرؤها كل يوم.. تشعر أنها تجالسه، يفتح لها قلبه، كما كان يفعل معها دائما، لاتمل القراءة.. قراءة ما كتبه حبيب قلبها ونور عينيها الذى ذهب ولم يعد، بهجه فؤادها الذى انطفأ.. آه يا سيف.. آه يا ولدى

الحبيب..

« قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين..»

تمتمت نبيلة فى خشوع.. صدق الله العظيم.. اللهم ارحمه وارحمنى برحمتك الواسعة.. اللهم افرغ عليا صبرا جميلا حتى ألقاه فى رحابك.. فى جنة صدق عند مليك مقتدر.. اللهم لاتعذبنى بفراقه والحقنى به فى جنات الصالحين..

.. قرأت نبيلة أسمه مخطوطا على الورقة الأولى بخط جميل.. سيف جميل سيف..

قلبت الصفحة، من خلال دموعها بدأت تقرأ مرة أخرى ربما للمرة الألف....

-٦-

٢٧ يوليو ١٩٥٦

اشتريت اليوم تلك الأجندة التى أدون فيها ما أكتب.. أعشق الكتابة وأحبها وأجد الراحة من متاعبى فى الهروب إليها، رغبت الكتابة من مدة طويلة، نصحنى الأستاذ بسيونى مدرس اللغة العربية أن أحاول كتابة مذكراتى فتكون أول علاقة لى بالواقع والحكى.. الأستاذ بسيونى معجب بأسلوبى وأفكارى.. أحتفظ بكراسة الأنشاء الخاصة بى، وددت أخذها منه فدرجاتها كلها عالية وملاحظات الأستاذ بالأستحسان تملأها..

تضافرت عدة عوامل اليوم لأشترى المذكرة وأبدأ كتابتى.. صديقى السيد مبروك قبل نهاية العام الدراسى الماضى لم يرد إلى اوراق قصتى التى أسميتها البطل، أحتفظ بها فى عناد، قال لى أنه لن يردها إلى إلا فى يوم معين يرجو أن يكون فيه اسمى عرف بين الكتاب، أظنه لن يردها أبدا..

تلك العواطف الجياشة والأفكار الفائره التى تفور بوجدانى وتضيع بعدها فى أحداث أخرى أو تتوه داخل عواطف وأفكار جديدة، لماذا لا أدونها وأعود إليها من حين لآخر.. استرجعها، أذكر نفسى وأستفيد من عبرها، أو ربما استقيت منها يوما مادة كتاباتى.. فأنا مصمم إن شاء الله وبمعونته على دخول قسم الصحافة بكلية الآداب كما نصحنى الأستاذ على ماهر مدرس اللغة الانجليزية والمشرف على مجلة الحائط التى أحررها وحدى أسبوعيا..

الآن اقضى أجازتى الصيفية، نجحت هذا العام منقولا إلى الصف الثانى بالمدرسة الثانوية الجديدة، أود دخول القسم الأدبى حتى أعد نفسى لدخول قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة، أمى تصر على دخولى القسم العلمى

لأنها تحب وتتمنى أن ترانى ضابط، لا أدرى ما الذى دفع إلى رأسها بتلك الفكرة؟.. كيف لأبن الحلاق دخول الكلية الحربية؟..، أبحث بذاكرتى حولى فى جميع الأتجاهات

فأتوصل إلى أعلى رتبه نالها فرد من الأسرة هى رتبة العسكرى حملها الخال ناصح شقيق جدتى زين والذى ترقى إلى رتبة الجاويش بعد أن دفع الثمن عينه اليمين وقدمه اليسار خلال حرب فلسطين فى العام الثامن والأربعين..

أنا مازلت لا أعرف ماذا أكتب ومن أين أبدأ؟.. على أيه حال سوف أكتب ما يجيش به صدرى وكيفما اتفق حماس الكتابة، أننى أرى أن أبدأ بتذكير نفسى بأهم الأحداث التى مرت بى منذ أن وعيت الحياة وقبل أن تطمس من ذاكرتى.. أرجو أن أرتب نفسى لهذا غدا، لا وقت لدى الآن.. بعد قليل سوف يحضر فوزى معه السيد مبروك ومحمود لنذهب إلى مقر منظمة الشباب..

آه.. قبل أن يفوتنى الأمر وانسى، أهم دافع اليوم لشراء المذكرة والتصميم على الكتابة هو تدوين هذا الحدث الهام فى تاريخ حياتنا، حدث هز أركان الدنيا وغير أمورها، عدل مسار التاريخ المعوج، أعاد الحق إلى أصحابه بعد طول ضياع.. حدث قامت له الدنيا ولن تقعد بعدها أبدا، حدث يهز الوجدان ويسعد الفؤاد.. عادت قناتنا لنا، أعلنها مدويه زعيمنا العظيم عبد الناصر.. فعلها وأمم قناة السويس.. زأر الزعيم مساء أمس فى ميدان المنشية بالأسكندرية.. قناة السويس مصرية.. مصرية.. مصرية..

٢٩ يوليو ١٩٥٦

لم يسعفن الوقت، لم تساعدنى الظروف على الكتابة أمس، ظللت طوال النهار فى البحر، نعوم ونغطس ونصيد الجاندوفلى والسريديا، عدنا آخر النهار بجوالين مليئين بالمحار، بعنا جوال منهما إلى عم وارث بجنيه كامل اشترينا به صندوقين مياه غازية وبعض الفاكهة، حمل فوزى الجوال المتبقى إلى فرن عتريس بحلقة السمك، عاد به مشويا، ذهبنا حاملون صندوقين المياه الغازية والفاكهة، وجوال المحار المشوى سيرا على الاقدام إلى بورتوفيق، كنت أنا والسيد مبروك وفوزى ومحمود، استضافنا عبد الرحيم فى جانب من كابينتهم الخشبية على شاطئ بورتوفيق.. عدت إلى البيت فى شارع صدقى مرهقا الساعة الثانية عشر مساء، قابلتنى جدتى زين باللوم والتقريع، اقسمت أمى إنها ستخبر والدى عند عودته..

دخلت غرفتى، حاولت الجلوس إلى مكتبى، لم أقدر، خلعت ملابسى، ارتديت جلبابى، فتحت النافذة، أرتميت فوق فراشى أحاول النوم بعد أن اطفأت النور، منعتنى الأفكار.. ضوضاء مقهى شاهين ولغط الساهرين بالشارع، هدير معصرة القصب، كل ذلك لم يقلقنى فقد تربيت على ذلك.. شارع صدقى ليس له ليل، الليل فيه يواصل النهار، لا يفرغ من البشر أبدا، لم أشهد مقهى شاهين مغلق طول حياتى.. مكتبة سعد لا تغلق أبوابها قبل الثانية صباحا، مطعم المعلم فرج بمنزل الشافعى على ناصية حارة رشيد لا يغلق أبوابه أبدا، رائحة الفلافل والطماطم المخلله مستديمة الأقتحام لأنوفنا، من حين لآخر وأكثر من ستة أو سبعة مرات فى اليوم تسمع طشيش أقراص الطعمية داخل الزيت المغلى، تقتحمك رائحتها بثومها وفولها، محل بيع الخبز جوار المطعم يجلس على بابه الحاج شلبى بشواربه الكبيرة المفتولة، وراء المنضدة الخشبية العريضة داخل باب الدكان تجلس زوجته العجوز بصدرها المتهدل وطرحتها الكالحة وعينيها المقروحتين الدامعتين واللتين تذكرانك حدقتيهما بحدقات التماثيل الحجرية.. الحاج شلبى وزوجته لم أرهما على غير هذا الوضع أبدا وفى أى وقت من النهار أو الليل..

تحت عمارة الكرانى يوجد الدكان الأثير لدينا جميعا.. الجيزاوى الحلوانى وبسبوسته التى أراهن عليها العالم كله، ملاصقا له بقالة تهامى الكرانى بما تحوى من لذيذ الجبن الأبيض والرومى والأحمر والبسطرمة المستوردة المعتبره والزيتون اليونانى والأسبانى وهلم جرا.. فى الجانب الآخر من مسكننا أستطيع أن أرى من نافذتى بقالة المغربى تحت منزل عباس حلمى، يجلس داخلها المغربى وزوجته، لا أعرف إلى الآن ماذا يبيع غير السودانى المحمص؟.. فى نفس المبنى دكان سيد العجلاتى تفصل حارة أبو حندق بين سيد العجلاتى وبقالة زكى الليثى كل تلك المحلات لم أرها فى حياتى مغلقة إلا ساعة صلاة الجمعة فى زاوية السيد خليل بعمارة محمد خليل المقابلة لنا والتى يوجد فيها أيضا معمل محمد خليل للمياه الغازية..

الشارع على امتداده عند صلاة الجمعة مغلق، تقام الصلاة فى جامع الأربعين وزاوية السيد خليل وجامع جليدان على خط واحد، يمتلأ الجامعان والزاوية، تفيض الناس داخلهم حتى يفترشوا الشارع خارجهم، تتوقف الحياة بأكملها إلا من ذكر الله.. بعد الصلاة

تنتشر الناس، ترى شارع صدقى هذا سوق مكتظ بعربات اليد والبشر، السيارات، ويصعب عليك اختراقه أو السير فيه بسهوله، هذا هو شارعنا الذى تفتحت عليه عيناى.. بدأ انتبهاى إلى شارعنا وأهل شارعنا منذ تاريخ قديم، أظن ذلك كان العام خمسون.. نعم هو بالتأكيد عام خمسين لأن الأحداث تؤكد هذا، كنا انتقلنا أنا وأمى وأبى وجدتى زين ومريم أبنة عمى وأخواى عباس وهريدى من منزل العائلة فى حارة رشيد إلى شقتنا الجديدة.. بالمنزل الذى أقاماه أبى وأمى فى شارع صدقى فوق ناصية حيوية والذى أكتب مذاكرتى تلك على مكتبى فى أحدى حجراته..

بعد انتقالنا إلى شارع صدقى بشهر واحد فقط ألغت حكومة الوفد معاهدة ست وثلاثين، كنت صغير، لكننى كنت أعلم جيدا أن الانجليز المستعمرين هم أول اعدائى، وأن هناك أيضا اعدى اعدائى.. إنهم الصهاينه..

علمت بالصهاينة قبل احداث عام خمسين بعامين، كنت فى العاشرة من العمر طالب مجتهد بمدرسة السويس الأبتدائية الجديدة، تبارى أبى وأمى فيما بينهما على دفعى لقراءة الجرائد والمجلات، فرحا بى أشد الفرح وأنا أقرأ لهما المصور والأثنين والدنيا، أختارت لى أمى كل الموضوعات حول الحرب الدائرة بين العرب والصهاينة فوق الأرض المقدسة المسلوبة.. قرأت عن البطل أحمد عبد العزيز الفدائى الأول وفرقته من الضباط والجنود المتطوعين، رأيت صوره ورفاقه، وسمعت مندهشا خبر استشهاده محوطا بالحكايات المختلفة، تابعت صور وقصص دخول قواتنا الباسلة الحرب رسميا، وعرفت القدس والخليل وبيت لحم ورفح ويافا وغزه وأريحا وتل ابيب والهاجاناه.. قرأت القصص التى كتبها اليوزباشى أحمد عبد الرحمن عن أمجاد رجالنا وبطولاتهم وتضحياتهم فى الحرب، عن الفداء فى ميدان الشرف، حزنت جدا إلى حد البكاء لما قرأت قصة استشهاده الحقيقية فى سبيل ما آمن به، تمنيت أن أكون أنا اليوزباشى أحمد عبد الرحمن.. مازلت احتفظ بأعداد المصور التى بها قصص البطل مجلده..

سمعت عمى عبد الغفار يحكى مهللا كيف أن الملائكة تتقدم ابطالنا إلى النصر فى ميدان الجهاد، كنت أصدق عمى، رأيتهم وهم مودعين الخال ناصح وهو فى حلته العسكرية بأزرارها النحاسية..

قرأت عن الهدنه ولم أفهم بالضبط ماذا فعل الملك عبدالله ملك الأردن ليقتلوه؟.. كنت اسمع اسمه تحيطه حكايات مبهمه عند أماكن كان اسمها يسحرني.. اللد والرمله.. لما تهامس الناس حول الهدنه؟.. ضاعت مني المعرفه والادراك في هذا الوقت بحكم سني الصغير، لكني توجست شرا..

رأيت الدموع الحبيسه في عيون الناس داخل حارة رشيد..

لماذا هم مقهورين..؟

لم أستطع تحديد سبب انكسارهم يومها، الجميع يعرف أن الجدران لها آذان، وتحدثوا من خلف الجدران عن الأسلحة الفاسدة، ترددت كلمة الخيانة أكثر من مرة.. رأيت «المُكن» يومها لأول مرة، منظره البشع، شعره المنفوش، لحيته الغبراء المهوله، شعر حواجبه الغزير، وجلبابه الممزق أمام مقهى شاهين.. الهزيمة يا أولاد الأبالسه.. الهزيمة ياخونه، أنقذوهم من الفالوجا، انهالت أكف الناس فوق قفاه، هو يصرخ الهزيمة يا أولاد الأبالسة..، جرى المُكن في اتجاه الطابيه والأولاد يصيحون خلفه.. اليهودى.. اليهودى..، يقذفونه بالحجارة..

بعد شهور قليلة رأيت سيارة قديمة تقف أمام بيتنا في حارة رشيد، يحملون منها جسد ملفوف في بطاطين صوفية رمادية اللون، قذره، تنتشر عليها البقع المتباينة الألوان، ظننتهم يحملون جثه ميت، هرولت خلفهم إلى داخل المنزل، رأيت ما روعني، شاهدت ما حفر داخل رأسى معنى جديداً لحرب ثمانية وأربعين.. الخال ناصح الذى ودعوه منذ أكثر من عام مضى.. ذهبت مختالا، كان يمثل داخل وجدانى عنوانا للوسامة بعينيه البنيتين الواسعتين ووجهه المتدفق الحمره وقامته المديده ومنكبيه العريضين.. ناصح ملفوف داخل البطاطين القذرة، وجهه محاط بالشاش الأبيض الدامى لا أرى له إلا ذراع واحدة وسمعتهم يتحدثون عن قدم واحدة.. البطل عاد مشوها من حرب أسموها ثمانية وأربعين..

بعدها وفى عام خمسين، بعد انتقالنا إلى شقتنا تلك كما ذكرت، رأيت المُكن يقف فى نفس المكان أمام مقهى شاهين، يضربونه فوق قفاه، يركلونه، يصرخ.. أحذروا.. أحذروا.. الهزيمه.. الهزيمه.. قلت يومها فى نفسى الله يخرب بيتك يا مُكن وإن كان ليس لك بيت الله يخرب عقلك.. أنت بدون عقل.. كالبومه أنت يا مُكن.. نذير شؤم.. أى هزيمه التى تتصايح منها، الناس يغطيهم الحماس، الحكومة والناس تكاتفا أمام الانجليز.. رأيت عساكر

بلوكات النظام وضباطها مرتدين فانلات زرقاء، يضعون فوق رؤوسهم خوذات مفلطحة زرقاء، يحملون بنادق قديمة «لى انفلد» سمعت من بعض الناس أن معظم تلك البنادق إن لم تكن كلها معطوبة، الضباط والعساكر يخرجون فى سيارات نقل قديمة، رأيت الفدائيين فى جلابيبهم يحملون بنادقهم وهم مهرولين فى الحوارى، مخترقين من شارع صدقى..

بعضهم ذهب وراء عسكر بلوك النظام ناحية الهويس، آخرون اتجهوا من أمام منزلنا يعبرون حقول عقده فى اتجاه كفر البراجيلى ووابور المياه.. سمعت طلقات الرصاص منفرده، يعقبها طلقات سريعة متواليه مكثفة، تستمر الفرقعات السريعة المتلاحقة ثم تسكت بعض الوقت، نسمع طلقه ثم أخرى وربما كانت هناك ثالثة، تعود الطلقات السريعة المتلاحقة تصب جام غضبها، تتوالى أنفجارات..

كنت لا أعرف ماذا يعنى هذا؟!.. كنت فخورا بالذين ذهبوا أمامى يناضلوا ويكافحوا ببنادقهم الطويلة القديمة..

لا أنسى أبدا تلك العربة يجرها حصان قادمة تجرى من ناحية الهويس فوقها عدد من الجثث المترجرجه تغطيها الدماء، الناس تجرى حولها وعليها رجل يرتكز فوق ركبتيه بين الجثث، رأسه تنزف، يضع كفه اليسار على صدره، تخرج من بين أصابعه دماء تتناثر مغرقه قميصه، يرفع كفه اليمين المغطى بالدماء، يهتف بصوت مبحوح، تحيا مصر.. الله أكبر.. نموت وتحيا مصر.. الحصان ينطلق بالعربه ناحية الأسعاف .. الناس تجرى حولهم وتصرخ.. الله أكبر.. تحيا مصر.. تحيا مصر.. وعيت تلك الأيام، الحزن يلف المدينة فوق قتلاها، رأيت الحيرة داخل العيون، تردد السؤال عن السلاح.. كيف يكون الكفاح؟..

هل الموت وأنت أعزل هو الكفاح؟.. هل البندقية القديمة أمام الدبابة الحديثة نضال؟!.. لك الله يا شعب مصر البطل، الصابر، المثابر.. لأول مرة أرى أبى جميل يبكى.. جلس هو وصديقه عبد الكريم داخل صالون الحلاقة الذى يملكه أبى تحت منزلنا، جلسا يبكيان.. تردد على لسانهما أسم الكونستابل برعى.. كنت أعرفه.. طويل، رفيع، أحمر مثل الأنجليز حتى عينيه ملونتين مثلهم، بشوش ومرح، دائم القفشات والضحك، أنتقل بعمله إلى الاسماعيلية منذ شهور قليلة.. فهمت منهم أنه مات.. ذهب.. قتل.. أستشهد.. هدم الأنجليز فوق رأسه وكثيرين آخرين ضباط وجنود وكل الرتب.. هدم الأنجليز فوق رءوسهم سقف

وجدران قسم شرطة الأسماعيلية..

.. وامصيبتاه يا مصر.. أغلى شبابك يضيعون بالأوامر وبأسم الكفاح.. أغلى الشباب صدرت اليهم الأوامر بالصمود إلى آخر رصاصة معهم.. بل إلى آخر رجل.. صدق الرجال وصمدوا، تساقطت قنابل الأنجليز من أحدث ما أخترع من قنابل، مرت فوق أجسادهم المزقة أحدث الدبابات والمدرعات القادمة من أنجلترا..

بكى أبى وصاحبة صديقهما الكونستابل برعى.. ثم بكيت أنا زملاء لى من روضة الأطفال هدم عليهم جنرال أنجليزى كفر أحمد عبده.. فى ذلك اليوم أقام جنرالات الأمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس أحدث مدافعهم على مشارف مدينتى، وخاضوا أشرف معاركهم، لم يترجعوا عن ضرب الكفر الفقير وناسه الغلبانين، وتأكيدا لأنتصارهم هرسوا مبانى وحاجيات المزقين والمقهورين بأحدث دباباتهم ومدرعاتهم..

الحكومة المصرية فى القاهرة تعلن الكفاح المسلح إلى آخر طلقة وآخر رجل حتى سقطت وأتى آخرون من القاهرة أيضا، أطلقوا رجالهم.. نفس الرجال الذين رأيتهم مرتدين الفانلات الزرقاء والخوذ المفلطحة وصدرت اليهم الأوامر من قبل بالصمود لآخر رجل وآخر طلقه.. أطلقوهم هذه المرة ليحملوا كل من يرفع سلاح أو ينادى بالكفاح إلى صندوق سيارة لورى مغلق، جمعوا المناضلين وكل من يطلق عليه اسم فدائى فى تلك السيارات المغلقة كما يجمعون الكلاب الضاله من الحوارى والأزقة والكفور والنجوع..

امتلأت صناديق السيارات المغلقة بمئات الفدائيين، آلاف الملصقات والشعارات التى تحمل صورة ابن مصر يصوب بندقيته..

نزعوا منهم بنادقهم المستهلكه، أخذوهم مكبلين بالأصفاد، أمر رجال الحكومة الجديدة فى القاهرة الذهاب بهؤلاء الغوغاء المزعجين إلى ما وراء الشمس..

١٥ سبتمبر ١٩٥٦

بدأ العام الدراسى الجديد منذ أيام قليلة، دخلت القسم العلمى أحياء.. أقنعنى الأستاذ على ماهر مدرس اللغة الأنجليزية بذلك.. قال لى.. من الناحية العملية القسم العلمى يمنحنى فرصة التقدم إلى كل كليات الجامعة، لن يحد من اختيارى إلا قيمة مجموعى، أما القسم الأدبى فسوف يحد من اختيارى.. من الناحية العلمية القسم العلمى أوفر معرفة

ومايفوتنى من علوم القسم الأدبى أستطيع تحصيلها بالقراءة الحرة، أما إذا فاتتنى المواد العلمية فلا يوجد طريق إليها إلا بالعلم المدروس.. أخترت القسم العلمى..

داخل أعماقى رغبة لا أود تغذيتها وتأكيدها، أخاف أن لا تتحقق فتكون مصدرا لأحباطى وصدمة لآمال أمى.. تهفو نفسى وأتمنى أن أشارك العسكريين فى بلدى جهادهم وتقدمهم.. أتمنى أن أكون ضابط.. أعلم أن الوضع الأجتماعى رغم كل المناداه بتكسير الحواجز بين الطبقات، أن البلد اليوم أصبحت للطبقة الكادحة، لكن أنا سيف أبن جميل الحلاق جدى لأبى مازال يقف فى صالون الحلاقة الذى يملكه، جدى لأمى أورثنى سيف جميل عجيب وخنجر جرابه منثور عليه شرائط الذهب.. قال لأمى إنا من النسب الشريف، جدى كان ريس قاطره بحرية معدم فى غاطس السويس، لم يعرف أحد أبدا من أين ومتى ولماذا؟..

كيف أكون ضابط فى جيش مصر العظيم، مثل أحمد عرابى وجمال عبد الناصر.. لا أدرى.. يجب أن انزع هذا التمنى من عقلى ولو إلى حين..

مصر.. بل العالم كله يغلى.. كل فى اتجاه مصالحة، انجلترا وفرنسا

وأتباعهم جن جنونهم، ضربتهم مصر بقيادة الزعيم فى مقتل، توالت التهديدات..

لم يكد الأنجليز يخرجون بعد اقتراب قرن من الأحتلال ومآسيه، ويريدون بصلافة ومغالطة يقولون أن مصر اعتدت على مصالحهم وأمنهم..!!..

مازالوا يعيشون بعقلية القرون الوسطى.. لم تفعل مصر غير فرض سيطرتها وسيادتها فوق أرضها وممتلكاتها، ما أقسى الإنسان على أخيه الإنسان وما أظلمه..

منذ أواخر يوليو والتهديدات والمناورات السياسية وغير السياسية لاتنقطع.. صدئ لذلك ضاعت علينا نحن شباب مصر الأجازة الصيفية.. أحسبها لم تضع.. أقصد أننا قضيناها فى غير ما تعودنا عليه أو رسمنا له الخطط من قضاء اليوم بشواطئ البحر والتمتع بصيد القواقع والمحار وأبوجلمبو..

قضينا وقتنا هذا الصيف فى اكتساب وتأكيد مهارات نحبها، كثفنا تدريباتنا العسكرية، ذهبنا إلى تبه ضرب النار أكثر من مره، تكونت منا الجماعات الطلابية للمقاومة الشعبية، أتى ضباط شباب من الجيش ودربونا، أصبحت أنا وبكل السعادة رائدا لجماعة

مقاومة تضم عشرة من الشباب الزملاء، داخل أعماقنا نعرف أن العدو جبان، تمنينا كثيرا أن ينفذوا تهديداتهم، أن نلقاهم فى ميدان النضال، أن نأخذ بثأر عرابى منهم فوق أرض القناة، أن نوارى دماء من سقطوا فى العام التاسع عشر من ثوار عزل إلا من سلاح حبهم لبلدهم، أنا شخصيا اثأر لدماء الكونستابل برعى الذى سقط فى ساحة قسم شرطة الأسماعيلية، لهؤلاء الذين حملوا جثثهم المترجرجه فوق العربة الكارو يجرى بها الحصان فى موقعه الهويس بشارع صدقى، أرد كرامة أولاءك الذين نزعوا منهم بنادقهم المعطبة ووضعوهم داخل صناديق السيارات المغلقة..

يشط بى الخيال.. متقدمون مصوبون بنادقنا مكتسحون كل ظلم حتى نصل تل أبيب، أعود برأس ابن جوريون ووزيرة خارجيته الحيزبون، أرى بعين الخيال الجامح وقلبى يخفق ودمائى ساخنة.. الخال ناصح ينتصب انتباه جوارى بيده الواحدة، ينظر إلى باعتزاز وامتنان بعينه الباقية، رغم ساقة الوحيدة يقف دون أن يستند على أحد، تلمع ازراره النحاسية، بدلته الصفراء الكاكية نظيفة منشاه ليس بها أى أثر من دماء..

هذا هو الخيال الذى أستبد بى، ملأنى الفخار والحماس حتى بت أوقن أن ما بين هذا الخيال والواقع ما هو إلا شعره تحقيق لقاء وقتال الأعداء.. اليوم بعد انتهاء اليوم الدراسى، ذهبت أنا وصديقى زميلى فى الصف فوزى إلى مكتبه مرسى بشارع إيواز المتفرع من شارع النمسا.. المكتبة تبيع الملخص الفريد والوحيد المجدى والوافى لشرح مادة الأحياء.. كنا نعبر شارع النمسا من جوار محلات كوزوماتوس للأحذية والملابس.. هزنى فوزى وهو يدفع مرفقه إلى عظام جنبي، نظرت إليه عاتبا، رأيته يومئ برأسه ناحية محلات أيكونوماكس خلفنا عند مدخل شارع النمسا التفت إلى هناك.. رأيتها.. قبل أن اتأكد عرفتها، شملنى من أعلى رأسى حتى اسفل قدمى شعور غريب.. مزيج من التحدى، الأعجاب، الغيظ، النفور، الرغبة، لم أعرف أيهم اقوى.. أو كلهم مجتمعين.. ارتبكت ارتباك شديد، ظهر ذلك جليا، ضحك فوزى.. آه.. أتهزيت؟.. مثلى يا حلو.. هى بنت تهز الجبل.. لا تثريب عليك يا بنى.. أنظر طولها.. شعرها.. بياضها.. ثخانه ساقيها.. ملابسها التى لاتضاهى.. برنسيسه والله.. وقف فوزى.. وهو يتحدث لا يريد أن يبرح مكانه رغم أنها اختفت داخل المنحنى المؤدى ناحية لوكاندة الشرق.. جذبته من ذراعه وواصلنا سيرنا فى

اتجاه مكتبة مرسى بشارع إيواز.. واصل فوزى حيثه بكلمات غزل كالحجارة كما تعودنا منه.. مثل قوله.. يا خرابى.. بنت مثل الحيطه.. ساقاها عجالى.. كفها رغيف صابح.. ضاعت منى كلماته.. ذكرنى بوصفه كفها، لم اشأ أن اخبره.. تلك الفتاة هى التى يحكى عنها رخا ابن عمى.. تلك هى أبنة المعايرجى.. التى صفعتنى فوق وجهى أيام طفولتى بروضة مدرسة النهضة.. صفعتنى ولا أنسى لها هذا أبدا لمجرد أننى كنت أدافع عن حقى..أراد أخوها اغتصاب طعامى، لما دافعت عن طعامى أتت هى وصفعتنى على وجهى بكل قوتها.. آه لو كنت استطيع يومها.. على أى حال أنا رأيت الأنزعاج ساعتها داخل عينيها واضحا، لا أدرى هل كان انزعاجها من أجل أخيها المضروب.. أم من أجل اعتدائها على، على أى حال قد ازعجتها، الأيام بيننا.. أرجو أن أهزها.. أرد الصفعة أو حتى أفهمها خطئها.. وكما أن العدوان غاشم فإن الحق حق..

٢١ سبتمبر ١٩٥٦

منذ حوالى خمس سنوات، وأنا فى الثالثة عشر من عمرى، كنا صحبة فى فناء المدرسة الأبتدائية الجديدة بالمرور نتجاذب أطراف الحديث، تدرج الحديث بنا حتى ابتعد وتعدى كل المحاذير،، دخلنا فى حديث الأسرار والممنوع.. بدأ فؤاد يتحدث عن مزايا العملية السرية، لم أفهم من حديثه شيئ.. فؤاد رغم أنه فى الثالثة الأبتدائية إلا أن شاربه مزدهر، تقوس ساقاه واضح داخل سراله، عندما يمشى تتقدم ركبتاه قبل قدميه، شديد النحوله، أصفر الوجه، قانط التعبير كأنه يعانى طول الوقت.. لاحظ فؤاد أننى لا أفهم من حديثه شيئ.. قال بسخرية.. قروى ساذج آخر.. ألا تعلم رغم طولك وعرضك؟.. أنى اتحدث عن الواحد والثلاثين.. أشاح بوجهه بين ضحك الزملاء، سمعته يقول .. ربما لم تبلغ بعد.. أضطربت كل الأضطراب، شيئ يمس الرجوله أكيد.. لأول مرة لا أفهم حديث يدور بين الرفاق.. فكرت فى أن أدعى المعرفة ثم أفهم من سياق الحديث، خفت أن ينفضح امرى.. ادعيت أننى مستاء من قله أدبهم، تركتهم مزمجرا وهم يتغامزون..

ملك التفكير على معظم وقتى حول العملية السرية، من الواضح أنها أشياء تتعلق بمحرمات الجنس.. فؤاد كان يشير بيديه إشارات مقرفه.. ذكر أشياء حول الصابونه وأظن

الليفة والحمام.. لا أتذكر جيدا.. تملكتنى فكرة يجب أن أعرف، لن أظل القروى الساذج كما يقول فؤاد.. المشكلة من اسأل؟.. إذا سألت الأصدقاء أو الرفاق سوف يسخرون ويضحكون إذا كانوا يعرفون.. لا أستطيع سؤال أمى أو أبى.. وما هو موضوع البلوغ الذى أسمع عنه كثيرا؟.. هكذا سألت نفسى يوما.. هل البلوغ هو تلك الشعيرات القليلة النابته فى أماكن جديدة داخل جسدى؟.. أم هو عند ظهور شاربى ونبت شعر ذقنى، فهمت من فؤاد أن البلوغ تحدده تلك العملية التى ذكرها مرت أيام قليلة، وجدت نفسى وحيدا فى المنزل، الجميع خرجوا لشئون وأسباب لا أتذكرها، بقيت وحدى بين جدران البيت..

اتذكر جيدا أنه بمجرد شعورى أننى وحيد لا رقيب ولا قريب اشتعلت أحاديث فناء المدرسة تتحدى افكارى، جمحت استدعى خيال فؤاد وهو يشرح العملية فى بساطه.. أتبعت تعاليمه، توجهت إلى الحمام، أحضرت الليف والصابون، تعريت،.. آلمنى الليف ألم شديد، القيته بعيدا، أسعدنى الصابون.. مجرد شعور بالتمتع، لا شئ آخر.. لم أقتنع بأن هذا ما يقصدون.. حركت يدى وأخذت أعد.. واحد.. أثنين.. كنت أبغى العد إلى الرقم واحد وثلاثين لعلهم يقصدون ذلك.. وجدت نفسى أعد الستين.. هناك تغير حقيقى.. تغير لم أعرفه طول حياتى قبل تلك اللحظة.. أحسست بكل أعصاب جسدى وعضلاته مشدوده فى نفس الوقت مزهوه.. أنتابتنى سعادة غامره نابعه من أعماقى ولا أعرف سببا لها إلا تلك النشوة التى امتلكت كل شعره فى جسدى.. هناك خفقه غامرة تجرى فى عروقى.. قادمة.. تود.. تود.. الخروج والإنطلاق.. رأيت فى نشوتى وسعادتى السائل ينطلق خارجا منى فى الهواء يغمر كل شئ أمامى.. كنت مبهوراً، متلاحق الأنفاس، أكتشف بنفسى ينبوعا للسعادة والحياة، أقف عارٍ فاتح قدمى ثابت لا أهتز.. أعجبتنى اللعبه مع ينبوع الحياة، كررتها.. تلك المرة أحسست برعشة غامضة تنتاب أوصالى.. أستغرقت للمرة الثالثة أغوص فى أعماق العملية.. اصطدمت بما أخافنى، أرعبنى، عند انطلاق نشوتى خدلتنى ركبتاى، أرتعشا، لم تتحملا زهو وقفتى، سمعت صوت ارتطامهما ببلاط أرض الحمام، أنا متلاحق الأنفاس، أكاد أن اسمع دقات قلبى.. تصبب العرق من كل أجزاء جسدى، شعرت بخواء وإرهاق شديدين..

أغتسلت.. أزلت آثار ما فعلت، تملكنى خزى وشعرت بالعار، شملنى اضطراب المذنب

أو المجرم، تلك العملية الرهيبه وليست السريه جمعت فى نظرى كل متناقضات الحياة.. النشوة والرغبة، النهى والتحريم، اللذه والسعادة، الألم والتدمير، النشاط والحيوية، الخمول والذبول، الحياة والموت..

كنت أرتجف وأنا اتدارى بكتـبى فـوق المكتب حين وقع نظر أمى على.. اندهشت.. سألتنى بصوت مضطرب.. مابك يا أبنى..؟ أجبتها وأنا أضع وجهى خجلا داخل كتاب.. لا شئ.. أكدت هى.. لاشئ كيف وأنت مصفر الوجه أحمر العينين تكاد أن تسقط من طولك؟.. لا شئ يا أمى مجرد إجهاد فى المذاكرة.. إنهض يابنى.. تناول شيئا ساخنا وارتاح قليلا فى فراشك حتى تسترد عافيتك..

ودون أن انظر فى مرآة عرفت ما صرت عليه بعد أن جرحت سذاجتى القروية بتلك العادة الملعونه..

لم يستكن جسدى بعدها أبدا، تمرد على فكرى وأخلاقى، كنت أكبح جماح جسدى ويزداد لوم وتقريع ضميرى لأخلاقى، لأول مرة تجذب انظارى تلك الأنثى المخضرمة اليونانية القاطنه فى العمارة أمامنا.. تخرج بقميصها الشفاف ذى الحمالات الرفيعه دون حياء، تطل من شرفتها أو تنشر غسيلها، أرى أنا كل هذا اللحم الأبيض البض، الاذرع الملفوفه، الأبط الذى يشع، الصدر الرجراج الذى يكاد ان يقفز خارج فتحه قميصها الواسعة، الساقين المستديرتين اللتين يكمل كل رسمهما خيالى..

أكاد أن أجن، يعلن جسدى الثورة، أنا أكبحه بهذا العراك بين ضميرى وأخلاقى المتمرده، صممت مهما ثار جسدى لن أعود إلى تلك العادة القبيحة الرذيلة.. عادة فؤاد..

أكثرت من الصلاة.. أندمجت مع التقوى.. خفف هذا عنى..

بعد صلاة الجمعة بزاوية السيد خليل، أنتشر السوق كعادته.. جلست فوق مقعد أمام محل «دنيال» ترزى القمصان تحت منزلنا.. جلس معى أكرم أخو دنيال، يكبرنى بسنوات قليلة.. بيننا صداقه.. أكرم ترك الدراسة مبكرا ويعمل مع أخيه فى تفصيل القمصان والبيجامات..

سألنى.. ما الذى جرى يا سيف؟.. أراك على غير عادتك.. مريض مهموم.. قانط.. هل هى متاعب الدراسة؟.. نظرت إلى صديقى أكرم.. لم أفكر كثيرا.. اندفعت أفرج همى،

حكيت له سرى.. أهتم بالأمر ولم يسخر منى.. ابتسم وقال فى حكمه.. كلنا مررنا.. إنه دور العيال.. لا يفعل ذلك غير الصغار الجاهلين، أنت رجل كبير متعلم.. حصيف، ليس هذا الأمر لك.. لا تفكر فيه أبدا.. نحن الرجال لنا طريقنا ولنا سبلنا.. نظرت إليه مستفسرا.. قال وهو ينظر نحوى نظرة اهتمام.. لا تحمل هم يا صديقى.. تنفرج إن شاء الله.. سألته بلهفه.. كيف تنفرج يا أكرم؟.. هز رأسه وهو يرد.. الصبر.. أننى الآن مشغول.. عند المغرب يعود دنيال وأتفرغ لك.. سوف ترى.. ضحك أكرم فى سعادة..

أنتظرت ساعة المغرب، صليت وتوجهت إلى صديقى كلى شوق لمعرفة ما الذى سيقوله..

عندما تقابلنا، لم يتحدث.. تأبط ذراعى ومشينا، سألته .. إلى أين؟.. أجاب فى اقتضاب.. سوف ترى بنفسك..

عبرنا شارع صدقى، دخلنا حارة رشيد، طويناها بطولها، مررنا على بيتنا القديم هناك فى منتصف الحارة.. ونحن نقطع ما تبقى من الحارة مهرولين تنبهت إلى أننا متوجهين ناحية الطابية، لم أفطن أو يدور بخلدى أن وجهتنا الفجالة إلا عندما اقتحم أكرم الزقاق الضيق متأبطا ذراعى، توقفت، جذبنى أكرم بقوة.. حاولت الكلام.. سمعته يقول.. مالك؟.. ألست رجلا؟.. هل تود أن تتبع أفعال الرجال؟.. أم تراك عشقت أفعال الأطفال؟.. تقدم .. لن يضيرك.. لن تجبر على ما لا تريد.. ترك أكرم ذراعى، تقدمت خلفه على مهل، لمحت على يمينى رجل طويل عريض يرتدى معطف كاكى وفوق رأسه طاقية، لم أر مثل ضخامة شواربه فى حياتى .. ألقى عليه أكرم التحية.. سمعته يقول.. السلام عليكم يا حكومة.. رد عليه الرجل بإيماءه من رأسه دون أن ينطق، عرفت أنه مخبر.. أرتجفت.. مباحث هنا؟..

أكرم يقودنى داخل المكان الذى لم أفكر حتى فى الاقتراب منه ولو على بعد مائة متر.. كنت أدور حوله فى الحارات والأزقة حتى أصل الطابيه متجنبا دخوله.. سمعت عنه حكايات وحكايات.. جميعها لا تسر البال أو الخاطر.. أمراض.. سرقات.. قتل.. أختفاء.. موت.. كل هذا وأكثر يحوط هذا الممر ويحوم حوله..

بعد خطوات قليلة داخل الزقاق تغيرت الدنيا كلها أمام عينى.. تضاربت مفاهيم وأفكار، أهتزت ذاتى أهتزاز محير، تدحرجت رأسى فاختلط كل ما بداخل عقلى.. بيوت أبوابها مفتوحة، رجال داخلون خارجون، أصوات قبيحة تلفظ كلمات غير مألوفة، تجرح المشاعر،

وتهدم كل قيمة، نساء شبه عاريات جلسن تحت مصابيح شديدة الأضاءة أمام الأبواب المفتوحة، كن يفرجن ما بين سيقانهن فتنكشف أفخاذهن عاريه لامعه، حتى سرواليهن الداخلية لها ألوان حريرية فاقعه.. ، الكلمة الوحيدة الممكن سماعها منهن وسط هذا الكلام الداعر المتدفق هي كلمه.. أتفضل..

عند أحد الأبواب التقت عيناى بفتاة فى العشرين تقف وهى ترتدى ملابس غير خليعه بين أصابع يدها ورقة مطويه تدفعها نحوى وهى تقول بأدب.. ممكن لو سمحت.. اقرأ لى هذا الخطاب.. توقفت، مددت يدى أتناول الورقة، شهقت الفتاة شهقة مائعه..لا.. ليس هنا.. فى الداخل.. فى الداخل أحسن.. هنا العيون تجرحنا.. أضطربت.. سمعت ضحكتها المائعه، رأيت نظرتها الموحية والأكثر ميوعه وهى تشير ناحية الباب المفتوح.. أتفضل.. هيا.. لا وقت هناك.. تعالى، سمعت ضحكة أكرم المجلجلة الساخرة.. أتفضل.. أتفضل يا أخى.. صغيرة ومثل القشطة..

هرولت مذعورا أبتعد.. تنازعتنى الرغبات.. وددت أن أمكث أطول مده ممكنه تلتقى فيها عينى ويستوعب منها خيالى تلك المناطق التى لم أحلم برؤيتها يوما داخل أجساد النساء..

٢٤ سبتمبر ١٩٥٦

فى طريقى من الحمام إلى غرفتى رأيت جدتى زين تنتهى من صلاة الفجر.. ترفع يديها متوجهه إلى السماء بالدعاء، قلت لها.. أدعى لمصر يا جدتى.. لما خرجت أهرول حتى الحق بطابور ضرب النار قابلتنى جدتى زين على باب حجرتى.. قالت لى فى حنان.. عندما أدعو لك وكل الشباب مثلك فأنا يابنى أدعى لمصر.. أنتم مصر يحرسكم ربى..

أعجبنى منطق جدتى زين.. دائما حكيمه فى أقوالها صادقة فى أحاديثها.. كنت أغتاظ منها فى بعض الأحيان لمضايقتها لى ومراقبتها الدائمة لأفعالى.. أمى مشغولة بعملها، أبى لا يتواجد فى البيت طوال النهار وجزء كبيرا من الليل.. أما جدتى فهى التى ترعانى أنا وأخوتى فى كل لحظة ودقيقة لاتهددنى مثل أمى بأنها سوف تخبر أبى عندما أخطئ أو أنحرف عن حادة الصواب.. تتولى هى عملية العقاب بنفسها، تبدأ بالتقريع والتوبيخ بألفاظ منتقاه يرتعش منها جسدى وتثور لها نفسى، عندما ترى تعبير الغيظ والألم فوق وجهى

تبدأ فى ألقاء مواعظها وحكمها وما يجب أن يكون والتى لاتمل عن ترديدها.. كنت اتمنى أن تخبر أبى أو أمى وتعفينى من عقابها هذا القاسى والذى اعتبره أقسى من أى خيرزانه أو حزام جلد يقرع بهما جسدى..

احب جدتى زين، احترمها، اخاف منها، أمى وأبى موجودان أطال الله فى عمرهما، لكن جدتى زين شيئا آخر.. لا أنسى إطعامها لى فى صغرى عندما كانوا يمنعون عنى الطعام لمرضى، تأخذنى فى أحضانها، تتسلل بعيدا تدس داخل فمى قطعة من دجاج أو كبد أو قونصه، تتحمل عتاب أمى لها، غضب أبى عندما يعلم، تقول لهما.. لا يتدخل أحد بينى وبين حفيدى.. يشفى بإذن الله.. انكم تقتلونه جوعا بجهلكم.. تأخذنى فى أحضانها، تهدهدنى وهى تقول.. ما به شئ.. هذا هو مثل الفل.. رجل.. طول وعرض.. غدا ترون شواربه..

إذا استبدت بى الحمى وارتفعت درجة حرارتى، تبعد عنى أمى الخائفة حائرة العينين، وتضعنى جدتى فى فراشها، تخلع لى ملابسى وتدلك جسدى بالخل الأحمر ذى الرائحة النفاذة، ثم تدثرنى وتلفنى أنا وهى فى بطانيه صوفيـة جيدا حتى يعرق جسدى، وتوالى بعدها تدليك جبهتى ورأسى بالخل حتى تذهب الحمى..

لما كنت أشكو لها من الصداع تقول لى.. لايهمك، تعالى، تضع رأسى فى حجرها بعد أن تأتى بفنجان به ماء مذاب فيه ملح، تقطر فى أذنى قطرات.. أشعر بالدوار والأغفاء، أغرق فى العرق، تضع كفها فوق رأسى تبسمل وتقرأ.. اثناء مرض برد الشتاء.. تعمل على أحضار ورقة، تطلب من أمى فى اصرار أن تقصها لها بالمقص على هيئة إنسان له ذراعين مفرودتين وساقين مفتوحتين، تجلس عند قدمى، تمسك الورقة على هيئة عروسة إنسان بيدها اليسار وأبره خياطه بين أصابع كفها اليمين، تغرز طرف الأبره الحاد داخل الورقة على هيئة العروسة، تقول.. هذا فى عين المدرسين والمدرسات الذين رأوك وحسدوك، وهذا فى عين جارتنا أم محمد، وهذا فى عين صاحب أبيك عبد الكريم، وتلك فى عين أمك، وأخرى فى عين جدتك، وعين مريم، وعين عمك، وامرأة عمك .. ثم توالى غز الورقة بسن الأبرة فتخرقها حتى تغطيها بالثقوب وهى تقول.. فى عيون كل من رأوك وحسدوك ولم يصلوا على طه الرسول، تمزق العروسه المثقوبة مئات العيون، تلقى بها داخل جمر المنقد

الملئ بالفحم المشتعل والموضوع داخل الغرفة أتقاءا من برد الشتاء القارص، تأكل النار العروسة مشتعلة، تضع جدتى كفها اليمين فوق رأسى، ترقينى بما تحفظ من سور قصيره ودعاء.. جدتى زين هى أقرب الناس إلى قلبى، هى قبل أمى وأبى وأخوتى وكل العالم.. عندما وعيت وفتحت عينى على الدنيا عرفت معنى الحكايات والحكى منها، كنت لا أنام إلا على صوتها يحكى لى.. هذه حقيقة لا أستطيع أن أقول فيها أن كل الجدات تفعل مع أولادها مثل جدتى..

جدتى زين شيئا آخر.. حكت لى فصدقت كل كلمة قالتها، حتى عندما عرفت حدود الحقيقة من الخيال علمتنى أن للخيال معنى، الخيال حلم مانشتهى أن يكون كما نحكيه فى مثاليته، حكت لى جدتى زين عن ست الحسن والجمال، عن الشاطر حسن، وعقله الأصبع، والأميرة والسبعة الأقزام، وعن الملك سوس وكنوز الطابيه، حكت لى حكايات كثيرة وجميلة، لما اشتد عودى حكت لى عن تغريبة بنى هلال وفارسهم أبو زيد، وعن الملك سيف بن ذى يزن التبعى الحميرى، نضاله وحروبه فى سبيل اعلاء كلمة الحق.. ثم شوقتنى لما وعيت الحياة بحكاياتها عن بلدها أحمديه البحر وعن شربين والمنصورة، بل اخذتنى إلى نوادر عمى عبد الغفار وأبى جميل والخال ناصح..، أجمل حكاياتها لى كانت عن جدى أبو أمى عبد الرحيم.. هريدى.. حكاياتها عن جدى كانت كالأساطير.. كررتها أكثر من مرة على أذنى، وحدنا أو أمام أمى التى كانت تبتسم، وأبى الذى كان يصدق على كل كلمة تقولها جدتى زين.. أبى يكن للمرحوم جدى عبد الرحيم كثيرا من الحب، لاحظت هذا لما كان ينظر إلى السيف أو الخنجر الذى تركهما جدى.. كانت تغيم عينيه، يستغرق فى تفكير يأخذه بعيدا عن المحيطين به، يتنهد ويمسح وجهه بكفيه قبل أن ينصرف مسرعا كأنه يريد أن يلحق بشئ أو يهرب من آخر.. لا أنسى أبدا حكاية جدتى زين عن شهامه جدى عبد الرحيم هريدى وقوة فؤاده وجنانه.. قالت بصدق وجديه.. كان عبد الرحيم كل ليلة يعبر بقاربه الصغير البحر من الكورنيش العتيق يتجه إلى الضفة الأخرى من خليج الغاطس القديم قبل أن يبحر يتمون بالمؤن اللازمة لليلته ويومه، عمله مكانه بالشط فى الجانب البعيد من الخليج.. لا يوجد أنسان غيره هناك، ولا طريق إليه إلا الفلوكه التى يركبها، يملأها بالتموين، يبحر بها إلى هناك وحيدا، قبل أن يهبط الظلام، كل الناس عرفت أن عبد الرحيم

يحمل يوميا من التموينات ما يكفى لأحتياج أكثر من عشرة أفراد، كل يوم يأخذ معه نفس الكمية.. تعجب الناس أشد العجب، فسروا الأمر على أن عبد الرحيم أكول.. بعد تفكير أيقنوا أن هذا مستحيل.. سألوه.. أبتسم ولم يرد..

سأله الشيخ محمود أمام مسجد جليدان فى أحد الأيام بعد صلاة العصر، أجاب عبد الرحيم هريدى فى براءة أرعبت الشيخ..

عندما يعم المساء وينتظر الظلام وبعد أن تتعود عيناى العتمه وأرى الأشياء أشباح، أفرد طعامى وأحضر وعاء مائى، أمد يدى إلى الطعام، تمتد معى عشرات الأيدى..

أهتز الشيخ محمود لحديث عبد الرحيم.. أعوذ بالله من الشياطين.. أعوذ بالله.. يجيب عبد الرحيم بصوت غليظ، أنهم ليسوا شياطين يا مولانا، أنهم طيبون.. قبل أن أمد يدى إلى الطعام أنطق بسم الله الرحمن الرحيم.. ومع أننى لا أحدد أيديهم جيدا إلا أننى أسمع أصواتهم تردد أسم الله.. وأنت تعلم يا سيدى أن اسم الله يحرق الشياطين.. فأولاءك هم من المؤمنين الطيبين، فتح الشيخ محمود فمه ولم يرد على عبد الرحيم، مضى إلى حال سبيله وهو يتمتم.. لله مافى السموات والأرض وهو على كل شئ قدير..

وتكمل جدتى زين تلك الحكاية مرة أخرى فتقول.. فى صباح يوم وعبد الرحيم فى مكان عمله على الشط، بعد أن صلى أربعة ركعات الضحى، هم يجهز قاربه الصغير حتى يلحق بصلاة الظهر فى مسجد أبو الليف، أقترب ناحية المياه حيث يوجد القارب.. سمع نداء استغاثة.. أغثنى يا عم عبد الرحيم.. أغثنى.. نظر اتجاه الصوت، رأى على مرمى البصر شخصين متعاركين، أضخمهما يلقى بأصغرهما الذى يستغيث على وجهه ويرقد بساقيه فوقه، هرول عبد الرحيم اتجاههما، لما اقترب منهما رآهما عاريين كما خلقهما الله.. زعق.. ما الذى يجرى؟.. قال الفتى الصغير بصوت باكى وهو يشير ناحية الرجل الضخم.. هذا الرجل أغرانى أن أعمل عنده، أنا غلبان.. يتيم الأب، أعول أمى وأخوتى الصغار.. أخبرنى اليوم أننا سوف نصطاد جندوفلى ولوجز من الشط، أحضر عجله كاوتشوك منفوخه بالهواء علق بها جوال فارغ، خلفنا ملابسنا على أرض الكورنيش، تعلقنا بالعجلة المنفوخة بعد أن القينا بها فى مياه البحر، ندفع بأقدامنا الماء حتى وصلنا هنا، قبل أن نفعل شيئا رأيت هذا المفترى منتصبا وهجم على يلقينى أرضا، أقسم لك أننى لم أعرف.. أننى رجل.. رجل يا عالم!!

الغلام سمين فى الخامسة عشر من العمر، يجلس تحت اقدام الرجل الضخم فوق رمال الشاطئ، الغلام يدارى عورته بيديه، الرجل يقف فى تحدى متبجح عارى فوق رأس الغلام، عرفه عبد الرحيم.. عوكل العربجى بحوش البضائع.. يعلم سوء خلقه وشذوذه.. سأله عبد الرحيم.. صحيح يا عوكل؟.. أجاب عوكل فى صلافه.. أنت مالك شأن يا أسود.. أذهب لحالك.. والا لو كنت تنفع بدلا عنه لوضعتك..

تقدم عبد الرحيم ناحية عوكل.. عبد الرحيم عملاق طويل عريض، عوكل لم يهتز فهو قوى البنيه غليظ الحس والضمير وفتوه حوش البضائع لم يقابل بعد من يردعه عن جبروته، استعد عوكل لملاقاة عبد الرحيم وركل بقدمه اليمين الغلام الجالس على الأرض ركلة قوية فى صدره أطاحت به مستلقيا على ظهره.. هجم عوكل بكل قوته، لم قبضه يده اليمين وألقى بها وبكل ما أوتى من عزم فى وجه عبد الرحيم، ظن عوكل أن عبد الرحيم أنتهى تحت وطأه الضربة الجبارة.. ذهل عوكل.. عبد الرحيم لم يهتز أو يخور، قبل أن يفيق من ذهوله كان عبد الرحيم يمسك داخل كفه اليمين ويضغط بكل قوة ما بين ساقى عوكل، صرخ عوكل صرخه مدويه، تراجع عبد الرحيم برأسه الكبير إلى الخلف ثم دفعه إلى الأمام كمطرقة حديديه قرع به رأس عوكل الملتوى تحت كف عبد الرحيم، سمع الغلام لألتقاء الرأسين كتمه هزت فؤاده، رأى الدماء تنثق غزيره من رأس عوكل الذى أنهار دون صوت على الرمال بعد أن أطلقه عبد الرحيم من كفه.. عوكل يتلوى فوق الأرض، ركله عبد الرحيم فى وجهه، بصق عليه، تقدم أليه، جره من شعره على الأرض، أرقده على وجهه أمام الغلام، زعق فى الغلام الفرح المذهل.. قم يا ولد.. قم أحشوه بالتراب.. تردد الولد زعق عبد الرحيم.. يا ولد أن لم تفعل سأتركه يفعل معك ما كان يريد.. قم أنهض يا ولد.. تقسم أنك رجل.. أحشوه بالتراب يا رجل.. هيا أحشو دبره.. عوكل يتوسل، يئن، عبد الرحيم يقبض على خلق عنقه بيد من حديد، يدفع بوجهه داخل رمال الشاطئ الساخنه الناعمه، نهض الولد، أنهمك يحشو عوكل بالرمال بينما عبد الرحيم يضغط قفا عوكل كاتما فمه بتراب الأرض، صوت عوكل ينكتم وعينيه دامعتين، أنكسر عوكل، عرفت المدينة كلها حكايته..

ارتفعت هامه الغلام، لم ينس لجدى هذا، حتى عندما كان يسير فى الطريق مع زوجته وأولاده، قابلوا أبى وأمى، كان ذلك بعد رحيل جدى بسنوات كثيرة، كنت أنا فى صحبة أبى

وأمي، سمعت الرجل بعد السلام والتحية يروى قصته تلك لما كان غلام إلى زوجته وأطفاله أمامنا..

جدتى زين تغمرنى بحناها على طريقتها، دائمة اللوم والتقريع لى على كل ما أفعل.. دائمة التحذير لى من مخاطر الدنيا وشياطينها.. أخاف أن اتأخر خارج المنزل، إذا تأخرت وجب على أعطاء تقرير مفصل على كل ما فعلته اثناء فترة غيابى..

أقف امامها مرتجف خائف، لايطمأننى شئ قدر الحنان المتدفق من عينيها.. لم تضربنى أبدا، كنت أخاف وأرتعش من كلماتها القادمة من أعماقها لتهزنى وتربكنى وتكشفنى..

أتذكر أيام سقطتى بالفجالة ثم توبتى وتوجهى إلى الله بصلاتى ودعواتى والذهاب معظم الأوقات إلى بيوت الله، قابلتنى اثناء عودتى من صلاة الفجر.. كانت تصلى فى مكان تعبدها بركن الردهه جوار الأريكة الأسيوطى المتسعه.. أشارت لى أن أجلس جوارها، جلست، كانت تقرأ وردها، بعد أن انتهت التفتت إلى وهى تنظر نظرة عميقة.. هداك الله وأرضاك يا سيف.. أدعو الله أن يكون توجهك إليه صادق، انظر إلى نفسك، كيف عادت إليك صحتك وجرت الدماء فى وجهك بعد أن شغلتنا فترة باصفرارك وهزالك.. الأيمان والأتجاه على الطريق إلى الله سبحانه وتعالى هو خير بلسم لكل علل النفس والجسد يا ولدى.. سكتت.. هممت بأن امضى منصرفا، وضعت يدها فوق كتفى قبل أن أنهض، همست لى وهى تضغط الحروف.. ما دام دخلت بيت الله وسجدت له وأوثقت العهد.. اياك والسقوط مرة أخرى.. اياك أن تقودك قدماك مرة أخرى ناحية الفجالة يا سيف..

أنتفضت.. ما الذى تقوله جدتى؟.. من أخبرها؟.. لا أحد يعلم سرى هذا هل تصرفاتى مكشوفة إلى هذا الحد؟.. نظرت ناحيتها أود الأحتجاج.. الدفاع، أو حتى تبرير هذا العار الذى ظننته راح وانتهى، رأيتها بعيدة عنى، لاتنظر إلى، تبسمل وتسبح الله، لم اتكلم، انصرفت إلى حال سبيلى..

لا يضايق جدتى شيئ فى حياتها مثل خروجى عن الطاعة وحدود الأدب فى نظرها لأى سبب كان من الأسباب وكذلك أن تطرح سيرة زوجها سيف والذى هو جدى لأبى..

أرى الحزن جليا داخل عينيها عندما يتذكره أحد أمامها..

لما كنت طفل صغير لا أذكر كيف عرفت الطريق إلى صالون الحلاقة الذى يمتلكه جدى فى شارع الملكة نازلى..

– أذهب إليه فى الأعياد، ينظر إلى بعينيه الخضراوتين، يسألنى.. أنت سيف ابن جميل؟.. أهز رأسى بالأيجاب.. يضع يده فى جيب جلبابه ويخرج قطعه معدنيه لامعه يدسها فى كفى على النصف فرنك المضلع اللامع.. أحكى لجدتى يكتسى وجهها بالمرارة وتمتلأ عينيها بالحزن تشير بيدها كأنها تبعد شيئا عنها ولا تتكلم..

كنت صغير، وأفهم أنها لا تريد الحديث عن جدى هذا..

لم أر جدى سيف كثيرا، يقولون أنه قدم بعد الحرب العالمية، استقر فى شارع الملكة نازلى حيث تقرب من سيدة أرملة استأجر منها دكان تحت بيتها، سرعان ماتزوجها، استقر معها فى الشقة فوق الدكان وانجب منها صبيان وبنات.. عرفت أنه مزواج، تزوج أكثر من أربعة مرات، كل زوجة له منها بنين وبنات، ربما لا يعرف عن بعضهم شيئا الآن، جدتى هى الوحيدة التى أنجب منها أبى فقط.. يقولون أيضا أنه يرفض تطليقها رغم أنفصالهما الطويل.. هى الوحيدة التى فى ذمته غير زوجته الحالية..

يرسل جدى سيف إلى جدتى كل شهر مبلغ ضئيل من المال هى فى غنى عنه، تقول أحل من عينيه، كنت لا أفهم، سمعتها تقول.. يطمع أن يرث فى بعد موتى.. عشم أبليس فى الجنة.. لن يجد ورائى شيئ.. كله بأسم الأولاد.. أظنه هذه الأيام ما عاد يرسل إليها تلك القروش القليلة، وهى الأخرى ما عادت تتذكرها..

أستحوذت جدتى منى اليوم على فكرى ومذكرتى.. أنا احبها فعلا، لم أعرف لى معلما أو مرشدا غيرها.. اعنى معلم ومرشد مخلص لوجه الله وصلة الدم.. هى التى تعنى بى وأخوتى أكثر من أمى وأبى.. فعلا مقدار رعايتها وحبها وحنانها الذى تصبه على وأخوتى متدفق، لاتشعر فى تلك الدنيا بغيرنا كأنها تعيش من أجلنا..

جدتى زين لاتعرف القراءة والكتابة، تجلسنى أمامها لأكتب لها وأحسب أيجارات منزل حارة رشيد وأيجارات منزلنا هذا فى شارع صدقى، تستعمل أصابعها وهى تقول، أؤكد وأنا الحقها فى الجمع والطرح والضرب والقسمة أن حساباتها صحيحة، تضحك هى.. أتريد أن تكون حساباتى غير صحيحة يا ولد؟.. أتظن أنك الوحيد المتعلم؟.. العلم هنا يا

ولد.. وتشير إلى رأسها..

متعك الله بالصحة والعافية يا جدتى الحبيبة وتقبل منك دعواتك الصالحات لشباب مصر بالخير والأنتصار..

أول اكتوبر ١٩٥٦

اليوم دخل علينا الفصل مدرس الرياضيات «فؤاد عازر» مرتديا حله الضابط الرسميه، يزين كتفه ثلاثة نجوم، أنبهرنا جميعا نحن تلاميذ الفصل..

«فؤاد» افندى وسيم معتدل الجسد، أضافت عليه حله الضابط جمال وهيبه ووقار، كيف هو مدرس وفى نفس الوقت ضابط؟.. لأول مرة اليوم عرفت ضباط الأحتياط.. الأستاذ فؤاد عازر ضابط برتبه النقيب احتياط بالقوات المسلحة المصرية.. أى يوزباشى أحتياط..

وجه لى فؤاد أفندى.. أقصد النقيب فؤاد الحديث.. قال لى.. قبل أن نبدأ الحصة أنبهك إلى شئ مهم يا طالب سيف.. أجمع مجموعتك التى تدربت معك بمنظمة الشباب، وفى المدرسة هنا، توجهوا بعد عصر اليوم إلى معسكر الحرس الوطنى.. هل تعرفه يا سيف؟.. أجبته بالأيجاب..

مررت على المجموعة داخل فصولها فيما بين الحصص، وجدتهم جميعا يعرفون.. بعد العصر، داخل ساحة الحرس الوطنى قابلت جموع من الشباب.. تلاميذ مدارس، عمال بعض طلبه الجامعات السويسيين، أصطففنا بملابسنا المدنيه داخل أرض الطابور، حضر النقيب فؤاد عازر مدرس الرياضيات وقف أمام الطلبة، رأيت ضابط آخر ضخم الجسد برتبه الملازم ثان يقف أمام طابور العمال، رأيت صف الضباط من رقباء وعرفاء والذين كانوا دربونا من قبل على استعمال البندقية «لى انفلد» أنضموا إلى الضباط أمام الصفوف..

أتى من اتجاه المكاتب المقدم «على سلامة» قائد الحرس الوطنى فى السويس وقف الرجل امامنا، رأيت فوق رأسه وسط الصفوف وأعلا الصارى العالى علم مصر بألوانه الثلاثة يخفق مع الريح، خفق قلبى نشوانا مع العلم.. صف الضباط المعلمون استدار كل منهم إلى الصفوف التى خلفه وصاح معطيا الأمر.. عد.. وتوالى العد بين الصفوف.. حد.. أثنين.. ثلاثة..

جمع صف الضباط الأعداد، وجهوا أوامرهم الينا نحن قادة الجماعات بالتأكد من أسماء الحاضرين فى الكشوف، اثبات المتخلف، لم يتخلف أحد من جماعتى.. جمع كل رقيب الأوراق الخاصة بأفراد وحدته، توجهوا واحدا اثر الآخر إلى الملازم ثان يؤدون التحية العسكرية، يسلمونه الكشوفات ويوضحون البيانات، بعد أن انتهوا حمل الملازم ثان الأوراق فى يده اليسار، استدار بقوة مشدود الجسد، تقدم إلى النقيب فؤاد عازر بخطوات عسكرية قوية، وقف أمامه أدى التحية العسكرية بشدة قال بصوت عالى. تمام يا افندم.. الطابور تمام.. رد عليه النقيب تحيته، تناول منه الكشوفات، استدار مشدودا، تقدم ناحية المقدم على سلامة الواقف تحت العلم، أدى التحية العسكرية، أعطاه التمام، رد المقدم التحية العسكرية، أستلم الأوراق.. قال بصوت جهورى هز أركان أرض الطابور.. قوات الحرس الوطنى.. صفا.. توحدت كل الطوابير والقادة فى حركة فتح القدم بقوة ونشاط ووضع الكفين خلف الظهر.. صرخ المقدم.. أحسن.. أحسن رجاله.. شباب السويس.. انتباه.. فى حركة موحدة قوية لها صوت شق الهواء كعبور حد السيف عادت أرض الطابور إلى وضع الانتباه.. قال المقدم راضيا.. أحسن كتير يا رجال.. زعق فى صوت كالرعد.. يا شباب السويس.. يا أبناء مصر.. أعداء مصر يتحدون.. المعتدون يتآمرون.. هل أنتم مستعدون؟.. ... اسألكم.. هل انتم مستعدون؟..

أجاب مئات الشباب فى أرض الطابور بصوت كهزيم الرعد.. مستعدون يا افندم.. شد المقدم من جسده، قال.. غدا.. فجر غد ان شاء الله.. نبدأ تدريباتنا.. المتغيب يعتبر هارب من خدمة الوطن.. نحن جادون.. عليكم الألتزام.. أقول لكم.. التدريب غدا ليس مثل سابقه.. لا بنادق «لى انفلد» ولا بنادق «مورس».. سوف نتدرب على سلاح جديد.. تكتيك جديد.. طريقة جديدة.. سنتدرب على البنادق الروسى الآلى والتشكيى النصف آلى، سنتدرب على قنابل الدفاع والقنابل الهجوميه.. سندرس مدفع البازوكا ومدفع الجرينوف.. سنتدرب على قنابل الدفاع والقنابل الهجومية.. سندرس مدفع البازوكا ومدفع الجرينوف.. سنتدرب على قنابل الدفاع والقنابل الهجومية.. سندرس مدفع البازوكا ومدفع الجرينوف.. سنتدرب عمليا على حرب المدن والقتال من بيت إلى بيت.. سوف نتدرب على كل هذا وأكثر.. هذه فرصتنا للدفاع عن بلدنا.. هل أنتم مستعدون؟ جاء الصوت قويا مؤكدا كما

أراد.. مستعدون يا افندم.. زعق المقدم فى حماس.. شباب السويس.. صفا.. رجال الحرس الوطنى.. انتباه..، استدار المقدم على سلامة للخلف فى دوره عسكرية قوية.. تقدم بخطوات منتظمه معتدله، وقف أمام الصفوف المتراصة تحت علم مصر الخفاق، رفع يده اليمنى بالتحية العسكرية، هتف.. تحيا مصر.. جاء صوت الشباب فى الطابور كهزيم الرعد يهز سماء المدينة التى رصعتها النجوم.. تحيا مصر..

١٤ من اكتوبر ١٩٥٦

عشرة أيام كاملة قضيناها فى تدريب جاد وشاق، أنهم جادون هذه المرة فى تدريباتهم، دعموا طقم التدريب بضباط صف جدد مؤهلين.. سلموا كل واحد منا بندقية روسى آليه، وكل جماعة رشاش خفيف وكل ثلاثة جماعات مدفع بازوكا ومدفع جرينوف، تعلمنا فك وتركيب وتنظيف السلاح، استعمال السلاح، مكونات القنبلة اليدوية وأنواعها وكيفية أستعمالها فى حالتى الدفاع والهجوم.. تم التدريب على الكمائن والأغارات والأشتباكات حول الجدران وفوقها وخلفها، استعمال السونكى والسلاح الابيض فى القتال المتلاحم، شرحوا لنا بعمق، نفذوا أمامنا، فى اليوم الثانى عشر حملتنا سيارات نقل الجنود، عبرت بنا عند الفجر معدية الجناين إلى الشط بسيناء، نفذنا هناك على أرض البيانات والتدريب بيان عملى لضرب النار والاقتحام على جميع مستوياته..

حدث بعد أنتهاء البيان وتجمعنا فى طابور التمام، أخطر النقيب فؤاد عازر المقدم على سلامة أن هناك بعض القنابل الدفاعية «ستة وثلاثون ملز» الأنجليزية لم تنفجر.. وعلمنا أنه من المستحيل تركها ورائنا دون تفجيرها، أتخذ المقدم قرارا بتفجيرها فورا بأصبع الجلجنايت، أصر على أن يقوم بذلك وحده.. حاول النقيب فؤاد عازر والضباط وصف الضباط أن يثنوه عن قراره وأن يقوم بالتفجير واحدا منهم، كل منهم تطوع للقيام بمهمة التفجير، وضع فريد مبهر لم أره فى حياتى إلا بين سطور الكتب، هؤلاء شباب يتنازعون المخاطر، كل منهم يقصد حماية الآخر، لا أنانية ظهرت أو خوف، بل تضحية وشجاعة، رأيتها اليوم مع البيان درسا عمليا..

حمل المقدم على سلامة أصابع الديناميت والمفجرات، ودعه الضباط وصف الضباط

وداخل عيونهم القلق، وقفنا نحن مبهورون، هبط المقدم من أعلى التل الذي تواجدنا عليه إل بطن الوادى حيث كان البيان ووجود القنابل التى لم تنفجر، امرنا النقيب فؤاد بالأنبطاح أرضا وأخذ سواتر كما تعلمنا، أنبطحنا ولكن عيوننا على المقدم الذى توجه ناحية واحدة من القنابل المتمرده، واضحة، كمثريه سوداء لامعه تحت أشعة الشمس، ارتكز الرجل، أخرج اصبعين جلجنايت، رأيناه وهو يضع مفجرا فى كل أصبع منهما، فى حرص شديد أحاط القنبلة المنزوع فتيل أمانها بالأصابع المجهزه، أخرج قداحه من جيب سترته، أشعل الفتيل الموصل للعبوتين، جرى بعيدا إلى ما وراء صخره عاليه، ما كاد يختفى حتى دوى الأنفجار، انحنت رؤسنا، نتوارى، زوبعة من الرمال والشظايا والصخور، ساد السكون، رفعنا رؤسنا.. نظرنا، رأينا حفرة صغيرة مكان الانفجار ولا وجود لأى قنبلة، لم نستطع التماسك، هللنا مصفقون مستحسنون.. زعق النقيب فؤاد.. ثابت.. ثابت.. امنع التهريج.. ثابت..، سكتنا خجلون، خرج المقدم من خلف الصخرة، رأيناه يتقدم إلى قنبلة أخرى، تكررت نفس العملية، انفجرت القنبلة.. عند القنبلة الثالثة لم تشتعل القادحة، هبط النقيب فؤاد إلى المقدم على وناوله علبه كبريت، اشترك معه فى تجهيز الجلجنايت وتفجير القنبلة.. ظل معه انتهيا من تفجير القنبلة الرابعة والأخيرة..

.. آه نسيت حدث هام يجب أن ادونه للذكرى والتاريخ.. كانت معنا فى تأديه البيان لضرب النار مجموعة من فتيات السويس.. حوالى ثلاثين فتاة من مدرسة السويس الثانوية للبنات، كانت على رأسهم المشرفة الإجتماعية للمدرسة كما قالوا، كنت لا أعرف إنها أصبحت تعمل مشرفة إجتماعية فى المدرسة الثانوية، أنا لم اتتبع اخبارها رغم أن أخيها عثمان أصبح من أقرب أصدقائى.. العام الماضى عثمان المعايرجى أهم فرد فى فريق الجودو الذى أنا على رأسه بساحة السويس الشعبية.. لم اسأله عنها ولا أستطيع بالطبع، جميلة هى فى الملابس الكاكيه متحمسة وسط طالباتها، لأول مرة يأسرنى جمال لون عينيها وجدتها مهتمه جدا بالمقدم على سلامة، عندما أنتهى من تفجير القنابل جرت نحوه، سلمت عليه بلهفه.. حمدالله على سلامتك يا افندم.. ربنا ينجيك لمصر يا بطل، عدنا والشمس تحرق كبد السماء، لم أستطع طوال تلك المدة الكتابة، لم اذهب إلى المدرسة طبعا، أمى وجدتى وأبي مستاءون عمى عبد الغفار يقول لهم.. من سيدافع عن مصر؟!.. هل نستأجر

شباب من الخارج ليدافع عنا؟!! يجب أن يتعلم شبابنا القتال للدفاع عنا، أنا شخصيا.. أى عمى عبد الغفار.. سوف اذهب الدفعه القادمة.. المسألة جد يا عالم عندما تحدث عمى عبد الغفار بهذا الكلام القوى، تذكرت حديثه عن الطابية والملك سوس والكنز المرصود، اعتقاده الراسخ بوجود ديك الطابية.. لما كنت أناقشه فى هذا الموضوع وأفند له حججه وأقاويلة حول كنوز الطابية وأقول له.. هذه خزعبلات وخرافات يا عمى.. يحزن لقولى يرد على.. سوف تثبت لك الأيام الحقيقة.. فى يوم أتى والسرور يملأ وجهه.. ثبت لك كلامى يا أبن أخى.. سألته.. أى كلام؟.. قال.. كنوز الطابية.. استفسرت منه.. أى كنوز؟.. تحدث فى زهو.. أنت لست معنا إذا.. ألم تسمع لقد عثروا على بعضها..

عرفت أنهم عثروا فى أطلال الطابية على بعض الأوانى الفخارية وتابوتين من الحجر الصوان فارغين كذا بعض التماثيل المحطمة..

قلت له يا عمى تلك آثار الأقدمين.. ضحك ساخرا منى وهو يقول.. آثار.. أى آثار.. إنها البداية يا ابن أخى.. سوف ترى.. ستثبت لك الأيام.. لاحيلة لى مع عمى عبد الغفار فى هذا الموضوع، هو يؤمن ايمان راسخ بالديك وكنوز الطابية، أظنه ولو أنه لم يصرح بهذا أمامى أنه يحلم بالعثور على ديك الطابية المرصود..

ابنه رخا.. مثل ابيه.. كنا عندما نذهب نحن مجموعة غلمان حارة رشيد أنا وأولاد أم لا لا «العجوز» و«لا لا» وكانوا يسكنون بمنزل أم سنيه المخيف، وعبود ابن احمد رفاعى ومسكنهم فى بيت هانم الكاتعة الملاصق لبيت الحاج صادق أمام بيت جدتى زين فى الحارة، وابن العشرى مصطفى، بيتهم جوار منزل شاهين العالى الذى يطاول بيت الحاج صادق فى الارتفاع، حسين وحلمى الذين يربيهما أخوهما محمد حجازى وزوجته عائشة ويستأجرون غرفتين فى الدور الأرضى ببيت جدتى، ورخا ابن عمى عبد الغفار، انضم الينا أخيرا اسكندر اليونانى القاطن فى منزل «مانولى» زوج «خريستينا» التى هى أخت اسكندر.. نجتمع صحبة ونتوجه إلى الطابية مخترقين السكة الحديد متجنبين زقاق الفجالة يكون عبود رحمة الله ابن أحمد رفاعى قد رتب لنا مع مجموعة من حارة أخرى للقاء على سفح الطابية والحرب، كانت أداة القتال بيننا وبين الحوارى الأخرى خطيرة ومزعجة.. السلاح هو الحجارة، طبعا داخل الحوارى الضيقة لن يسمح لنا أحد بتبادل قذفها، كما

إنها لا تتوفر بكثرة داخل الحارة مثل توفرها فوق اطلال الطابية وفى السكة الحديد، تمتاز الطابية ايضا بكثرة السواتر من الجدران القديمة على سفوحها الممتدة، والحفر المنتشرة التى كنا نلوذ بها ونختبئ فيها..

يبدأ القتال عادة بالقاء الفريقان على بعضهما الحجارة والحصى بطريقة مكثفة ومن مسافات بعيدة، ثم محاولة الاقتراب من بعضهما مستغلين فى ذلك الجدران والحفر كسواتر، تزداد كثافة الحجارة والحصى المقذوفة..

تظهر تباشير الانتصار والهزيمة بتمكن فريق من إخراج الآخر خارج السواتر من الجدران والحفر والعمل على طرد المهزوم خارج منحدرات الطابية تحت وابل من الحجارة المقذوفة فيولى هذا الأخير الأدبار..

كنا لا ندرك مدى خطورة تلك اللعبة القاتلة.. إلى أن اخذنا الحماس فى موقعه من المواقع فتابعنا فريق حارة الفرن إلى عقر داره، هاج الناس، أتت الشرطة، لذنا نحن بالفرار، كلما اقتربنا بعد ذلك إلى ناحية السكة الحديد أو الطابية وجدنا العساكر من الشرطة تحوم بالمنطقة متفحصين حاملين فى أيديهم خيرزانات غليظة، نتفرق نحن إلى مجموعات من اثنين أو ثلاثة، نمر بين العساكر ونحن نتحدث ونتضاحك متظاهرين بالبراءة.. لم نستطع بعدها أن نلعب لعبة الحرب الغبية، المهم أننا كنا كلما ذهبنا إلى الطابية لنخوض تلك المعارك، فى أشد حالات الكرب اثناء القتال يتمنى رخا ابن عمى وهو يتحدث من بين اسنانه.. آه لو يظهر ديك الطابية الآن.. أو يسقط واحد منا فى جب الكنوز.. كنت أفيق على حديثه هذا مغتاظا.. بعد أن نعود إلى البيت اسألة.. ما علاقة ديك وكنوز الطابية بما كنا فيه يا رخا؟.. يجيب فى حماس.. أكيد فى الكنوز خاتم سليمان.. ساعتها آخذه وأدعكه واطلب من خادمه ضرب أولاد الكلب وكفى الله المؤمنين شر القتال.. أقول له أنا.. يا غبى ماحك جسدك مثل ظفرك...

٢٢ اكتوبر ١٩٥٦

صباح اليوم وقف المُكن بشعره المنكوش ولحيته المهوله وجلبابه الممزق أمام مقهى شاهين يخبط فى الأولاد المحيطين به... الشمس مزهزهه تضحك عليكم.. احترسوا يا

غنك.. احترسوا يا غنم.. جهزوا قرونكم.. التتار قادمون..

يضحك الأولاد، يلتفت إليه المعم عبد الحميد شاهين وهو يدخل المقهى.. غنم؟.. غنم فى عينك يا ابن المجنون.. يشير المكن إلى المعلم عبد الحميد.. أنا ابن مجنون؟.. أنا ابن المجنون صحيح.. أنت ابن من؟.. وجهك أحمر مثل طربوشك، عيناك زرقاوتان.. أنت جدك انجليزى.. جاء مع التتار يا معلم.. هاها.. هاها.. جدك مع التتار.. جهزوا القرون ياغنم.. يرجع المعلم عبد الحميد من مدخل المقهى، يقترب من المُكن، يصفعه فوق قفاه.. أنا انجليزى يا ولد.. امشى من هنا.. روح.. وجع فى بطنك يجرى المكن والأولاد وراوءه، يقذفونه بالحجارة وهو يصرخ.. اشحذوا القرون يا أولاد الأبالسه، جهزوا القرون..

الناس تضرب كفا بكف، جميعنا نتساءل.. من أين أتى هذا المُكن؟.. من الذى أسماه المكن؟.. سمعت أنهم وجدوه فجأة يقف على هيئته تلك أمام مقهى شاهين قبل حرب ثمانية وأربعين بأيام قليلة، يصرخ فى الناس وهو يمزق جلبابه المتسخ البالى حتى ظهر لحمة القذر الداكن، يصرخ وكأنه يعوى.. احذروا.. احذروا يا غنم الطوفان قادم، التتار على الأبواب.. احذروا يا غنم..

أول الأمر ظنوه مجنون فلم يعيروه التفاتنا.. وتداخلت الجمل التى يصرخ بها فإذا هى تزخر بالحكم والأمثال، جميعها تدعو إلى التشاؤم والهزيمة، انكب عليه الناس يصفعونه ويضربونه، لما جرى منهم إلى الحوارى تتبعه الأطفال يقذفونه بالطوب..

أعتبر المُكن لفترة طويلة معتوها، لاحظ الناس قبل أى أزمة تصيب البلد أنه يظهر فى مكانه هذا، يحذر الناس الطوفان والتتار.. تعود الناس أن يصفعوه ويركلوه، تعود الأولاد مطاردته فى الحوارى حتى يختفى بين أطلال الطابية..

تعجب الناس من مواعيد ظهوره المختارة، اختفاؤه، مقدرته المذهله على سبق الحوادث، حسبوه مقدمة من احداث مصر يبشر بها فى هذيانه الغامض أمام مقهى شاهين..

انقسم أهل الحى فى الرأى حول المُكن، منهم من حسبه مشعوذ هائم، آخرون ظنوه مشعوذا مباركا، ذهب بعضهم إلى أنه ولى، قال المتطرفون فى رأيهم ما هو إلا جاسوس متنكر.. بل إنهم اقسموا خلال أحدى نوبات اختفائه بأن الحكومة احتجزته وتحقق معه، كانت الحكرمة فعلا قد قبضت عليه، ولكن عن طريق الخطأ، ظنوه فدائى أو متعاون مع

الفدائيين، عندما وقف فى مكانه الأثير أمام مقهى شاهين، كان ذلك فى شهر يناير اليوم التالى مباشرة لحريق القاهرة المروع.. يلطم خديه ويهيل التراب على رأسه، يمزق جلبابه المهلهل، يصرخ والدموع تبلل لحيته.. اه يا مصر.. خراب يا مصر.. آه يا مصر.. تسقط الحكومة.. أين أنت يا أبو الفوارس.. انقذنا يا عنترة.. أين أنت يا أبو زيد.. آه يا مصر.. وقف الناس يومها حوله مشدوهين، لم يضربوه ولا ركلوه، حتى الأطفال كفت عن الضحك، أتت سيارة بصندوق مغلق وبينما صريخه وعويله عاليا ذهبوا به..

همس بعض الناس أنه لا جاسوس ولا غيره، ليس أكثر من راهب مثقف ثقافة عالية هرب من الدير الذى كان فيه لأسباب لا يعلمها إلا الله.. ذهب آخرون إلى أنه عالم مسلم، شديد الأيمان، ذهب عقله من كثرة التساؤل والتدخل فى المحظورات، سمعت عمى عبد الغفار يقول ويؤكد أن المُكن حبر من أحبار اليهود يتخفى ويحاول بلبله الناس لأنه مبعوث ابليس اللعين والعياذ بالله، ساعتها قلت لعمى عبد الغفار وأنا أتحداه.. ياعماه هذا لاحبر ولا يحزنون، المكن ما هو إلا ديك الطابية.. هاها.. ألا تلاحظ يا عمى أنه يظهر فجأة ويظل يصيح فى الناس، وعندما يختفى يدخل أطلال الطابية..

سكت عمى عبد الغفار وأخذ يفكر بجدية حتى ظننت أن الفكرة أعجبته.. ظهر المُكن مرة أخرى فجأة فى يوليو عام اثنين وخمسين، وقف فى مكانه المعهود أمام المقهى ساكتا مدة طويلة، تجمع الناس حوله يسألونه.. أين كنت يا مُكن؟.. كيف حال ابن جوريون؟.. لا .. إنه ذهب إلى الدير..

المُكن لا يرد، ظل مطرقا إلى الأرض والناس تتضاحك حوله، رفع رأسه، نظر فى الناس نظره عميقة، خفتت أصوات الناس تدريجيا.. زعق هو حتى أرعبهم.. المدد آتى يا غنم.. المدد آتى يا غنم.. كل ليل له نهار، كل شئ لزوال، المدد آتى يا غنم.. الصبر مفتاح الفرج..

دفع الناس المشدوهين حوله.. جرى بكل قوته إلى الحوارى والأولاد خلفه.. بعد ظهور المُكن بأيام قليلة وقد نسى الناس أمره.. أستيقظنا صباح الثالث والعشرين من يوليو ونحن نتداول الحديث همسا حول أحداث لايصدقها عقل، لا تدخل فى منطق الحوارى أو حتى الحى الذى نقطنه.. قالوا أن الجيش تحرك..

كانت أول مرة فى حياتى أسمع مثل هذا الحديث، أول الأمر لم أستوعب المعنى.. عند

العصر فتح المعلم عبد الحميد شاهين مذياع المقهى بعد أن أوصله بمكبر للصوت.. سمعت أول بيان للثوار تعاد اذاعته.. انطلقت بعده أم كلثوم تشدو.. نصره قوية ونصره..

الناس كانت تسعى تجلس على المقاهى، فى البيوت، فى الحانات، فى المطاعم، داخل المساجد، داخل الكنائس، تأكل، تشرب، تنام، تستيقظ، تحب، تتناسل، تموت.. تدفن موتاها.. لا حديث لهم إلا ما جرى.. فتيه آمنوا بربهم فزادهم هدى وقاموا لانقاذ الشعب.. الشعب.. الناس.. أبى وأمى، جدتى وعمى وابنة عمى وابن عمى واخوتى وجيرانى..

شمسا قوية بزغت، نورها ساطع يبهر العيون.. حتى أننا لم ندر الطريق.. اليوم السادس والعشرون من يوليو.. نفس الشهر ونفس العام، كنت أجلس أنا وجارنا محمد الشامى، ودنيال ترزى القمصان، وابن خاله أبى رفاعى طرزان أمام صالون الحلاقة الذى يمتلكه أبى فى الدور الأرضى من منزلنا بشارع صدقى..

رفاعى شاحب صامت ومحمد الشامى يهون عليه، يقول له.. الحمدلله قدر ولطف.. أنت رجل وطنى مناضل قمت بواجبك، السجن الذى دخلته أيضا نوع من الكفاح، الكفاح الشريف.. أنت لم تدخل السجن والعياذ بالله سارق أو قاتل.. أنت دخلته لأنك شريف مناضل..

رفاعى يطرق برأسه ولا يرد، كنت مشفقا على رفاعى.. فأنا أعرفه وأعرف قصته بحذافيرها.. هو قريبى، يعمل مع أبى فى صالون الحلاقة، مرح بشوش، يعتز بوسامته وقوته، شديد الشبه بالممثل الذى يمثل دور طرزان فى السينما، ملامحة قريبة من وجهه، طوله وعرضه وعضلاته تكاد أن تكون أفضل من ممثل طرزان نفسه، انتبه الناس لهذا الشبه الكبير، عرف هو ذلك فى نفسه ربما لأنه حلاق كثير النظر فى المرآة..

قرر رفاعى اطلاق شعره مثل طرزان، اطلقه مفرود ناعم، اعتنى به عناية كبيرة، أصبح فعلا طرزان، يمشى فى حى الأربعين بمدينة السويس..

الغريب فى الأمر أنه بوسامته تلك حاول التأثير على ابنة عمى مريم والتقرب اليها..

مريم مريضة، شاحبة عجفاء، لسبب لم نعرفه صدته، تطور الهيام به إلى أن يستعين بأمه والتى هى شقيقة جدتى زين للضغط على مريم حتى تتزوجه..

رفضت مريم بعناد غريب وغير مفهوم.. رأت جدتى زين أن هذه فرصة عمر مريم..

قالت لها.. لن تجدى ابدا فى حياتك مجنون اخر يطلب منك الزواج فأنت كما ترين وتعرفين..

قست عليها جدتى فى القول حتى تجبرها على زواج رفاعى.. المفاجأة أن مريم هددت جدتها أنهم لو أصروا على هذا الأمر وزاد ضغطهم عليها لن تتأخر عن حرق نفسها تخلصا من تلك الحياة المرة..

بهت الجميع، توقف الضغط، توقف تقرب رفاعى إلى مريم، تأثرت نفسه تأثر مهين، بات يسأل كل من يقابله حتى يوضح له سبب رفض مريم له؟- ولا مجيب..

إنتكست روح رفاعى المرحه، تكوم على نفسه، انكب على عمله حزينا.. فى يوم من الأيام ورفاعى يحلق شعر زبون، ضايقه صياح الأولاد، لغطهم وهم يلعبون أمام صالون الحلاقة، خرج ينهرهم.. امشى يا ولد أنت وهو.. اذهبوا العبوا فى مكان آخر.. ليس هنا ملعب.. الأولاد اشقياء.. شتمه احدهم.. صفعه رفاعى صفعه قوية على وجهه، جرى الأولاد خائفون، عاد رفاعى إلى الزبون حتى انتهى من حلاقة شعره، صبن له ذقنه بالصابون، اخرج سلاح الحلاقة، فتحة، أخذ فى شحذه فوق القايش الجلد المعلق أمام كرسى الحلاقة، يستعد حتى يحلق ذقن الزبون.. تلك اللحظة، هرول الغلام المضروب يطلب أهله فى حارة جامع جليدان، لسؤ حظ رفاعى أهل الصبى من صعايده أقصى الجنوب، متجمعون عصبه تستحوذ أسرها على أكثر من ثلاث أرباع الحارة، شاهدوا ابنهم المضروب يولول.. ضربنى طرزان على وجهى يابوى.. عز عليهم ابنهم، يعرفون طرزان وقوته، تجمعوا أكثر من عشر رجال، حملوا عصيهم واتجه موكبهم إلى صالون الحلاقة حيث يعمل رفاعى..

لمحهم رفاعى وهو يحلق ذقن الزبون وهم قادمين من ناحية الحارة قاصدين صالون الحلاقة، فى وسطهم الولد يبكى.. فهم رفاعى كل شئ.. ارتجفت ركبته، تخيلهم وهم يحطمون الصالون بعصيهم ثم يحطمون عظامه، اقتربوا.. خرج لهم ليحاول التفاهم معهم والأعتذار لهم، الزبون لاحظ الأمر ذهب خلفه يحاول ارجاعه دون أن يعرف نيته، دفعه رفاعى بقوة بعيدا عن طريقه، اتجه ناحية المظاهرة المتجمعه أمام باب الصالون فلا مخرج له غير هذا، هكذا ظن، لم ير أمامه إلا عديد من العمم والشوارب الكثيفة، رفع يده اليمين يبدأ الحديث معهم.. قرر أن يترجاهم ثم يعتذر، لو أضطره الأمر فسوف يقبل رأس

الغلام.. بل قدمه ان لزم.. قبل أن ينطق رآهم متراجعين مذعورين، متخبطين فى بعضهم البعض.. تقدم خطوه أخرى ليتقرب منهم حتى يسمعوه بعد أن ابتعدوا عنه فى تراجعهم.. اندهش عندما وجدهم متراجعين أكثر وهم يتدافعون بالمناكب، الهمه الله فى تلك اللحظة السبب فى تراجعهم، لمح الموسى التى كان يحلق بها للزبون مشرعه مفتوحة فى يده التى يشير بها اليهم.. ثم أنهم ظنوه سيهاجمهم بها خاصة حين دفع الزبون بعيدا عنه بقوة وعنف لما أراد أن يثنيه عن الخروج لهم.. إذا الموضوع هكذا!! فليغير من أسلوب التعامل ونغمته.. زعق بصوت جهورى.. اسمعوا.. إذا كنتم صعايده فأنا طرزان.. مفهوم.. قبل أن ترفعوا عصيكم اعرفوا السبب. ابنكم شتمنى.. نعل أبى.. أنا اعتبرته أبنى.. وأبنى لازم اعمله الأدب.. إذا لزم لأجل تعليم ابنى الأدب ضرورة ذبح اثنين أو ثلاثة فلا مانع عندى.. رد كبيرهم.. يابوى عداك العيب، نحن أهل يا معلم طرزان.. لكن المرة القادمة قل لنا ونحن نعدمه العافية.. حصل خير يا معلم طرزان.. هيا يا ولد أنت وهو.. السلام عليكم.. لم يصدق طرزان أنه نجى بجلده من المذبحة التى توقعها..

أتذكر كل هذا ورفاعى أمامى يواسيه محمد الشامى ويطيب خاطره عن مده الثمان عشر شهرا التى قضاها فى المعتقل.. لماذا اعتقلوه؟.. لأنه فى عام خمسين قرر أن يكون فدائيا مناضلا.. يأخذ بيديه حق بلاده من المستعمر الغاصب، انضم إلى صفوف المقاومة، لم يسجنه الأنجليز، سجنه المصريون الذين كان يناضل من أجلهم، أراد أن يثأر لدم صديقه الكونستابل برعى فذهب وراء الشمس مع من ذهبوا، لم يعد إلا بعد قيام الثوة، بيوم، يجلس بيننا متحير، صامت لا يتكلم..

محمد الشامى يتوقف عن الحديث، يتصنت، مكبر الصوت الموصل للمذياع ينطلق فى مقهى شاهين، كنا مذهولون.. ماتمنيناه، لم نكن نتوقعه بتلك السرعة، قد وقع جلالته على وثيقه التنازل لولى عهده...

أمواج من الذكريات، الأفكار، أحاسيس شتى يغطى هديرها داخل النفس على ماتسمع الأن.. إنها حقيقة إذا؟.. غادر اليخت المحروسة وعلى ظهره جلالة فاروق الأول ملك مصر والسودان مرسى قصر رأس التين بالأسكندرية ودون رجعه...

انتفض رفاعى واقفا وسطنا، تهلل وجهه، سمعنا صوته الذى لم نسمعه منذ ذهبوا به،

سمعناه يهتف.. أهلا بمصر.. الله أكبر. تحيا مصر .. تحيا مصر..

أول نوفمبر ١٩٥٦

حدثت أمور جسيمه.. فى اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر الماضى ذهبت إلى منزل زميلى عبد الرحيم بالبر الثانى، الوقت بعد العصر والسبب مراجعة بعض الدروس فى الرياضيات التى لم أحضرها خلال تدريبات الحرس الوطنى.. حوالى مغرب نفس اليوم حضر ابن خالته اسماعيل منزعجا يتحدث عن قطار قادم من سيناء يمتلئ بمئات الجنود المصريين الجرحى.. أن هناك مئات أخرى من القتلى.. يقول.. اسرائيل تهاجم القوات المصرية منذ صباح اليوم المبكر بشراسة وأنها اخترقت الحدود.. استمع أنا إلى اسماعيل ولا أصدق الأمر، أقول لنفسى ربما كان هجوم محدود مثل هجوم الصابحة أو اشتباك من الأشتباكات، اسرائيل أجبن فى رأى من أن تهاجم قواتنا العظيمة..

بعد صلاة العشاء أتت الأنباء متضاربة، هناك من يقول أننا نؤدبهم.. قواتنا على مشارف تل ابيب، آخرون يؤكدون.. القوات الإسرائيلية وصلت الممرات فى سيناء، قواتنا تدافع فى بساله، تضاربت الأقوال، جميعها اتفقت على أن الحرب بدأت بيننا وبين اسرائيل عندما كنت عائد إلى منزلنا بشارع صدقى رأيت جموع الناس تلتف حول المكن أمام مقهى شاهين المُكن يرفع يديه إلى السماء.. يارب يارب انصرنا على التتار.. يارب اهزمهم.. يارب شتت شملهم.. الناس لاتضرب المُكن، لايضحكون أو يتفاكهون، القلق يكسو كل الوجوه..

فى المنزل حاولت أن أستمع إلى بعض الأخبار من المذياع، حركت المؤشر جاء صوت امريكا يعلن اختراق القوات الاسرائيلية للحدود المصرية.. راديو لندن يبشر بحماس ويتفق مع صوت أمريكا، اذاعة القاهرة لا تعليق إلا أننا نكبد العدو خسائر كبيرة فى الطيران، بتنا جميعا فى هم عظيم..

فى اليوم التانى تأكدت الأخبار، أغلقت المدارس، استدعونا فى الحرس الوطنى، تسلمنا البنادق الآليه، قالوا لنا.. الجيش المصرى الباسل يقوم بواجبه على الحدود على خير ما يرام، كبدنا العدو خسائر فادحه، قواتنا فى طريقها إلى تل أبيب إن شاء الله.. على رجال

المقاومة الترقب وانتظار التعليمات، الأوامر لكل مجموعة التنسيق مع قائدها وعلى قائد المجموعة التنسيق مع قائد القطاع، أعلنت التعبئة العامة وحالة الطوارئ..

مساء أمس تدهورت الأوضاع، جرى ماتوقعناه واستعدينا له، تدخلت بريطانيا وفرنسا بعد أن أنذرتانا، طلبا منا التراجع والتخلى عن أرضنا، إنذار غريب مضحك، لم ينتظرا أى رد بل هاجمانا بطائراتهم، ضربا مواقع حيويه، يضربان قواتنا فى سيناء يبغيان من سيناء فخ ومقبره لجنودنا، لم يقربا إسرائيل أو قواتها، واضح أنها خطة بين الثلاثة.. إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، تحاول طائراتهم ضرب بورسعيد، هناك أخبارا مؤكدة عن اتجاه اساطيل بحرية تحمل جنود انجليز وفرنسيين متجهه إلى الشمال والجنوب، إلى بورسعيد والسويس.. بتنا نغلى، الشباب جميعه يفور.. سننتصر.. سننتصر بإذن الله..

صباح اليوم ونحن متجمعون أمام مقعى شاهين، كنت أحمل بندقيتى الآلية واقف على باب مكتبة سعد فى انتظار الجرائد.. تأكدت لنا الأخبار دون اذاعات أو جرائد، شاهدنا جنود مصريين بملابس الميدان واسلحتهم بين أيديهم قادمين من جهه الهويس، إنزعجنا لأننا رأيناهم يسيرون فرادى، لايعرفون إلى أين يتجهون، تغطى خواذاتهم ووجهوهم الرمال، إختلط عرقهم بذرات الرمال فوق ملابسهم يكونان دوائر وأشكال سرياليه غير محددة المعالم، يرتسم تعبير ملامحهم بالاعياء والحيرة..

دعوناهم متلهفون للجلوس على باب المقهى، تجمع منهم حوالى عشرون جنديا، جميعهم طلبوا الماء ليشربوا..

اسرع المعلم عبد الحميد شاهين إلى محل النعيمى الجزار، رفع فخذه عجل كاملة، طلب من الجزار تقطيعها بسرعة، ناولها إلى خليل صبى المقهى.. إذهب يا ولد إلى المنزل واستعجلهم على طبخ تلك اللحم.. قل لهم يجهزون معها عشر أو عشرين كيلو ارز، بسرعة يا خليل.. الرجال الواضح عليهم لهم مدة تعبانين..

كنا متلهفون على معرفة ما جرى، لم يجروء أحد منا على السؤال.. اراهن إننا جميعا كنا خائفون من صدمة الإجابة.. مشهد الجنود فى ملابسهم المعفرة بالعرق والغبار، وجوههم التى كساها القلق والأعياء، عيونهم المملوءه بالأحزان تنبئ بالكثير..

زعق المُكن فى وجوههم.. ماذا تفعلون هنا يا أولاد الأبالسه؟..

صفعه المعلم عبد الحميد فوق قفاه صفعة قوية، لم يهتز المُكن أو يعير المعلم التفاتا وواصل زعيقه.. العدو هناك على الحدود، ليس هنا فى شارع صدقى.. بحق جاه النبى ماذا تفعلون ببنادقكم هنا؟..

ضربة المعلم مرة أخرى صفعه أشد من الأولى.. رفع واحد من الجنود وجهه ناحية المعلم عبد الحميد.. تحدث فى حزن.. لاتضربه يا عم.. بالله لا تضربه.. معه الحق.. أنا أطمئنه.. نحن لم نهرب يا أخى.. لم نترك مواقعنا باختبارنا.. صدرت إلينا الأوامر.. أوامر عليا بالأنسحاب الفورى..

على وجه السرعة.. نحن سنسلم انفسنا إلى أقرب قسم للشرطة.. سكت الجندى صمت الناس.. لطم المُكن خديه.. جرى ناحية الحوارى وهو يولول، يعوى مثل كلب جريح...

قلبى يدمى رأسى يكاد أن ينفجر، هجم الأنجليز على بورسعيد، هجموا على مؤخره قواتنا المشغولة بالقتال فى سيناء، التاريخ يعيد نفسه، مثل ما فعلوها مع عرابى.. لكن لا.. وألف لا..، سوف تكون أرض مصر مقبره لهم.. التحم الجيش والشعب، ليست تلك أشعار أو أننى أكتب فى مذكرتى انشاء أو خيال، إننى أكتب من قلبى الدامى.. أود أن أغمس قلمى فى شرايينى الفائره وأكتب بمداد دمائى الساخنة ما يجرى فى بلدى الآن.. وددت من كل فؤادى أنا وجميع افراد مجموعتى.. بل كل الشباب فى طابور الحرس الوطنى.. أصررنا والتمسنا أن نتخندق مع شبابنا هناك على أرض مطار الجميل فى بورسعيد.. هدم الأعداء الجبناء حى المناخ بقنابلهم وطائراتهم وآلاتهم الجهنمية الحديثة، ظنوا أنهم ينفثون غيظهم من صحوة أبناء بلدى، حسبوا أن الرجال غائبون فى سيناء، تصوروا أن هناك من هو معهم مثل أيام هدمهم كفر أحمد عبده.. خاب ظنهم. قاومهم الكهول قبل الشباب، النساء قبل الرجال، قاتلوهم عندما هبطوا من طائراتهم فى سماء بورسعيد، وقفوا أمامهم بالنار والحديد لما أنزلوا شياطينهم من بوارجهم وأساطيلهم التى لا آخر لها، اشتبكوا معهم فى الميناء ومن شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت..

كانت حسابات الأوغاد أنهم يستولون على المدينة فى ساعات معدوده أو دقائق.. فوجئوا بأنهم ألقوا بأنفسهم إلى داخل حقل ملغوم.. فى كل دقيقة وكل ثانية تنطلق رصاصات مقاومة الشعب إلى صدور الغزاه الأعداء.. لم يتعلموا من التاريخ، سنعيد عليهم

الدرس الذى لقناة الفرنسيين من قبل فى المنصورة.. وسنلحقهم بأجدادهم مع فريزر فى جهنم رشيد، اننا المصريون وهذه أرضنا.. تلك قناتنا.. وهى أيضا مازالت مقبرة لهؤلاء الغاشمين..

٥ من نوفمبر ١٩٥٦

خرج الناس لايبالون بغارات الطائرات ولا باقتراب الأعداء..

خرج الزعيم وراءه الناس يتحدون الإنجليز والفرنسيين والإسرائيلين.. قالها وقلناها قبلة ومعه من قلوبنا. سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل.. إنها أيام المجد.. أيام المشاعر والأحاسيس الصادقة..

الله معنا، الحق معنا، العالم كله معنا ضد العدوان الغاشم.. الله أكبر.. الله أكبر فوق كيد المعتدى.. يا هذه الدنيا أطلى واشهدى.. دع سمائى فسمائى محرقة.. دع قناتى فقناتى مغرقة..

الكفاح وحد العرب.. داخل النيران تظهر قوة المعادن.. هانحن العرب جميعا صفا واحدا.. أمه من الخليج إلى المحيط، تصرخ فى الأعداء وتضربهم حيثما استطاعت..

تتواتر الأنباء عن ضرب السوريون الأبطال لخطوط بترول تغذى المستعمرين.. أهل الحجاز أنذروا بقطع البترول، تحديات على طول الوطن العربى، مظاهرات تأييد للمقاومة وتنديد بالعدوان..

اشتد التحدى وقويت المجابهه، لم يدرج الأعداء فى حساباتهم تلك القومه، ظنوا بقضائهم على الجيش يحصدون الأنتصار.. فوجئوا بالناس كلها جيشا يقاوم، وراء الزعيم ينصرونه ويتخذونه رمزا، اصبحوا رجل واحد، رجل كرهه الأعداء،

ظهرت بوارج الأعداء فى خليج السويس، حامت طائراته مستطلعه متحيرة.. وأنا منتشى بنشوة المجد والكفاح نشبت بينى أنا من جهه وأمى وأبى فى جهه أخرى مشادة ونزاع باتت أمى تبكى له ليل ونهار..

جدتى مريضة، اخوتى الصغار فزعون، صفارات الخطر تنذر من حين لآخر.. مناخ الحرب يغرق المدينة، والليالى كلها إظلام، توترت أعصاب الجميع وتعطلت المصالح، قررت

أمى أخذ الأولاد والرحيل إلى أحمدية البحر بعيدا حتى تهدأ الأحوال.. ثم توصلوا إلى قرار رحيل الجميع ولاداعى للانتظار داخل بؤره التوتر..

فى الحقيقة عارضهم عمى عبد الغفار معارضة شديدة، قرر أنه لن يترك السويس لا هو ولا أى فرد من أولاده حتى لو ردموها فوق رءوسهم..

قلت لأمى فى صراحة.. لن أخرج من هنا إلا جثة هامده.. هل تنتظرون منى أن اعرض نفسى لمحاكمة عسكرية؟.. هل ترضون أن يسجلونى هاربا من ميدان الشرف؟.. لماذا تدربت وحملت السلاح؟.. أننى فى انتظار الدفاع عن تراب بلدى.. تأتين الان يا أمى وتريدين حملى معك فارا.. من أى شيء أفر؟.. لماذا لم زفر عندما فتحوا لى مدارسها ليعلمونى؟.. لماذا لم أفر عندما كنت أخرج وأجرى وأتمتع بالشاطئ الجميل ومياه البحر الرائعة؟.. لماذا لم أفر عندما كنت أتنزه على طريق بورتوفيق وأتمتع بيود البحر ونسيمه العليل؟.. لماذا لم أهرب عندما كنت آكل من جناينها وأشرب من مائها؟.. والله لن أتركها ابدا.. لن أهرب، سأظل فيها حتى أدفن تحت ترابها.. حاول أبى أن يرهبنى.. قال لى.. يا ولد أنت تحمل الموضوع أكثر من حقه.. أنت مازلت صغيرا وأمامك الطريق طويل.. سوف تشبع كفاحا عندما يحين دورك.. هيا يا ولد أذهب وسلم البندقية، لا هروب ولا شئ مما تتحدث عنه.. إنفجرت صارخا باكيا.. حتى أنت يا أبى تظننى جبانا.. وطفلا أيضا.. لن أتحدث فى هذا الموضوع طويلا يا أبى.. أننى لن أسافر من هنا، أرجو عذرك لى.. ان لم تعذرنى فأنت تستطيع قتلى ضربا..

لم يرد أبى، وقف أمامى حائرا.. ينظر إلى تاره وناحية أمى الباكية تارة أخرى، تدخلت جدتى زين لتحسم الأمر.. أنتم تعاملون الولد كأنه طفل صغير.. أنه رجل.. أبوه فى مثل سنه تلك كان يطلبك للزواج.. أنه سيظل معى هنا لأننى أنا الأخرى لن أسافر..

قالت أمى.. كيف لاتسافرين؟.. أننا مسافرون من أجلك..

ردت جدتى.. أنتم تسافرون من أجل الأطفال.. أنا لست طفلة..

لا أدرى إلى الآن كيف سافروا وتركونى وهم مجبرين، لأول مرة فى حياتى أمى وأبى يتركانى وحدى.. تأكدت لى رجولتى، أننى تخطيت خط الصغار.. رافقت جدتى لمرضها الشديد عمى عبد الغفار إلى منزلهم فى حارة رشيد..

وجدت نفسى بين يوم وليلة وحيدا داخل شقتنا بالدور الثلاث من منزلنا بجوار مكتبة سعد فى شارع صدقى..

اتخذت من مسكننا مركزا لقيادة المجموعة.. تضم بينها أعز أصدقائى من زملاء الدراسة.. فوزى ومحمود ابن عمه والسيد مبروك، باقى أفراد المجموعة العشر من زملاء آخرين بالمدرسة الثانوية، انتقل اصدقائى الثلاثة للإقامة معى بينما باقى أفراد المجموعة يتناوبون قبل آخر ضوء للنهار اتخاذ مواقعهم طول الليل فى الموقع أمام بيتنا، كنت أستثنى منهم فردين للحراسة نهارا.. التعليمات إلى كل المجموعة عند أى بادره لهجوم العدو التجمع فى الموقع خلف الدشمة من أكياس الرمل المتراصة فوق بعضها البعض على ناصية منزلنا..

صباح اليوم تناقشت أنا وفوزى ومحمود والسيد مبروك حول أننا نحمل البنادق على أكتافنا، لنا مدة طويلة منذ بيان الحرس الوطنى لم نتدرب على اطلاق النار.. قال فوزى.. أنا عندى كمية كبيرة من الطلقات خارج عهدتى نستطيع استعمالها فى التدريب، أضاف السيد مبروك.. أن منزلهم.. هناك خارج البلدة على طريق الجناين ناحية عزبه فاروق، نستطيع أن نتدرب هناك بعيدا عن العمران على شاطئ البحر الموصل إلى القناة خلف حمام بوجيه..

جمعت عدد كبير من الزجاجات الفارغة من فوق سطح منزلنا عبأتهم داخل جوالين.. حملنا بنادقنا والذخيرة والجوالين، هرولنا خلف السيد مبروك على طريق الجناين.. مشينا حوالى الساعة خارج البلده.. لم أكن أعلم بأن مسكن السيد مبروك بعيدا كل تلك المسافة..

عند وصولنا طالعنا منزل كبير أصفر اللون مكون من طابقين، يقف وحيدا بين الحقول المنزرعه بعيدان الذره الخضراء..

لم نر مخلوق فى المكان، عبرنا طريق ضيق على حافة مصرف بين الذرة العاليه، مشينا أكثر من كيلومتر حتى لاحت لنا مياه البحر الزرقاء الممتدة أمام شاطئ رملى اصفر متسع..

لم نتحدث.. أخرجت أنا الزجاجات من داخل الجوالين، شرعت فى ترتيبهم ثلاث مجموعات متباعده.. كل مجموعة ست زجاجات، كانت الزجاجات المرصوصة فى إتجاه

الحقول التى قدمنا من بينها.. حفرت خطأ فوق الرمال بدبشك بندقيتى، اخترت المجوعة التى فى المنتصف من الزجاجات المرصومة، رقدت على بطنى أمامى الخط الذى حفرته فى الرمال، أطلقت ست رصاصات بعد احكام التنشين، اصابت جميعها مرماها، تناثرت ست زجاجات شظايا.. حذا زميلاى حذوى.. اتخذ السيد مبروك وضع ضرب النار أمام المجموعة التى فى اليمين، واجه فوزى المجموعة التى على اليسار، انطلقت قذائفهم مدويه تئز فى الفضاء يتخللها رنين الزجاج الممزق، لحظات انتهت الزجاجات المرصوصة إلى عدم، قمت اخرج الزجاجات المتبقية حتى نعيد الكره.. خيل إلى أننى أسمع نداءات وأصوات، رأيت السيد مبروك يحمل بندقيته ويتقهقر بطء ناحية الحقول خلفنا وهو يلقى بنظرة إلى أقصى اليمين.. تعجبت عندما رأيت فوزى يفعل مثله، عرفت السبب عندما نظرت اتجاه ما ينظرون، شاهدت من بعيد على خط الأفق رجالا بخوذات.. كانوا يشيرون ناحيتنا، يصيحون علينا، أشكالهم غير محدده وأصواتهم مبهمه لبعد المسافة بيننا وبينهم.. الواضح كل الوضوح أن هناك خطأ ما.. نهضت بدورى على مهل، مشيت بهدوء وأنا أحمل بندقيتى أتتبع خطوات فوزى والسيد مبروك، نمشى كأننا نتنزه، لمحت بطرف عينى الرجال يعدون باقصى سرعتهم فى اتجاهنا، تأكدت أنهم يحملون بنادق بين أيديهم وضح أنهم جنود، وصلنا نحن مدخل حقول الذرة، أطلقنا أرجلنا للريح على قدر ماوهبنا الله من القوة، لا أدرى كيف ومتى وصلنا إلى المنزل الوحيد بين الحقول، أشار لنا السيد مبروك لدخول المبنى.. دخلنا وقد تقطعت منا الأنفاس.. يغطينا العرق ويلفنا الخوف..

نساء المنزل ينظرون إلينا فى دهشة وتساؤل.. تكلم السيد مبروك يطمئنهم.. لاشئ.. لاشئ.. قادنا إلى غرفته مباشرة، خرج ليوضح الأمر.. بعد حين عاد الينا، اخبرنا أن المنطقة جميعها محاطة بالجيش ورجال الأمن، اطلاق النار المتواصل من جهه القناة هز المدينة، ظنوا أن العدو يتسلل من هنا واشتبك مع الأهالى أو واحدة من دوريات المقاومة، أعلن بدأ غزو العدو للمدينة، تجمع قادة الحرس الوطنى والمقاومة مع قيادة الجيش، أرسلوا يستطلعون الأمر تمهيدا لا بلاغ القيادة العليا فى القاهرة.. ارتجفنا.. شعرت بمدى خطأى وتهورى، خجلت من نفسى..

أمعنا فى الخطأ حماية لأنفسنا من العقاب، اقترح السيد مبروك علينا التبول داخل

ماسورة البندقية حتى نزيل رائحة البارود العالق بها، نفذنا اقتراحه، فعلا تغلبنا على تلك المشكلة..

إنهمكنا نفكر كيف لنا العودة وقد سدت المنافذ بالقوات للتفتيش والمراقبة، أقترح فوزى أن نترك بنادقنا فى منزل السيد مبروك ونعود لأخذها غدا.. رفضت أنا هذا الأقتراح بشدة.. نهرت فوزى ووجهت إليه اللوم، كيف نترك سلاحنا ونحن فى حالة الحرب تلك؟.. أفهمته أننا أخطأنا والواجب علينا تحمل نتيجة خطئنا لا التمادى فيه، اقسمت له أننى لولا خوفى من حرمانى الاشتراك فى المعركة وسحب سلاحى منى لسلمت نفسى اليهم وشرحت لهم الأمر.. هذا ضميرى صادقا وماكنت أفكر فيه..

انفرجت أزمتنا عندما حضر والد السيد مبروك بسيارة حرس الحدود للغذاء والعودة بعدها إلى مقر عمله فى الخور بالسلمانيه.. ساعتها عرفت أن أبو السيد مبروك رقيبا بحرس الحدود..

غمرتنا السعادة لما عدنا فى تلك السيارة التى أرسلها لنا الله لتنقذنا معززين مكرمين بعد أن تغذينا سمك خرمان مقلى وأرز أحمر فى المنزل بين الحقول على شاطىء البحر..

أنزلتنا السيارة فى أمان معنا بنادقنا أمام الدشمه من أكياس الرمل على ناصية منزلنا فى شارع صدقى..

٢٩ من نوفمبر ١٩٥٦

مرت الأيام، توالت الأحداث، كنا ننتظر العدو داخل مواقعنا فى المدينة.. العدو لم يظهر، العالم كله وقف معنا، أدار الزعيم المعركة، انقلبت هزيمة الجيش والانسحاب المتعمد من سيناء إلى فخ لليهود والمستعمرين.. خسرنا كثيرا من الأسلحة والمعدات، دفعت أعداد من الشهداء دمائهم، صمد كل الأحياء الشرفاء، أثبتنا للعالم أننا أصحاب حق، أننا ندافع بالدم وبأغلى مانملكه عن حقنا وأرضنا.. لن نتراجع أبدا..

فسرت أنا مانحن فيه بأنها أيام المجد.. تحقيق الحلم.. حلمنا بأخذ ثأر عرابى وجنوده، وثأر شهداء العام التاسع عشر من القرن، بل وشهداء دنشواى الحمراء وأم صابر وكل شهيد سقط مضرجا فوق أرض الوادى.. صمودنا وحنكه زعيمنا السياسية هزمنا أقوى

أمبراطوريتين فى العالم.. سقط الأنجليز.. قال عنهم زعيمنا.. لقد غربت الشمس عن امبراطوريتهم والتى كانت لا تغيب عنها..

الفرنسيون اندحروا، الاسرائيليون فشلت اهدافهم بعد أن سقط اسيادهم.. ليست تلك أخبار جرائد أو دعاوى ندعيها.. أنه تاريخ وواقع.. انحصر فعلا المستعمرون وانتهوا، وهاهم يحملون فشلهم ويرحلون دون رجعه وإلى الأبد أن شاء الله..

هجموا على بورسعيد يبغون احتلال مصر.. توغلوا داخل سيناء يحملون، النتيجة كما أرى ويرى العالم معى.. هم سقطوا، نحن أبناء مصر نرفع راياتنا خفاقه نتقدم خلف زعيمنا لاستكمال تحرير أرض العرب جميعها.. نحن على طريق الوحدة.. الأمة العربية الواحدة.. طريق المجد.. اتخذت قرارا حاسما فى حياتى اليوم.. لن أتخلى عن الملابس الكاكية، ليس حبا فى لونها.. بل حبا فى ما ترمز إليه.. رمزا لرجال وأيام احببتها، أيام الثورة.. أيام النضال.. أيام المجد.. سوف ارتديها دوما وطوال عمرى.. بأى ثمن وبكل الوسائل سوف احتفظ بملابس الفرسان..

يجب أن أكمل المشوار وأكون ضابطا.. كيف؟.. لا أدرى.. سأحاول أن اطرح عن خاطرى فكرة الفوارق الطبقية، ان أبى وجدى حلاقان، أى من أعظم الرجال، عاش ويعيش شريفا، يربينا أحسن التربية..

لن أنسى أبدا كلمات ضابط مجلس قيادة الثورة صلاح سالم وهو يمر للتفتيش المفاجئ على مجموعتى القتالية فى دشمتها من الأكياس الرمليه بناصية منزلنا فى شارع صدقى.. صلاح سالم هو قائد قطاع السويس فى تلك الحرب.. أنا قائد مجموعة القتال لوحدة مقاومة.. دار بيننا الحوار والسؤال والجواب، رأيت وجهه المتجهم المتألم خلف نظارته السميكة السوداء تنفرد تقاسيمه، تظهر أسنانه وهو يبتسم فى وجهى قال لى.. مصر بخير إلى الأبد ما دام أمثالك بقلوبهم العامرة بخير، أنك المستقبل الذى يحمل الأمانة ويتقدم الصفوف..

لا أنسى حديثه يومها، كما أننى لم أره مبتسما أبدا إلا هذه المرة الوحيدة..

-٧-

انتهى العرض العسكرى للقوات العائدة من ميدان القتال، وقفت المعدات، انتصب الجنود تحت وهج الشمس، اعتلى محافظ المدينة الميكرفون فوق المنصه، صوته مجلجل يبرر سقوط الشهداء، يوضح أن مصر جميعها درع يحمى العروبة ووحدتها من المحيط إلى الخليج..

الملازم أول احتياط رخا بملابس الميدان خوذته فوق رأسه يتسلل خلف الناس الواقفة تحت هجير الشمس تخفف من حرارتها الرياح القادمة من ناحية البحر..

كل همه الأطمئنان على المعدات التى فى مسئوليته، يحصيها يشير بيده إلى ركابها، يهزون رءوسهم باشارة الأطمئنان..

بعدأن اطمأن على واحدة من السيارات المدرعه «ستة فى ستة» وقف مكانه لا يتحرك.. رأى بين جموع الناس المتلاصقة والمتزاحمة حول العرض جميل يقف بين أبيه عبد الغفار وصديقهما عيسى النجار، لم يطرأ على باله قبل تلك اللحظة أنه لم يتصل بأهله منذ وصوله، مرت ثلاث ليالى وأربع أيام وهو يتناسى الإتصال بهم، يهرب.. يود حتى الهروب من نفسه، من حياته.. يعرف أن لايد له فى الأمر، إنها حياتهم، هذا قدرهم.. لكنه لا يجروء على مقابلتهم.. يؤجل ساعة اللقاء..

الذى ليس غريبا فى الأمر هو لهفته وشوقه اليهم، حنينه إلى أمه وأبوه وجدته واخوته وإلى أهل منزلهم حتى إلى عمه وامرأة عمه الطيبة نبيلة، يتشوق إلى جلسته الأثيرة أمام مقهى شاهين يلعب النرد مع نيسان ابن عيسى النجار أو مع ابن عمه سيف،.. رمشت جفون رخا عندما تذكر سيف، دق قلبه.. من أين يأتى بسيف الآن؟.. لما كان يداعب سيف الهادئ العاقل يتعمد أن يلعن المُكن.. أو يصفعه فوق قفاه.. سيف يتضايق من ذلك الأمر، يثور يتصدى مدافعا عن المُكن، مانعا إيذائه.. أين للمُكن بسيف الآن؟.. سيف لن يعود، لن يلعب معه النرد بعد ذلك، المُكن لن يجد من يدافع عنه ويحميه، سوف تستمر صفعات

المعتدون فوق قفاه..

ثلاثة ليال وأربع أيام موجودا على أرض مدينته، قريبا من منزلهم فى حارة رشيد، بينه والوصول إليهم ليس أكثر من عشر دقائق، هو يتهرب ويتناسى، إنها قسوة، جبن،.. أبوه يقف بين الجموع كأنه يبحث عنه، عمه يستند على من حوله تتلفت رأسه يود أن ينادى سيف.. ماذا سيقول لهم؟.. خائفا من مواجهتهم؟.. ألا يستطيع الإستئذان دقائق؟.. أم يقول لم استطع العودة دون سيف؟..

عندما كافا يتأخران، أو يتغيبان دون اذن كان سيف هو المتقدم وهو المتكلم، يسوق الحجة وراء الحجة، هو يتوارى خلفه، هم لايلتفتون إلا إلى سيف.. إن اقتنعوا بدفاعه وحججه عفوا عنهما، أن لم يقتنعوا ضربوا سيف وعاقبوه، اليوم رخا وحده، لم يعد سيف معه، لايتقدمه لا يلقى حججه وأقواله، أول مرة يعود بعد غياب وسيف لايتقدمه ولا يقدم دفاعه.. ليس له دخل فيما جرى، سيف أصر على أن يكون ضابط فى جيش مصر.. أمه أكثر منه تصميما، جميل أبو سيف أشد منهما حماسا حتى يرى ابنه يرتدى الزى الكاكى ترصع أكتافه النجوم.. حلم امتلك عليهم حياتهم.. بذلوا كل عمرهم وجهدهم ليحققوه، يعرفون جيدا أن الضابط فى جيش مصر اليوم ليس رداء زاهى وأزرار نحاسية لامعه ونجوم تزين الكتف..

يعلمون جيدا، بل رأوا وشاهدوا تلك البزات وهذه الأزرار والنجوم وهى تستحم بالدماء الزكيه، يعرفون قدر من يسلك هذا الطريق لابد أن يدفع ضريبة من دمائه وفى أغلب الأحيان كل حياته ثمنا.. ويعلمون أكثر أن هذا هو الطريق الوحيد للتحدى فى تلك الأيام.. أيام النضال..

لا ينسى أبدا حزن سيف العارم لما تقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية ولم يوفق.. كان سيف قد اجتاز كل الاختبارات بنجاح وتفوق، حتى كشف الهيئة أذهل فيه الممتحنون بشخصيته وحديثه المتدفق.. يقول سيف أيامها.. أثبت لهم جدارتى، قدمت أوراق تفوقى.. فى الدراسة، فى المجال الرياضى، أنا صاحب حزام فى فن مصارعه الجودو، معى ميداليه فضية فى السباحة لمسافات طويلة، رئيس فريق كرة السلة الحائز على بطولة المناطق لمدارس الجمهورية.. كل هذا تناسوه عندما سألونى ماذا يعمل أبوك؟..

نسفوا امكانياتى واستعداداتى النفسية واحلامى، أيدتهم تحرياتهم، لم يظهر اسمى فى كشف المقبولين ولا حتى فى كشف المرفوضين..

جن جنون نبيلة أيامها.. بكت بكاءا مرا، حزن جميل حزنا شديدا، قال.. لم أكن اعرف أننى من أجل أن آكل لقمة العيش بشرف أقضى على أمال ابنى وأحلامه..

قدم سيف أوراقه إلى كلية العلوم وهو غير راضى، لم تيأس نبيلة، قالت لنفسها سوف أرى مقدار محبة أهل مدينتى لى.. توجهت إلى السيدة أنهار صديقتها العزيزة وأبنة بيت من بيوت السويس العريقة، ذهبت إليها وهى تحمل صورة ابنها المرفوض بقوامه الممشوق وطلعته الجميلة، قالت نبيلة لصديقتها أنهار هانم.. أنت تعرفيننا.. فقراء لكن شرفاء.. أنا أعرفك منذ طفولتك.. حضرت ليلة زفافك.. أنجبت على يدى أولادك الثلاثة، متعهم الله بالصحة والرزق الحلال الوفير.. إنهم أولادى أيضا.. أنا أعرف أن ابن عمك القائد الكبير أدام الله عليه درجات الرقى يحترم رأيك ويعزك ويحمل لك كثيرا من الإكبار، المدينة كلها.. بل مصر جميعها تعرف مكانة ابن عمك.. خذينى إليه فى القاهرة لأشرح له، ربما فرجها الله وتكون المعجزة..

أنهار تحب نبيلة وتعتبرها أختا لها، تحسبها واحدة من الأسرة.. كانت أنهار طيبة القلب حسنة التربية من بيت عز وجاه ونفوذ، لم تتصور أن شاب ممتاز فى قدرات سيف وشكله الذى خلق للحلة العسكرية يرفض لمجرد أنه فقير، أو أن مهنه والده حلاق.. تأثرت نفس أنهار الطيبة وقالت لنبيلة.. لا تحزنى.. أعدك أنى سأبذل كل ما فى وسعى.. اعتبرى نفسك قابلت سيادة اللواء..

إرتاحت نبيلة بعد مقابلتها أنهار.. تعلم فى قرارة نفسها أن الأمر فى حاجة إلى معجزة وليس إلى لواء صاحب نفوذ، لا تتصور حلا لمشكلة ابنها إلا أن يكون نابعا من تغيير مهنه أبيه.. استسلمت للتمنى العقيم والأحلام الميته.. لو كان أبوه حتى موظفا بسيطا فى الحكومة.. كاتب فى ارشيف الصحة مثلا لهان الأمر، أو ربما يمد الله سبحانه وتعالى سيادة اللواء بقوة تجعل فى يده الأمر كله، الأكثر جلبا للإطمئنان أن سيادة اللواء لا يستطيع رد طلب أو رجاء للسيدة أنهار..

باتت نبيلة أم سيف فى هم عظيم، لم تخبر أحد أو حتى ابنها سيف بما سعت إليه..

كانت تقول له لا تحزن يا ابنى.. سوف يفرجها الله من عنده.. أقسم لك أننى رأيت رؤيا ظاهره، رأيتك وأنت ترتدى حلة الضابط، النجوم على الأكتاف، السيف على جنبك، تتيه مزهوا وسط ناس شارع صدقى.. سيف يبتسم لأمه ابتسامة حزينة، يقول لنفسه.. ماذا ستفعل احلامك فى الواقع المر يا أمى!!.. يعلو صوته وهو يقول.. ما عدت أهتم بهذا الأمر يا أمى، خدمة بلدى لها ألف باب.. أنا سأكون مدرس جيد إن شاء الله..

حديث سيف هذا وضح أنه مجرد كلام يعزى به نفسه المتألة عندما استلم ذات صباح خطاب حكومى مسجل بعلم الوصول..

غير مصدقون قرأوا الخطاب، طلب استدعاء للإلتحاق بدفعه إضافية فى الكلية الحربية، المطلوب تحضيره، ساعة التواجد بمبنى الكلية والدعاء بالتوفيق.. نبيلة الوقورة كادت أن ترقص فرحا.. نسى سيف كلية العلوم وماذا كره فيها، نسى فلسفة خدمة بلدى لها الف باب، طرح كل شئ خلف ظهره وأستسلم من أعماقه إلى مدخل تحقيق أحلامه المستحيلة، كان يوم هناء وسرور..

أيام طويلة مرت منذ هذا اليوم القريب فى الذاكرة كأنه الأمس.. يكاد أن يتداخل فى يوم آخر عندما رأى جثه سيف ممدة فوق الأرض..

يعرفون فى وحدته المشاة المقاتلة أنه ابن عم البطل النقيب سيف قائد سريه استطلاع اللواء.. ذات صباح مقبض استدعوه، كلفوه الإنضمام إلى احدى الفصائل المتوجهه داخل مجاهل القبائل بين الجبال الموحشة للعودة بجثة شهيد غدر به، يتذكر رخا جيدا أنه عندما شرع فى ركوب سيارته ضمن قافلة سيارات الفصيلة فى اتجاه الجبال تمثل فى خياله ابن عمه سيف.. دعى الله أن لا يكون هو من يذهبون إليه.. عندما وصلوا إلى المكان المقفر بين الجبال الموحشة، سمع الريح تصرخ، شعر بقلبه يخفق بشدة، شاهد الجثة من بعيد وهو داخل سيارته.. الجسد بكامل ملابسه العسكرية جالسا على الأرض يستند بظهره على العجلة الخلفية لسيارة جيب.. رأسه مائلة ناحية اليمين، مازال الشعر الأسود المنثوره خلاله شعيرات بيضاء يلمع تحت ضوء الشمس، لم يخطوءه، عرفه..

رخا كاد أن ينهار على ركبتيه، اسنده الضابط بجانبه.. سمعه يقول.. نعم هو. غدروا بالبطل، غدر به أعز صديق له من القبائل، أمن له، أكلا سويا، نفذا خططا كثيرة فى صالح

الجمهورية، هز العدو هز، البطل كان من أعمده النصر الأساسية بشجاعته وذكاءه وحذره.. عندما يقع القدر لاينفع الحذر.. استدرجه صديقة ومساعده القبلى.. البطل يعامل القبلى بأخلاق الفرسان.. الأبطال.. هى غير مجديه للأسف فى ساحة القبليه، باعه.. باعه بريالات بخسه.. باعه تحت اسم الثأر.. الثمن نقود فضية..

رخا لايسمع، لا يرى، بكى كالأطفال.. أهذا أنت يا سيف؟.. اقترب من الجسد النائم مستندا على السيارة الجيب، لمح خوذته ملقاه فوق مقعد السيارة.. رأى الفجوة المتسعة فى جبهته والثقب الدامى خلف جمجمته، كأنه يرى ما حدث.. جلس سيف جوار صديقه الغادر آمنا، خلع خوذته علامة احساسه الزائد بالأمان، غافلة الخائن، وضع فوهه غدارته خلف رأس سيف، أطل قذيفته التى خرجت من جبهه البطل..

جلس رخا فوق ركبتيه جوار الجسد، احتضنه.. روع.. اهتز كيانه.. يود أن يفقد وعيه.. ماذا فعلوا بك يا سيف؟.. كفيك مقطوعتين معلقتين على صدرك.. صرخ رخا بكل ما أوتى من قوة.. لماذا؟.. لماذا؟..

أجهش ببكاء الحسرة.. وضع الضابط زميله يده على كتفه قال بصوت مختنق.. لن يجدى هذا يا أخى..

خلعوا القطعة المعدنية عليها الرقم العسكرى من عنق الجسد الممدد، حفروا أعلا التل الموجود تحته السيارة الجيب، وسدوا جسد سيف المثقوب الرأس المثقوب الرأس مقطوع الكفين داخل الحفره بملابسه العسكرية، واروا الجسد الممزق بالحجارة والصخور، عادوا ادراجهم يحلمون القطعة المعدنية عليها رقم الشهيد.. هل يحكى لهم تلك القصة عندما يقابلهم؟.. يحكى لأم سيف.. نبيلة التى بكت عند صديقتها أنهار حتى يرتدى ابنها حلة الضابط العسكرية؟..

لم يتلفت رخا إلى الوقت، الساعة تخطت العاشرة مساء..

تم شحن كل المعدات فى القطار العسكرى الخاص المتجه من ميناء الأدبية إلى منطقة فايد العسكرية..

بعد أن اطمأن رخا على المعدات وركب الجنود القطار، طلب من قائده السماح له بالتغيب فى اجازة ثمانية وأربعين ساعة، يعرفون أن بيته وأهله فى تلك المدينة، سمحوا له

بالإجازة.. يعرف هو أن هذا كرم ما بعده كرم.. الأمور غير مستقرة.. الطوارىء القصوى معلنه، التعبئة العامة على أشدها، لا حديث للناس إلا الاستعداد للحرب الفاصلة مع اسرائيل.. فى طريقة إلى شارع صدقى مر رخا بمنزل الفتاة الوحيدة التى أحبها.. «فوزية».. لم يفكر فى حب قبلها أو بعدها.. زميلته فى كلية التجارة، قصة حب بسيطة كتلك التى تعرض فى التليفزيون والسينما، ظن أنه ليس هناك أى عائق بينه وبينها.. فتاة عادية خفيفة الظل، أبوها غنى يمتلك عدة عمارات، المدينة كلها تعلم أنه بدأ فى الميناء حمالا، دارت الأيام واصبح أبوها «سعيد بك شرف» التاجر المعروف.. البنت لم تكن موجودة فى الحياة عندما كان ابوها حمال، ولدت ونشأت فى ظل ابيها «سعيد بك شرف» عندما تقدم رخا يطلبها للزواج من أبيها بعد أن تخرج.. رفضوه..!! رفضوه بالخط العريض.. قالوا له دون خجل لعدم التكافؤ، ذهل رخا.. هو بكالوريوس تجارة مثلها.. بل يفوقها.. هى نتيجتها مقبول وهو نتيجته جيد جدا.. هى لم تعمل هو التحق بوظيفة ممتازة فى شركة ملاحية أهله لها تفوقه، هم أغنياء وهو واسرته مستورين، صحيح اسرة «سعيد بك شرف» تقطن شقة فاخرة بالشارع الرئيسى الذى يشق المدينة باحدى العمائر المملوكة لهم، واسرة عبد الغفار تسكن هذا المنزل المتواضع فى حارة رشيد لكن رخا لديه من الأمكانيات ما يؤجر به شقة فاخرة حتى فى بور توفيق..

انهوا الجدال معه.. من المحال أن نزوج ابنتنا لابن بياع سريح

حزن رخا حزنا مروعا ولم يشأ أن يخبر أباه بسبب الرفض.. دون توقع عرف أن أبيه عبد الغفار فرح لعدم توفيقه فى الزواج من حبيبته.. لماذا يا أبى؟.. رد عبد الغفار.. أننى لم أمانع يا رخا.. مع أننى لو تمت الزيجة لن أكون سعيدا لزواجك من ابنة مهرب قديم فى الميناء.. تحير يومها رخا.. خفف عنه رأى أبيه..

المدهش أن ابنه المهرب القديم تزوجت من شخصية كبيرة مرموقة بالمدينة.. قال رخا لنفسه ربما لذلك قبلت أن أذهب إلى كلية ضباط الأحتياط عند تجنيدى رغم معوقاتها التى أعانى منها الآن..

نزل من سيارة الأجرة أمام حارة رشيد، لأول مرة فى حياته يرى معصرة القصب مغلقة، رأى سرادق مقام داخل العطفة جوار منزل عمه جميل أبوه عبد الغفار يقف على

باب السرادق جواره رفاعى طرزان مع أولاد خاله نبيلة الرجال يتقبلون عزاء المغادرين من داخل السرادق..

لم يدخل رخا الحارة، توجه ناحية السرادق، يظن أنهم يقيمون عزاء سيف.. تساءل.. ألم يقيموا عزاء سيف إلا اليوم؟.. لقد استشهد مذ ما يقرب من عام.. على حد علمه أنهم أخطروا.. ما الأمر؟.. ما الذى أخرهم فى اقامة العزاء، رآه صبحى صاحب المعصره، هرول ناحيته.. الأستاذ رخا.. حمدالله على سلامتك.. سلم عليه اخذه فى أحضانه وقبله، التقت عينا رخا بعينى ابيه، رأى الإرتعاشة التى شملت يدى عبد الغفار، الدموع وهى تطفر من عينيه، لم يستطع الرجل الانتظار، جرى إلى ولده صائحا.. رخا.. رخا.. أخذه بين أحضانه، يقبل صدره وكتفيه، تجمع المعزون حولهم، سلموا على رخا، وجوههم حزينة منكسرة، يهمسون بما يقولون ولا يستطيع رخا تفسيرا، جاء ابناء خاله أم سيف سلموا عليه والدموع تغادر عيونهم لتجرى فوق صفحات وجوههم، رخا لم يتمكن من السؤال، متحيرا متلهفا إلى معرفة الأسباب..

الساعة تخطت منتصف الليل، إنتهى المقروءون، انصرف المعزون، سمع صوت يخرج من مكبر الصوت.. لا أراكم الله مكروها.. أقيم هذا السرادق من محلات فراشة محمد ومصطفى خليل بمناسبة وفاة المغفور لها أم السويس السيدة الفاضلة نبيلة عبد الرحيم هريدى الفاتحة لروحها الطاهرة ولأرواح المسلمين.. غامت الدنيا فى عينى رخا، انتفض جسده، ارتعش فؤاده، لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. سمع مالم يخطر له على بال، مطارق الدنيا تدق حياتهم، سيف ذهب، قبل أن يمر العام تلحق به نبيلة المتعلقة بحبه أبدا..

جلس على المقعد خلفه، همس.. متى؟.. أجاب عبد الغفار.. ظهر اليوم..

لقيتها مريم منكفئة فوق أوراق سيف فى غرفته، حسبتها نائمه وهى تقرأ أوراق المرحوم كما تفعل كل يوم.. لكن قضاء الله وأمره كانا قد حلا.. عدنا من العرض العسكرى، أصر جميل على دفنها بعد أن صلينا عليها فى جامع الاربعين عصرا، دفناها فى مدافن اسرتها جوار أبيها عبد الرحيم رحمهما الله.. تلفت رخا يبحث عن عمه جميل.. قبل أن يسأل قال عبد الغفار.. عمك جميل هناك فى البيت بحارة رشيد.. لا يتحدث ولا يتكلم، يجلس جوار

فراش جدتك زين التى أشتد عليها المرض..

تدور برأس رخا دوامة الأفكار.. كتب على البشر الشقاء.. لقد خلق الإنسان فى كبد.. لامفر.. لا طريق آخر غير طريق الشقاء.. الناس تستعذب الألم.. تجهز له.. يحلمون.، أحلامهم حب، وجاهه، تملك، سلطة، تسلط، مال، بنون، يتمنون لذة الكفاح والتعب والنضال، يرسمون الخطط فى أحلامهم، يتوسلون ببعض الغدر وكثيرا من الكذب، يعانقون بعضهم البعض وهم يبصقون، يتحايلون، يستضعفون، يفترون، يتنابذون بالألفاظ، يتبادلون الألقاب، ينسون فى خضم هذا الموج المتلاطم كيف يأتون إلى الدنيا، يظنون أنهم امتلكوا كل شئ.. فيضحكون.. ثم يضحكون، حاسبون أن ارادتهم حققت أحلامهم، تتوه الاراده، يسقط كل هذا التحدى، تتناثر الأحلام شظايا، ينفجر التمنى عدم، تموت الإراده بموت التحدى تموت قلوبنا وعقولنا وأجسادنا، نذهب بها طواعيه إلى حفر فى الأرض، نترك فيها من حلموا وأعدوا وضحكوا وجهزوا أنفسهم للشقاء ومات فيهم التحدى دون علمهم فماتوا، نتركهم إلى دود الأرض يتغذى على أجسادهم الميته ونحن نبكى، نعود لندور نفس دورتهم ناحية الألم والشقاء دون كلل أو ملل.. ونحن نضحك..!!..

رحمك الله يا امرأة عمى.. يا خالتى.. يا أمى.. يا أم سيف.. روحنا جميعا معك..

المنزل الذى ظنه أبهج مكان فى العالم وجده يخيم عليه حزن عميق..

لم ير بط أو أوز أو دجاج فى فناء المنزل المظلم، قابلته أمه فى لهفه.. كانت متشحة من قمة رأسها وحتى أقدامها باللون الأسود الذى أمتد يعززه الظلام المنتشر فى كل الأرجاء..

بكت أمه بكاء حزينا وهى تحتضنه... ماذا فعلوا بكم يا حبة عينى.. انك ستظل هنا معنا هذه المرة.. اليس كذلك؟.. قل له يا عبده.. إنه وحيدنا، النور الباقى لنا.. نحن فى حاجة اليك يا ولدى.. قل له أستحلفك بالنبى.. يبعدها رخا فى رفق.. ليس هكذا يا أمى..

يتوجه ناحية الغرفة القادم منها بصيصا من ضوء، مازال المصباح الغاز نمرة عشر معلقا فوق جدارها الكالح، الضوء يفرش الغرفة بشعاع المصباح الكهربائى الضعيف المتدلى من سقفها..

زين راقدة فوق فراشها تتدثر بغطاء صوفى داكن وحتى صدرها، تريح كفيها المعوقتين شديدتين البياض احداهما على الآخر فوق صدرها، نفسها يخرج ثقيلا متحشرجا، تعصب

رأسها بمنديل أبيض، وجهها المتغضن شديد الشحوب.. لا بل هو أصفر أصفرار غريب..، جميل يجلس فوق مقعد ما بين السرير والجدار المقابل عند رأس امه زين، يسند ظهره إلى الجدار الذى يستند عليه حاجز السرير، يضع رأسه بين يديه، رفعها عندما دخل رخا الحجرة، وقف بغته متهللا.. تراجع وهو ينظر إلى رخا بعينين محمرتين مملوءتين بالدموع، تقدم رخا ناحيته يدور حول السرير حتى وصل أمامه.. احتضنه دون أن ينطق، سمع شهيق عمه جميل الحار.. شعر بارتعاشه جسده الساخن، ظلا برهه على هذا الوضع، جلس جميل بعدها على المقعد، وضع رأسه بين يديه يدارى فيها وجهه الباكى، فتحت زين عينيها، التقت بعينى رخا.. يعرف كم تحبه، لا ينسى حنانها ورعايتها، يتذكر دوما افتخارها به، قولها الدائم.. يكفى أنه رخا.. سيد الرجال.. لم تستطع الكلام، رفعت الإصبع السبابه فى كفها اليمين وهى فوق صدرها، أشارت ناحية السقف، نظرت بعينيها التعبتين اتجاه اشارة اصبعها، نطقت فى وهن وضعف.. سيف.. لم تكررها، أغمضت عينيها وهى مجهده..

رأى الدموع فوق جلد وجهها المجعد أسفل عينيها.. لم يتحمل رخا، أحس بأنه يود الانفجار، يتمنى البكاء حتى يستريح، هرول تاركا الغرفة الكئيبة، صحبته امه إلى غرفتها، حاولت بشتى الطرق اجباره على الأكل.. يقول لها اكلت يا أمى.. اريد أن انام، ارغب أن أستريح..

فى صباح اليوم التالى عندما استيقظ رخا من نومه، جلس جوار امه يتناول الافطار، ذهبت اخته مريم تشترى له من شارع صدقى جرائد الأهرام والأخبار، لما عادت مريم بالجرائد، قرأ رخا العناوين الكبيرة فى مقدمة الصفحات.. رحيل قوات الطوارئ الدولية.. طلبت الحكومة المصرية من الأمم المتحدة سحب قواتها الدولية الفاصلة بينها وبين اسرائيل.. تأكد رخا أن عليه التواجد مع وحدته المقاتلة قبل مساء هذا اليوم..

عندما ولدت فى قرية أحمدية البحر مركز شربين بمديرية الدقهلية اسموها زين.. زين العابدين متولى، بيضاء كالقشطة، عيناها بنيتان لامعتان، شعرها غزير فى لون عينيها، أنف دقيق، فم كخاتم سليمان، أحمر مخضب بلون دم الغزال..

ما عادت تتذكر يوم خطت بقدميها أرض تلك المدينة، كل ما بقى فى ذاكرتها إنها كانت مرت على الخمس والأربعين، مليحة تخللت شعيرات بيضاء قليلة رأسها، لهفه عبد الغفار بين أحضانها كطفل صغير، عزيزة ورائها.. متشوقة، تدارى فمها ونصف وجهها بكم جلبابها الريفى الواسع الداكن، عينا عزيزه تلتقيان وعينى عبد الغفار وهو بين أحضان أمه فى لقاء بعد فراق، لفت الفرحة يومها جمعهم..

حكى عبد الغفار لأمه عن الشهور الأولى التى ظل يدفع فيها عربته الخشبية الصغيرة المزركشة بالألوان الزيتيه الصارخة والمكتوب عليها.. صلى على النبى.. وحد الله.. مال حلال.. جرب وذوق.. غطاء علبه الدندورمه على هيئة قبه نحاسية مصقولة تنعكس داخل تقوساته صور وأشكال مستطيلة مضحكة، يزين قبه الغطاء النحاسى هلال من النيكل اللامع حجم كف اليد.. سقف العربه من قماش البفته فى لون الشمع الأبيض، مظلة نظيفة يتلقفها هواء المدينة التى يمر تحت سمائها العربة وصاحبها.. يتصايح الأولاد.. الوشنه.. عم عبده.. ويقصده الكبار..

ابتسامة عبد الغفار تفترش وجهه الودود، الحب والطيبة هما رأس ماله الحقيقى.. الناس كلها حوله تبادله عملته الحبيبة للنفوس الطيبة.. أسعاره تبدأ من المليم وحتى العشرة مليمات.. بسكويت صغير وكبير.. يد عبد الغفار سخيه، مذاق الحليب محلى بالسكر والمجمد بالثلج يختلط فى أفواه البشر وهو يذوب..

السعادة تحيط بهم وترفرف حول عربته، وشنه عبد الغفار اصبح لها اسم وناس تنتظر زمن قصير مر .. اشترى عبد الغفار الأرض داخل حاره رشيد .. أحاطها بسور خشب

وصفيح، انذرته البلديه فأقام حجره بناها بأحجار كبيرة جلبوها من جبل عتاقه، انتفع بالأخشاب والصاج المسورة به الأرض فى عمل سقف حجرته ..

شهور معدودة أخرى، أشار عليه الشيخ رشاد، كما استشار عويس البناء وبنى الغرفه الثانية من باقى طوب الجبل ..

من يومها لم يتراجع .. شيد المنافع .. استمر عويس البناء يبنى باقى الجدران، اتصلت الجدران بعضها ببعض، تعددت الغرف يربطها فناء متسع .. توسطتها دوره مياه، أصبحت جميعها لها مدخل واحد واسع لم يوضع عليه باب بعد ..

التقى الأحبه، حققت لهم الأيام ما حلموا به ..

عبد الغفار وجميل وأمهم زين القادمه من أحمديه البحر وفى صحبتها عزيزه الجميله النحيله .. منية القلب والمقصد لأحلام عبد الغفار .. عروسته ..

مارست زين سلطانها من أول يوم وصلت فيه ..

حول وسطها الصرة ثمن الدار المباعه هناك بين الغيطان ..

تعودت كفها لمس الثروة فى مكمنها بين الحين والآخر، تلمسها خفيه عن الأعين، تحرص عليها حرصها على روحها، داخل رأسها افكار وقلبها زاخر بالأمانى، أمرت فأطيعت ..

هرول عبد الغفار، تحولت الجدران ذات المدخل الواحد المفتوح بيتا له باب ضخم، له رتاج غليظ من الداخل، كأنه باب قلعه، لافتحات فيه ولا منافذ، يصفه عبد الغفار لمعارفه فيقول .. قطعه من الزلط المقوى بالحديد، تزين حوافى الباب من الخارج زخارف ضاعت معالمها وتنبئ عن زمن قديم أنشئ فيه هذا الباب، فوق أطرافه رؤوس مسامير حديدية كبيره صدئه، رشقت بمهارة صفوفا بعضها وراء البعض، بارزة كأزرار بنيه كبيره. كونت مربعات داخل كل مربع صف مائل يقسمه الى مثلثين .. عندما يفتحون الباب أو يغلقونه تسمع له أصوات نباح وعواء تصدرها مفاصله الحديدية الضخمه ..

اطمأن كل من فى البيت الى حراسة هذا الباب الكبير لدارهم الجديدة .. توالت الأبواب داخل البيت تغلق فتحات الغرف، حتى دوره المياه أصبح لها باب بعد أن كانت تدارى من بداخلها قطعه من الخيش الموصول البالى .. تم عمل السقف لغرفه ثالثه متسعه من داخل غرفه زين ..

الكل فى الدار حتى الجدران زينوها استعدادا لزفه عزيزه على عبد الغفار ..

... يوم العرس زغردت أم حنفى زوجه الحاج صادق، ابنتها زينب بجوارها ترمش برموش ثقيلة وتنظر بعينين كحيلتين، شبه أمها بيضاء جميلة، واسعة العينين، تحسبهما من الأتراك، الحاجة أم حنفى وابنتها زينب تهنئان زين ليلة عرس ابنها عبد الغفار على ابنه عمه عزيزه، لهجة أم حنفى وابنتها جنوبيه من الصعيد البعيد..

.. ليلة حلوة والنبى.. قالت أم عبد الغفار ذلك والسعادة تقفز من عينيها البنيتين الجميلتين..

ليلة حلوة اجتمعوا فيها حول العروسة والعريس داخل فناء البيت، قبلها عقدوا العقد عند الشيخ عفيفى مأذون الحى والبلد كلها..

زغردت أم حنفى مرة أخرى زغرودة طويلة عاليه حادة عند انصراف معظم المهنئين.. بعدها زغردت زينب لما شاهدت العروسين يغلقان خلفهما باب غرفتهما.. همست أم حنفى.. الزمن تغير والله.. اين الجلوه؟.. أين الدايه أو حتى الماشطه؟.. ردت أم عبد الغفار بصوت عاتب،.. لا دايه ولا ماشطة يا أم حنفى.. هى ابنة عمه وهو ابن عمها.. نظرت زينب إلى الأرض وهى تسمع جميل يتحدث بصوت عذب.. ما عاد أحد يفعل ذلك الآن، تلك عادات كريهه، اليوم العروسة للعريس والعريس للعروسة، لا أحد بينهما..

تكلمت زين فى سرور.. هيا بنا نصعد السطح، القمر مدور، الهواء يشرح الصدور..

اتجهه الجميع وراء أم عبد الغفار، قصدوا ناحية السلم النقال بحوش البيت الواسع، الغرفة التى تركوها خلفهم غرفة أم عبد الغفار، حرصت زين أن تجعل غرفة أبنها عبد الغفار من داخل غرفتها، لا يدخل ولا يخرج إلا عن طريق غرفة زين..

انضم إلى الجمع فوق السطح الابن حنفى وأختين اخريتين شابتين صغيرتين..، حضر عيسى النجار يحمل السمسمية، تسامر الجميع، ارتفع صوت البنات يشق الليل وينتشر مع نغمات سمسمية عيسى النجار تحت ضوء القمر فوق سطح الدار..

عريس قمر وعروسه قمرين.. اتجمعوا واتهنوا الأتنين.. الفرحة تملأ قلب زين وتفيض من عينيها.. ابنها البكرى الطيب الحبيب.. ابنه عمه الرقيقة.. حلمت زين بهذا اليوم، الليلة حقيقة، هى وعدت المرحومة أم عزيزة، اليوم وفت بعهدها.. عبد الغفار وعزيزه تضمهما

غرفة عرسمها، هى والمعازيم فوق سطح الدار، فرحون، يغنون، مبتهجون، جميعهم يهنئون ويتمنون.. بالرفاء والبنين.. زين فرحة، مبتهجه، أحلى من ليلة عرسها، لم يبهجها يوما شئ كفرحتها بحبيبها رخا، أول رجل فى حياتها، عبد الغفار قطعة منه، نفس الشعر الفاحم العينان الواسعتان، الوجه السمح البرئ، الابتسامة الدائمة الحنون.. عام واحد ورزقت بعبد الغفار.. ظللت سحابه عينيي وذكريات زين، انحدرت دمعه فوق خدها الوردى.. مات رخا.. نعم مات.. لم يستوعب عبد الغفار رؤية ابيه..

لما مات رخا كان عبد الغفار لم يكمل عامة الأول بعد..

أقسمت زين أن لا يدخل بيتها رجلا بعد رخا..

عاشت تحلم بعاميها اليتيمين فى ظل رخا..

الأهل والأقارب، الجيران والصحاب، لايتركونها فى حالها.. لا حديث لهم معها إلا وجوب دخولها الدنيا من جديد..

لاتدرى زين إلى اللحظة كيف هان عليها أن تدخل تلك الدنيا المزعومه.. دخل عليها سيف فى عقر دار رخا، لا شئ فيه من رخا..

سيف طويل عريض عيناه خضراوتان لامعتان، لم تعرف لون شعره أو صفته أبدا، يزيله دائما وحتى الجذور، يكبس عمامته حتى حواجبه.. جميل الوجه صحيح، لكنه متجهم دائما، قليلا مالمحت شبه ابتسامه داخل عينيه سرعان ماتتبدل بتلك النظرة القاسية المتبلده..

لاتقدر على مقارنته بالمرحوم رخا..

رخا حلو الحديث والمعشر، سمح الوجه والمحيا، الحنون خفيض الصوت.. أما سيف.. سيف نارا هوجاء، عالى الصوت، غاضب النبرات، قاسى العبارة، دائم التهكم، ساخرا من كل مالها وما حولها، حتى من جمالها.. لم تسمع منه كلمة حلوة أبدا.. ساعة الصفاء الوحيدة بعد عامين من زواجهما حملت فى جميل..

حاولت بكل قواها وما اوتيت من جهد أن تجنب جميل طباع أبوه الفظ.. نشأ عبد الغفار وجميل فى الدوار القلق ما بين سيف وزين، لم تصفى الأيام أبدا بينهما حتى بعد مولد جميل.. سيف فى هجوم مستمر على زين، وزين فى دفاع دائم ضد هجمات سيف العدوانية..

لاتنسى زين ذلك اليوم، همس الجيران مازال يرتفع، يدوى كالانفجار داخل اذنيها، يهز كيانها، يدمر عقلها، يدمى قلبها.. سيف تزوج واحدة من الغجر الرحل..

بعد أن كانت زين ترد وتدافع هجمات سيف تغاضت عن كل الهجمات.. ما عادت تعيره انتباها أو تبالى بما يقول أو يزعق، لايهمها حتى وجوده، أو مايفعل، تحجزت مشاعرها بالمرة اتجاه سيف..

علمت زين بخلفته من الغجرية، ولدت له ولدا وبنتا..

احترقت دماء زين داخل عروقها، أصبح لجميل أخ وأخت من أم غجرية، لا يعلم أحد من هى؟.. من أين قدمت؟.. إلى أين ذهبت؟.. ولا إلى أى أرض رحلت بأولادها!!

زين حتى لم تعرف اسمها، كانوا ينادونها أم الخلخال، رحلت أم الخلخال حاملة أولادها مع عشيرتها..

مرت شهور معدودة، اختفى سيف مره أخرى من الدار.. أياماً قليلة، اتى الخبر اليقين.. سيف تزوج بائعه الفجل التى تفترش الطريق بقفتها أمام دكان الحلاقة الذى يمتلكه.. فتاة هزيله لم تتعد الثامنة عشر.. انتكست زين، لم تقبل بعدها أبدا عودة سيف إلى دارها.. دار المرحوم رخا.. قبلت على مضض مبلغ العشرة قروش التى يرسلها سيف كل أسبوع مصروفا لابنه جميل، قبلتها من باب استخسارها فيه..

سمع الجمع وهم فرحون يغنون فوق السطوح صرخة رفيعه يحيطها انين.. خرجت زين من ذكرياتها، سكت الجميع، الصرخة آتية من ناحية غرفة العروسة والعريس.. صوت عزيزه.. لم يطل سكوتهم، ارتفعت الزغاريد مدويه متعددة، قامت زينب بنت أم حنفى وسطهم، لفت ردفيها وأعلا وسطها بطرحة مبرومه لونها بمبى، اخذت زينب تتبختر وتتمايل، تحرك وسطها وتهز اردافها على وقع تصفيق الجمع حولها، صوت عيسى النجار العالى الرفيع على نغمات سمسميته صافية الرنين الشجى يرتفعان.. أبوجلمبو.. دكر ونتايه.. والحاجة.. قايمة من الصلاة..

يردد الجميع المقاطع خلفه فى ابتهاج، ترتفع الزغاريد ويشتد التصفيق المنغم حول مقاطع الغناء ورنين السمسمية، تزداد اهتزازات زينب بصدرها ووسطها وأردافها، تتبادل حركة أقدامها الخطو على الواحدة، ترقص وسطهم منتشيه، تهدل شعرها الكستنائى

الجميل تحت ضوء القمر، جميعهم ووسطهم زين أم عبد الغفار مستبشرون فرحون، بهجتهم تحملها اصوات تصفيقهم وغنائهم ورنين سمسميه عيسى النجار، تخترق الجدران والمنافذ فى كل بيوت حارة رشيد..

استيقظت زين من الحلم الجميل.. لحظة.. فتحت عينيها.. رأته واضحا هذه المرة، رخا يدخل من الباب مرتديا حلته العسكرية، فرح قلبها، حاولت أن تبتسم، لم تطاوعها عضلات وجهها، تذكرت سيف.. أين سيف؟.. قالوا أنه مات.. إنها تراه دائما معها، أمامها، يكلمها بصوته الهادئ كما عودها.. من يجلس بجوارها هذا؟.. آه أنه جميل.. أبو سيف.. مسكين ابنى.. أين نبيلة الحبيبة؟.. العزيزة.. كيف هان عليها؟.. هان عليها أن تتركنى؟.. لا.. إنها هنا.. وجهها الأسمر السمح الجميل.. هنا.. تجلس أمامى بابتسامتها الحانيه.. وسيف.. انظر يا رخا.. وجهه فوق.. النور.. سيف.. شارت بأصبعها السبابه إلى اتجاه السماء، تعبت، اغلقت عينيها تعود لاحلامها العذبه..

.. تلك المرأة الحقودة خالة عزيزه.. ليس فى قلبها أى رحمة.. همست فى اذن عزيزة كأنها شيطان، طمعت فى الفتاة الرقيقة، طمعت فيها.. قالت لها مرة نحن أولى بعزيزة، عزيزة استمعت لها، زرعت المرأة الأحلام فى قلب الفتاة الساذجة، امتلكتها، لعبت بها، منتها بالغيطان والحقول والدوار الكبير والحيوانات والطيور التى لا أول لها أو اخر..

أخذتها معها فى غفلة منهم إلى جبلايه أبو عارف مستغلة سلامة طويتهم وحسن نيتهم.. المرأة نيتها خبيثة، ترغب فى عزيزة الولود والتى ولدت مريم زوجة لابنها عوضا عن زوجته العاقر.. تخطط المرأة العجوز الشيطانة بمكرها الساذج الشرير والذي لا يصدقه أحد، لم تخف من يوم تقف فيه امام الحق والعدل، اعمتها الدنيا، حشدت كل دهائها، عزيزة ضيفة فى حقولهم بالجناين، أرتها الجنة ووعدتها أن كل ذلك يكون طوع يمينها.. ليس هناك شروطا إلا ترك الخزنه داخل غرفة زين ورائها..

لم تفكر عزيزه طويلا، قلبت حياتهم جحيما، الرقيقة الوادعة التى كانت لا تتحدث كلمتين كاملتين، التى كان عبد الغفار هو كل حياتها ومناها.. نسيت كل هذا وأكثر، نسيت ضناها، نسيت أبنتها مريم الجميلة الصغيرة.. مريم التى تساوى كنوز الأرض، اغمدت نصالها داخل قلب عبد الغفار الطيب.. رحلت عنهم، اعتبروها ماتت، تزوجت ابن خالتها،

عرفوا إنها أنجبت له على مر السنين تسع من البنين وثلاثة من البنات..

لم يتركها مالك الكون دون عقاب.. يمهل ولا يهمل.. مرضت عزيزة مرض شديد اثناء ولادتها الأخيرة، سكنت جسدها الحمى حتى فقدت البصر.. تزوج زوجها فتاة أخرى ترعى هذا الجيش الذى خلفته عزيزة، تمنت هى الموت، وعز عليها الموت، انزوت عاجزة عن كل شئ، حتى عن اطعام نفسها، لولا اولادها لألقى بها زوجها وخالتها إلى كلاب مزرعتهم..

عبد الغفار وأمه زين الطيبان كلما سمعا عن أحوال عزيزة بعد عجزها خفق قلبيهما حزنا، قررا فى براءة أن يزوراها ويشدا من أزرها..

عندما دخلا عليها لم تعرفهما، قالت لها العجوز الشيطانة.. خالتها وهى تلهث من الكبر.. يا عزيزة تلك زين وأبنها حضرا ليشمتا فيك.. انتفضت عزيزة، مدت ذراعيها فى الفضاء امامها تتلمس القادمين، أمسكت بزين، تعلقت بها، وصلت رأسها، قبلتها.. قبلت ذراعيها وكتفيها، تبكى فى حرقة.. سامحينى يا خالة.. سامحينى.. بكت زين، لم يتمالك عبد الغفار نفسه تقدم اليها، قال بصوت تخنقه الدموع.. سامحك الله يا أم مريم.. سمعت عزيزه صوته، مدت يديها إليه.. عبده.. عبده.. ابن عمى.. خذنى معك.. باسم العشرة.. ورحمه أمى التى كنت تحبينها يا خاله زين خذونى معكم.. تجمع أولادها.. يهدوءن من روعها، قالوا لها.. يا أمي ماذا ينقصك؟.. عيوننا فدائك يا أمى، تحتضنهم عزيزة فى حنان، تهمس.. ينقصنى الأمان، ينقصنى حلاوة جمعهم وطيبة قلوبهم.. تقول زين فى تأثر.. لن أتركك. يا عزيزة.. أنت لحمنا.. وهم أيضًا لحمنا.. سنزورك دائما وتزورينا.. سنحضر معنا مريم المرة القادمة، استكانت عزيزة لوعدهم..

تتذكر زين جيدا أنهم لم يتخلوا عن عزيزة بعدها حتى واروها التراب.. عبد الغفار المسكين كان تزوج فاطمة بنت عبد الدايم، جميلة طيبه، حلوة المعشر، عاشت معهم فى بيتهم هذا بجاره رشيد وسعد بها الجميع..

أحبها عبد الغفار بكل ما استطاع من حب، مرت الأيام بطيئه ولم تنتفخ بطن فاطمة، هى متعلقة بمريم وسيف الصغير تعلق محير، مع الأيام همسوا فى اذن زين أن سبب طلاق فاطمة من زوجها الأول هو عدم الانجاب.. إنها عقيم..، أكد هذا عبد الدايم الطيب إلى زين عندما سألته بينها وبينه سرا، عرف عبد الغفار، عرف كل من فى البيت ولم

يظهروا لفاطمة علمهم.. رضوا جميعا بقدر الله، تعلقوا بفاطمة، احبوها.. هاجروا الهجرة الأولى إلى أحمديه البحر هربا من طوربيدات الألمان التى كانت تصطدم بالمدينة كل ليلة..

فى المهجر بأحمدية البحر حصل ما حصل.. انقلبت حياة عبد الغفار قليل البخت إلى عذاب وألم وعراك دائم مع فاطمة بسبب ودون سبب..

منذ دخولهم القرية الصغيرة ومقابلتهم «ناصح» أخو زين الشقيق والذى يصغرها بعشرات السنين، يكبر عبد الغفار بسنوات قليلة، كانوا يلعبون فى القرية معا وهم صغار..

«ناصح» مثل اخته أبيض البشرة، بنى العينان، شعره فى لون عينيه ناعم وغزير، يحب الضحك والموءانسه، معتدل القوام يشعر بأنه مطلوب من الحريم.. «ناصح» قابلهم وسلم عليهم، وقف أمام فاطمة مأخوذا بجمالها ولهجتها الصعيدية.. ضحك وهو يقول.. نقيت نقاوه يا ولد يا عبده.. لم يهتم عبد الغفار بحديث خاله «ناصح»..

مرت الأيام فى المهجر «وناصح» لا يكاد يتركهم لحظة، نائم قائم آكل عند أخته زين..، زادت العلاقة وثوقا بين ناصح وفاطمة، تطورت إلى هزار وتبادل الفكاهات وضحكات، فاطمة لا حديث لها إلا عن «ناصح» لا فعل لها إلا ما يطلبه سناصح»، لا تأكل حتى يحضر «ناصح»، إذا لم يكن موجودا اهتمت بأن تحجز له نصيبه من الطعام، غسلت له ملابسه، حتى نظفت له حذائه.. كانت تفعل ذلك وهى سعيدة تغنى بلهجتها الصعيدية نشوانه، زجرها جميل لما شعر بأخيه عبد الغفار وهو يشتعل، زين حدثت نبيلة بأن قلبها يدلها على أن فاطمة تضع بداية نهايتها أن لم ترتدع، اتسعت فجوة الجفاء بين عبد الغفار وفاطمة..

فى يوم واجه عبد الغفار فاطمة بما يعذبه.. لم يصرخ، لم يتشنج، قال لها فى هدوء.. إنك تؤذيننى يا أبنه الناس.. أنا أحبك ولا أريد أيذائك فأرفقى بى..

خرج من المنزل يحمل همومه إلى الحقول والخلاء، عاد ليلا ليرقد فى سريره محموما مريضا لأكثر من شهر، انقطع حضور «ناصح» اليهم، كثر بكاء فاطمة وانطوائها..

لما شفى عبد الغفار واستطاع الجلوس معهم، قالت له فاطمة أمامهم جميعا.. يا عبد الغفار أنا احترمك وأعزك، ارجوك ارجعنى إلى أبى، لا حياة بينى وبينك كزوجين بعد كل هذا العذاب.. بكت فاطمة بكاء الفراق، زين ونبيلة حاولتا تلطيف الأحداث وثنى فاطمة عن طلبها، أما جميل كان يحض أخيه ويحثه على عدم التراجع ويشجعه على الأنتهاء من هذا

الأمر الموجع، أصرت فاطمة على طلبها، أجابها عبد الغفار..

كانت الحرب قد انتهت، عادوا إلى السويس جميعهم، أوصل عبد الغفار فاطمة إلى ابيها فى منزلهم بكفر النسوان والذى بناه والدها مره اخرى.. بعدها أرسل إليها ورقة طلاقها، لم يرها ابدا بعد ذلك، لم يرها أحد من الذين عاشت معهم الأيام الجيلة فى المنزل الكائن بحاره رشيد.. شعرت زين فى رقدتها بإرهاق مضنى، استسلمت إلى غيبوبه عميقة..

أكثر من عشر أيام مرت منذ وفاة نبيلة، لحاق الملازم أول احتياط رخا بوحدته على الجبهة داخل سيناء...

زين مازالت تحتضر، تغيب عن الوعى وتعود لتهذى، ساله أم رخا فى هم وقلق وخوف..

منذ الصباح الباكر وعبد الغفار يجهز علبه الدندورمه بمعمل محمد عيسى يسمع المارشات العسكرية لاتنقطع من المذياع

الهمس يدور بين الناس.. بدأت الحرب، ويقول عبد الغفار لنفسه، متى انتهت حتى تبدأ، الحرب مستمره، تبتعد وتقترب فقط..

وهو عائد من المعمل الساعة السابعة صباحا يدفع عربته امامه شاهد «المُكن» يقف فى مكانه عند باب مقهى شاهين، انقبض قلبه لرؤيته، «ألمُكن» يهلوس كعادته.. يزعق فى الناس.. التتار يا غنم.. اقضوا عليهم.. التتار على الأبواب يا بلد..

شعر لحيته ورأسه طال وتكور ملفوفا فى بعضه، غطاه الشيب، يلبس جلباب مخطط باللون الأحمر، يحمل فى يده اليمين عصا غليظة يطوح بها جهه اليمين تارة وجهه اليسار أخرى، الناس تبتعد عنه حتى لاتصيبها العصا أثناء تجوالها قال عبد الغفار لنفسه.. حتى «المُكن» تعلم المكر والحذر.. عرف كيف يبعد الناس عن قفاه..

دخل عبد الغفار بعربته عليها علبة الجيلاتى حارة جليدان، لم يقابل أى بشر، لا يدرى ما الذى دفعه إلى مواصلة التقدم فى اتجاه «الطابية»، فى أخر حارة جليدان كان عطا الله البقال يفتح دكانه، قال له.. صباح الخير.. رد عطالله تحية عبد الغفار، سأله.. الم تسمع يا عبده؟.. توقف عبد الغفار بعربته وهو يقول.. خير؟.. أجاب عطالله.. الاسرائيليون يهاجمون قواتنا فى سيناء.. قال عبد الغفار جادا.. قديمه.. أكد عطالله.. صحيح والله.. الأخبار فى الراديو الآن.. صوت العرب.. أحمد سعيد يقول أننا اسقطنا إلى الآن ثلاثين طائرة.. تعجب عبد الغفار.. هل هى عصافير؟.. أصر عطالله.. نحن المصريون يا عبد.. سنريهم،

سندفنهم هذه المرة تحت – رمال سيناء..!!..

انقبض قلب عبد الغفار.. تذكر ولده رخا، ابن أخيه سيف، أم سيف وموتها حزنا على فلذة كبدها.. أسرع يدفع العربة إلى ناحية الطابية.. لم تقابله تلالها ولاسفوحها، لم ير المدافع السوداء ذات العجلات النحاسية.. شاهد أكوام من الرمال والزلط، أعداد من الرافعات والسيارات النقل.. مظلات من الصفيح تحملها قوائم من الخشب تمتد فوق مساحات واسعة تحتها ترقد صفوف متراصة من أكياس الأسمنت، الحفارات تشق بطن الأرض فى مكان الطابية.. الحكومة تزيل الطابية، ردمت برمالها وصخورها وأطلالها فتحة الخور التى تصل مياه البحر بغاطس السويس القديم، بعد أن كان ميناء الأنصارى يمتد على غاطس لازوردى ساحر يحيط البلد بمياهه العميقة ويحتضن ساحل ملئ بالحدائق والأزهار تتنزه فيه الناس ويجرى الأطفال، المكان كان قطعة من الجنة، فى أقل من ثلاثين دقيقة بين الناس وسط الزهور والأشجار اليانعة كان عبد الغفار يبيع علبهةالجيلاتى.. اليوم لاتستطيع الأقتراب من الكورنيش القديم والذى كان قطعة من الجنة.. تقتلك رائحة مياه الصرف الصحى حيث تصب فى مكان مياه البحر التى احتجزتها رمال وصخور الطابيه حين ردموا بها فتحة الخور، يأكلك الناموس المنطلق جيوش من البرك والمستنقعات التى كونتها مياه الصرف الراكده، تمتلأ نفس عبد الغفار حسرة كلما وقع نظره على الكورنيش القديم.. الجنة التى كانت تسعدهم أصبحت أحراش، الحدائق خرائب مليئه بالفجوات وأكوام القاذورات، لايستطيع مخلوق عاقل أن يمر من هناك، ماذا جرى فى الدنيا ياربى؟.. ملعون هو الإنسان .. بات الناس فى كل البلد يدعون للعبقرى الذى نقل الطابية ليسد بها فتحة الخور لأسباب مجهوله أن تدوم الحسرة فى قلبه مادامت فى قلوبهم..

لم يستطع عبد الغفار التقدم بعربته، حجزته أكوام الحجارة، أكوام الحديد المسلح سدت الطريق امامه.. رأى أعمده المسلح التى أقاموها فى حفر مكان اطلال الطابيه.. ضاعت الأحلام يا عبد الغفار، لاديك ولادياولو، الطابيه أصبحت فى خبر كان.. كم حلم بكنوزها؟.. كم تخيل الديك وهو يخرج له، يمسك به يطلب دمائه حتى تظهر كنوز الملك سوس.. فى زمن ولى كان يحلم بالملك يوميا، يتذكر المرحوم سيف ابن أخيه وهو يقول له مازحا المُكن يا عماه هو ديك الطابيه، يومها خطر له خاطر غريب، بل كاد ان يوقن بهذا

الخاطر، لولا خوفه من سخرية ابن أخيه وهو يقول له مازحا.. المُكن يا عماه هو ديك الطابية.. إنه الملك سوس نفسه.. شعره الطويل المنكوش، لولا اتساخه لكان جديرا بالتاج فوقه، لحيته التى تصل صدره، إنها لحية مهوله.. لحية ملكية.. هذا البريق داخل عينيه، هذا الشموخ حتى وهو يضرب فوق قفاه، ثم أنه يختفى، قبل أن يختفى نراه جميعا وهو يجرى ناحية اطلال الطابية، يدخلها، بعدها يختفى..

سمع عبد الغفار صوت.. هات بسكوته بقرش.. واحدا من العمال فى هدم الطابيه يريد أن يستمتع بوشنه عبد الغفار.. يملأ له واحدة كبيرة وحتى حافتها، تساءل العامل.. ماذا يجرى يا عم عبده؟.. يهز عبده رأسه مستفسرا.. خير؟.. يعقب العامل.. يقولون الحرب اشتعلت.. يجيب عبد الغفار وصورة ابنه رخا فى الملابس الكاكية وخوذته فوق رأسه يستجير به من فوق تلال الرمال.. لم تنتهى الحرب أبدا يابنى.. يقول العامل وهو ينصرف.. ربنا يسترها..

عبد الغفار يحاول أن يبعد بأفكاره بعيدا عن الحرب والمعارك، وأبنه البعيد.. شاهد سيارة قلاب تفرغ مافيها فوق أكوام الزلط، خرجت زوبعه كثيفة عالية من الغبار..

زمن بعيد.. بعيد.. رأى فيه الغبار يغطى كل شئ، الناس، الحقائب، المقاعد، الأرض، جدران العربة المهتنزه، تصرخ صفارة القاطرة مدويه، الناس الواقفون يفتحون النوافذ التى بجوارهم، اندفع الهواء باردا يحمل مزيدا من الغبار الأصفر، ليلتها تضايق عبد الغفار، مال برأسه، لمح من فتحات النوافذ المظلمة، بقعا ذهبية حسبها نجوم، لما دقق البصر، عرف انها أنوار بعيده فى جوف الليل، يعرفها منذ رآها لأول مرة من نافذة الكافورى، وعاها جيدا منذ شاهدها وهو فى صحبة أمه.ذاهبان مركز شربين من أحمديه البحر.. كثيرا ماصحبته أمه فى آخر كافورى متجهه من الأحمدية إلى شربين لزيارة خاله ناصح.. وسط الأهتزازات والغبار سمع همسات، أسم يهدهده ضجيج القطار ولغط الناس.. السويس..

تحشرج صوت القطار يهدئ من سرعته، احتكاك المقطورات خلف القاطرة ببعضها غير من نغمه الضوضاء، كأنها تزعق.. سويس.. سويس.. سويس.. اقتربت النقط المضيئة، بددت ظلام النوافذ اضواء متقطعة، وضحت أعمدة الانارة المتباعدة وهى تمر مسرعة،

تركها القطار المخترق المدينة وهو يزمجر، يطلق صفارته الصارخة المتقطعة العالية..

محفورا فى داخل رأسك يا عبد الغفار، كأنه يحدث الآن.. توقف القطار لحظات قصيرة، قبل أن يتحرك مرة أخرى كان قد حسم أمره.. استطاع أن ينفذ من باب المقطورة الضيق، انزلق إلى رصيف المحطة..

كان الليل يلم المدينة، الهواء بارد، الشوارع خاليه، مد يده بالتذكره الصلبة بين أصابعه إلى الرجل الذى يراقب بوابة المحطة الصغيرة.. خرج يحمل كيس وحيد فوق كتفه يحوى حاجياته، يلف عنقه بشال كالح قديم، جلبابه زفير خفيفة، اسفلها يرتدى ملابس صوفية ثقيلة تحمى عظامه من البرد، تلفت حوله، لم ير غير عددا من الرجال والنساء وطفلان صغيران جميعهم غادروا القطار مثله..

رأى عربه حنطور متهالكه بعيدا هناك على الجانب الآخر من الشارع الضيق.. الحوانيت مغلقة، نوافذ وأبواب صف المنازل القليلة المقابلة سور السكة الحديد هى الأخرى مغلقة..

ظنها مساكن مهجوره، قالت له أمه.. عمك البدوى يسكن شارع الحلقة المجاور سيدك الغريب.. الغريب؟.. هى بلد الغريب.. مدد يا غريب.. أين له الان بعم بدوى؟..ماذا يفعل؟.. دعواتك يا حاجة زين.. إلى أى ناحية يتجه؟.. حدث عبد الغفار نفسه.. لولم أعثر على عم بدوى ضعت فى تلك الليلة الباردة يا عبد الغفار..

لمح عسكرى يتمهل قريبا من عربة الحنطور البعيدة، هرول ناحيته، اقترب،

.. السلام عليكم..

.. عليكم السلام..

نظر العسكرى إليه، وضع يده اليمين فوق رأس عصا غليظة معلقة فى جانب حزام وسطه.. سأله عبد الغفار..

.. سيدى الغريب؟.. قاصد سيدى الغريب..

رد العسكرى معجبا..

.. سيدك الغريب؟.. يا رجل أنت هنا فى الأربعين.. خدلك حنطور أحسن.. أطل عربجى الحنطور وهو يفتح عينيه، لم ينظر عبد الغفار ناحيته، تحسس بيده من فوق جلبابه صره

نقوده داخل ملابسه، سمع العربجى يصدر صوتا.. هه.. سأل وهو يتجاهله.. بعيد؟.. أجاب العسكرى .. له أكثر من طريق.. الدنيا ليل.. خذ الحنطور..

قبل أن يرد أو يفكر لمح مأذنه مسجد صغير، المسجد على امتداد الشارع وليس ببعيد، أشار ناحية المسجد..

..جامع؟..

نظر العسكرى متحيرا.. رد ف غير مبالاه..

.. جامع الأربعين..

.. اشكرك يا شاويش.. السلام عليكم..

أغلق الحوذى عينيه مرة أخرى، تململ البغل يهز الحنطور، قال الحوذى قبل أن يميل برأسه وهو يتثاءب .. هس..

توجه عبد الغفار ناحية المسجد، رآه صغير مستدير يقع منتصف ميدان مترب، قريبا من جدار المسجد رجل يحاول اطفاء مصباح غازى فوق عربة يد صغيرة، اقتحمت أنف عبد الغفار رائحة الطعمية، انها أكيد لدى الرجل صاحب العربة، بجواره بقايا خبز منكمش وملتوى فوق لوح مجدول من جريد النخيل.. تكلم عبد الغفار..

.. السلام عليكم..

.. عليكم السلام..

أخرج عبد الغفار قطعة معدنيه من جيب جلبابه، ناولها للرجل..

.. بتعريفه رغيف وطعميه.. لو أمكن طماطم مخلله..

التعريفة بين أصابع الرجل، قذف بها داخل طبق من الصفيح الصدئ أمامه فوق العربة، سمع عبد الغفار رنين احتضان اخواتها لها.. مد الرجل يده إلى جوف العربه، اخرج ورقة صغيرة نصف ملفوفة، ثنى طرفها المدبب.. مد يده مرة أخرى، أخرج طبق اسود ملئ بحبات الطعمية الداكنة، وضع عددا منها داخل الورقة الملفوفة، مد يده باللفافه إلى عبد الغفار، تثاءب وهو يقول.. خذلك رغيف..

نظر عبد الغفار إلى الخبز المنكمش تحيطه برودة الليل.. تردد.. اختار رغيف قلت تعاريجه، قضم من طرفه قضمه، قذف ورائها بحبه من الطعميه، ازدرد اللقمة والطعمية، لم

يستطع المداراه، قال.. ياه.. بارده.. رد الرجل باقتضاب دون أن ينظر نحوه.. آخر ليل.. أجاب عبد الغفار.. نعمه.. الحمدلله.. نظر بائع الطعمية إلى الكيس فوق كتف عبد الغفار.. سأله.. غريب؟..

.. آه.. والله غريب، قاصد سيدى الغريب..

كما قال العسكرى قبله نطق الرجل.. ياه.. الدنيا ليل..

علل عبد الغفار الأمر قائلا.. قريبى هناك، يسكن الحلقة جوار سيدنا الغريب.. قال الرجل بخشوع.. مدد يا غريب.. ثم أضاف.. اسمع نام هنا بجوار الجامع حتى الصباح.. أو هناك تأخذ لك كشك عند الشيخ عبد الفضيل..

انتبه عبد الغفار إلى ما حول المسجد من أكوام صغيرة، كان يظنها تحت عتمه الليل أكوام من الحجارة أو بقايا من قاذورات المنازل، وضحت له الآن أجساد تغط فى النوم تحت أثمال باليه داكنه، انتفض جسده، تساءل..

.. الشيخ عبد الفضيل؟.. أجاب الرجل.. نعم.. بعد المزلقان، فتحة سور سكة حديد حوش البضائع، ناصية شارع صدقى.. كشك شاى أسأل هناك.. الشيخ عبد الفضيل، ردد عبد الغفار متسائلا.. الشيخ عبد الفضيل؟.. واصل الرجل وصفته.. نعم تسأل هناك عن غرفة.. معك غطاء؟..

تحسس عبد الغفار الكيس فوق كتفه، مضغ الخبز الجاف والطعمية الباردة.. ازدردها فى صعوبة، قال بصوت مبحوح قبل أن يسير فى الأتجاه الذى اشار أليه الرجل.. توكلت على الله..

.. صباح اليوم التالى خرج عبد الغفار من باب الكوخ الصفيح الذى استأجره لمدة شهر كامل.. قال له الشيخ الطيب عبد الفضيل.. اعتبره ملكك يا ولدى، أنه أفضل من الأقامة عند الأقارب، قال ذلك وهو لايعرف أن عم البدوى ليس قريب عبد الغفار، أنه بلدياته، وحمدلله على بركة دعاء أمه زين.. عندما خرج من باب الكوخ لم يتمالك نفسه، استقبل يومه منبهرا مستبشرا.. حدث نفسه يومها..

عبد الغفار.. ما أروع السماء، امتداد الأرض، التلال الصفراء المتراميه تحتضن الأرض الخضراء الواسعة، النخيل بثماره، بلح أحمر، أصفر، أخضر صغير ينموا، رائحة شجر

ثمار الجوافة، الاعواد والأغصان الخضراء، زقزقة الزرازير والعصافير، قفزات أبو فصاده، وقفه أبو قردان المطمئنه..

أنفاس عبد الغفار متلاحقة، تلمع عيناه وهى تلتقى بالأمتداد الأزرق بعيدا هناك يصل السماء..

ترك الكوخ الصغير أمام الجدار الحجرى على حافة الأرض الخضراء خلفه .. يجرى.. شعره يتطاير، خصلاته تتقاذفها النسمه، جوارحه متحفزه.. يشم الرائحة الغريبة عليه، المنعشة، يملأ بهوائها رئتيه، لم يستنشقها من قبل، زادت قوة نفاذ الرائحة إلى صدره، اقترب من الحافة الزرقاء، ترى عيناه الزغب الأبيض، يشاهد تعرجات الموج، يحس بنسمه البحر فوق صفحة وجهه، رطبة بارده منعشه.. يستنشق أكثر وأكثر، صعدت الدماء ساخنه تجرى فى عروقه وشرايينه حتى اذنيه، فتح عينيه منتعشا، سمع من قبل الكثير حول حكايات البحر المالح.. البحر الآن ملأ عينيه، داخل قلبه، ينتشى، يتمتع، يدور حول نفسه، يرى قارب بعيد فوق الأمواج، هناك خيال راكب القارب، تمنى أن يكون معه، أحس قشعريره، لم يتراجع داخله عن الرغبة العنيده، مسحت عيناه الصفحة الزرقاء، التقى نظره بعيدا هناك بالهيكل الضخم، يسمونها سفينه، أعلاها المدخنه تمتد كسراب تطاير فوقها سحب الدخان، دار عبد الغفار حول نفسه، يشعر بالرعده، الرهبه، فكر فى أمه زين.. أن يرسل إليها.. تحضر من هناك.. أنها لم تر غير بحر شربين الحلو، امتداده داخل الأحمدية، المراكب الشراعيه تشق مياهه الداكنة، تمخر فوق الصفحة السمراء، فاض به الحنين، اهتز نشوانا، لم تغادره رهبة الفكرة.. أن يقترب من السفينة، يشق السطح الأزرق الجبار، سمع عن الغاطس الرهيب، العمال وهى تتحدى، رأهم بخياله، دق قلبه لما تذكر حكايات سمك القرش المخيف، كيف يستطيع قضم نصف إنسان.. السعيد هو من ينجو من بين أنيابه بساق أو ذراع واحدة، متحديا الرعده مازالت الرغبة مشتعلة داخله، من الضرورى أن يعود بأمه، يبنى العشة بيتا، يتزوج عزيزة، ابنه عمه الحبيبة، يحتاج المال، لم يتبق معه غير عشره جنيهات، يتمنى شراء قطعة أرض.. مائة متر فقط، يقيم فوقها بيته، أمه زين وحبيبته عزيزة، أرض ترى البحر، قريبة من الزرع والخضرة والشارع الكبير..

عبد الغفار ينحنى.. يسجد واضعا جبهته فوق الرمال الصفراء الدافئة تحت أشعة

الشمس، يسمع وشوشه الأمواج المتسابقة وتسبيحها، يرتعش جسده، تبلل صفحة وجهه الدموع، تتساقط من عينيه فوق الرمال.. يشتعل داخله، يتمنى من الله الستر، تحقيق الأمنيه، أن يجد العمل.. يشترى الأرض، يبنى البيت، يعود بأمه، بحبيبته ابنه عمه من بعيد هناك.. يمشى فوق مياه البحر حتى السفينة المبحرة على خط الأفق تصل زرقه البحر مع صفاء السماء ويظلها الدخان..

اعتدل عبد الغفار وهو يريح مرفقيه أعلى عربته الصغيرة وقد غمر نشوى ذكرى أول أيام وصوله أرض السويس.. استسلم إلى ماضى الأحداث يجول بخياله الملهوف، يستمتع هاربا من عذابات الأفكار السوداء.. أيام وسنوات وأحداث محفروه داخل الوجدان، كانت البيوت الحجرية من طابق واحد والأخرى من طابقتين مدعمه بالخشب البغدادلى متناثره..

المنازل من طابقين تمتد فيها حول الدور العلوى شرفة خشبية واسعة يزين حواجزها فتحات مزخرفة..

الحكومة شقت طريق مسفلت لامع يصل ما بين السوق بجوار مسجد الأربعين، يمتد يعبر السكة الحديد، يصل وحتى التقاء الترعة الحلوة مع البحر المالح، يفصلهما الهويس..

الشارع شارع صدقى، خارج السور الحجرى حول مئات الأفدنة من الحقول الخضراء تناثرت الأكواخ الصفيح، السور والأكواخ على الجانب اليسار من مدخل شارع صدقى بعد مساكن الدريسه عبر مزلقان حوش بضائع الجمرك القديم.. الحقول الممتده خلف السور معظمها يمتلكها عقدة بك وشحاته باشا سليم.. فى احدى الأكواخ الصفيح خارج السور الحجرى يقيم عبد الغفار..، أمام الأكواخ فى الناحية الأخرى من الشارع بنى الشيخ جليدان مسجده..

عبد الغفار يحب صلاة الفجر فى مسجد الأربعين، فرح عند اقامة مسجد جليدان، صحيح أن سيدى الأربعين له مكانه خاصة داخل قلبه ولكنها جميعها مساجد الله.. الشيخ رشاد مقرئ الجامع الجديد معجب بعبد الغفار التقى الورع وهو الصبى اليافع والذى لايتعدى السابعة عشر من عمره..

عبد الغفار يصحب الشيخ رشاد الضرير فى الفجر، الظهر، العصر، المغرب ، والعشاء إلى مسجد جليدان..

بعد صلاة الفجر وقف عبد الغفار أمام مسجد جليدان يتفقد صره نقوده، يعدها.. تسع جنيهات.. تتناقص، يشتكى همه إلى الشيخ رشاد.. بعد تفكير يقول الشيخ رشاد لعبد الغفار.. نحن على مشارف الصيف يا عبده.. افيدك بشئ هو ثروة.. إنه افضل من كنوز الملك سوس وديك الطابيه..

همهم عبد الغفار.. الملك سوس؟.. ديك الطابيه!!؟..

لم يسمع ابدا بهما.. لا يرغب فى أن يكتشف الشيخ الضرير جهله بما يعنى حديثه عن الديك والكنوز والطابيه.. واصل الشيخ رشاد الضرير كلامه.. عليك يابنى بعربة يد.. تبيع عليها الدندورمه.. هى غالية بما تحويه من علبة نحاس مطلية بالنيكل، وبرميل للثلج يحوى العلبة، ستكلفك يابنى مبلغا، وأنا أظن إنها سوف تعوضك بما ستدره عليك بإذن الله.. لم ينتظر عبد الغفار، فيما بين صلاه العصر والمغرب تقابل مع النجار.. ثم الحداد، السمكرى، جميعهم فى الأكواخ التى بجواره، حسبها.. سوف تتكلف ثلاثة جنيهات مصرية وربما تزيد قليلا..

فى اليوم التالى عند صلاة العصر تفقده الشيخ رشاد ولم يجده..

لما عاد عبد الغفار بعد صلاة المغرب حكى للشيخ..

ذهبت إلى معمل العربى للجيلاتى داخل المدينة بالحى العربى خلف الجمرك القديم، عرفت أن ملأ علبه الدندورمة جالونين يكلفنى حتى يكتمل صنعها جيدا خمس وثلاثين قرشا، أكثر من ربع الجنية بعشرة قروش، ركبتنى الهموم والمخاوف، قصدت عند عودتى جامع الغريب، صليت إلى الله مبتهلا سائلا العون والرشاد، أثناء عودتى مريت ببوابه الجمرك القديم، عبرت السكة الحديد، رأيت حوش البضائع ومساكن الدريسه القديمة.. وصلت إلى جوار التلال العالية فوقها أطلال الطابيه، تهدج صوت عبد الغفار وهو يحكى.. سكت. امتلأ خياله ببقايا جدران تنانير النيران فوق سفوح التلال العالية، مازالت حمرة النيران تلقى بلونها فوق اطلال الجدران، كأنها جمرا متوهجا تحت الرماد.. أعلا الهضبة بقايا بيوت بجدرانها المهدمه واسقفها الخاويه..

أعلى خط السماء بيت نوافذه مغلقة وبلمه سقف، جدرانه قائمة، فكر فى أنه مأهولا بالسكان، جوار المبنى مدفعان سوداوان فوق عجل نحاسى لامع، أمامهما جندى بملابسه

الكاكية تحت طربوشه الأحمر الفاقع ينحنى فوق واحدا من المدفعين..

المدافع والجندى بعيدا فوق الأطلال جوار المبنى على خط الأفق داخل عينى عبد الغفار فى حجم أصابع اليد الواحدة..

قطع الصمت صوت عبد الغفار يكمل حكايته للشيخ رشاد.. ساعتها فكرت فى حديثك.. دي الطابيه والكنوز.. دارت كلمة الكنوز داخل عقلى، رغبت فى تسلق السفح والوصول إلى سطح تل الطابية لأرى عن قرب الأطلال وبقايا المبانى المهدمه، تمنيت مقابلة هذا الديك الذى حدثتنى عنه، وددت لو علمت السر.. نظرت ناحية الفجوات والحفر بين الشارع وسفح التل، رأيت آثار الملح المتكلس العالق بطين الأرض الجاف، صعدت بنظرى ناحية امتداد السفح الحجرى المغطى بالرمال والحصى الصغير والأحجار المتناثرة.. رأيت الشقوق السوداء العميقة، بوغت بخروج طائر يرفرف زاعقا من أحدى الفجوات المظلمة، ارتعبت، اندهشت.. ظننته فأر بجناحين.. سمعت نفسى اهمس.. خفاش..!!.. هرولت.. واختفى الخفاش بين الأطلال البعيدة.. لم أر والظلام يبتلع كل شئ أى ديك أو حتى طائر أليف..

ضحك الشيخ الضرير من حكاية الفتى المهموم يومها..

حمد عبد الغفار الله بأنه منذ تلك السنوات البعيدة وقع فى عشق ليالى القرآن.. يسعى فى أثرها دوما، عرف جميع المقرئين، يسعد عندما يعلم أن الشيخ رشاد سوف يحى ليلة مأتم أو ليلة من ليالى الله..

قراءة القرآن وسماع التواشيح هى عشقه وحبه الذى ملك عليه كيانه..

يصحب الشيخ الضرير سعيدا، يفرح بالأستماع إلى تلاوة الشيخ ونغمات تواشيحه أكثر من سروره بمواعين الفتة وكتل اللحم..

الجميع يسعون وراء المواعين فى تلك الليالى، الحقيقة أن عبد الغفار يرضى معدته باللحم الذى لايتذوقه إلا فى تلك المناسبات، يحلم دائما بالمرق الذى لايشم رائحته إلا فى صحبة الشيخ رشاد..

سعادته التى تملك عليه قلبه هى فى الأستماع والتأمل فى كلمات الله.. تلك الليلة المحفورة فى ذاكرته لم يستمتع، جُل همه ينحصر حول الثلاث جنيهات والربع جنيه التى يجب أن يقتطعها من داخل صرته الغالية.. عليه أن يوفرها.. لا.. يقتطعها، إن لم يفعل

ذهبت باقى نقوده.. بل حياته هباءا منثورا..

انتهوا من الليلة المليئة بالتراتيل والتواشيح، عبد الغفار يقود الشيخ الضرير بين الأكواخ من الخشب والصفيح والبيوت ذات الطابق الواحد المبنيه من حجارة جبل عتاقة ومسقوفة من جريد نخيل الجناين وخشب البحر الآتى عبر الجمرك مع البمبوطيه..

عبد الغفار والشيخ يحثان الخطى بين أزقه وحوارى كفر النسوان، وجهتهما الأكواخ جوار سور أرض عقده الحجرى أمام مسجد جليدان.. لما اقتربا من الشارع المؤدى إلى مسجد الأربعين لمح عبد الغفار عربه الطعمية مغطاة وسط الأجساد المدده تحت الأثمال الداكنة جوار جدار الجامع، ارتعد.. سأله الشيخ وهو يضغط باصابعه حول عضد عبد الغفار.. برد يا عبده؟.. رد عبده من بين اسنانه.. ابدا.. احتج الشيخ.. أبدا كيف يا ولدى؟.. أنت ترتعش.. يجيب عبد الغفار فى حزن.. فكرت فى الشغل.. يشجعه الشيخ.. اجعلها على الله.. يجاريه عبد الغفار.. ونعمين بالله.. يقول الشيخ.. اشترى العربه.. يتساءل عبد الغفار فى قلق.. كيف؟.. يرد الشيخ فى حماس.. مثل الناس.. أسلفك.. يؤكد عبد الغفار.. مستوره الحمدلله.. يحسم الشيخ الأمر.. اشترى العربة وتوكل على الله..

يهمس عبد الغفار.. خائف.. يرد الشيخ فى ايمان.. من يتوكل على الله فهو حسبه..

يسمعان ديك يصيح من بعيد، يتوقف عبد الغفار، سأل الشيخ الضرير بدهشه.. وصلنا يا عبده..؟..

.. أتسمع الديك؟.. ممكن كون ديك الطابيه؟..

ابتسم الشيخ، دفع عبد الغفار يحثه على السير، همهم الشيخ..

.. الطابيه؟!! قال عبد الغفار بصوت حالم.. الكنوز.. قال الشيخ.. الفجر بعيد، المؤمنون نائمون، الديك لايؤذن إلا قبل الفجر بثوان، اذانه يكون لمؤمن، الطابيه بعيد..

– من صاحب الكنوز؟ ..

– ملك عظيم.. الملك سوس.. ملك السويس فى قديم الزمان..

– كنز مرصود هو؟..

– مرصود لايفك رصده إلا مؤمن..

– الملك سوس مسلم؟.

– ملك مـؤمن.. من زمـان.. فى زمن الفسـوق والعـصيـان رصـد الملك كنوزه بـأسم المؤمنين.. لما عم الفسق والفجور راحوا تحت الزلزال.. خسف بهم الله الأرض.. من يومها كل المؤمنين منتظرين الديك الذهبى، ينتظرون سماع صوته قبل الفجر بثوان.. الديك هو طلسم الكنوز..

– ألم يظهر يوما؟..

– لن يظهر إلا لصاحب النصيب.. المرصود له..

– ما حكاية الرصد تلك؟..

– علم من الشيوخ والكهان.. امرهم الملك سوس وهو كبيرهم أن يرصدوه باسم.. يخرج به الطلسم للمؤمن فى اليوم الموعود من تحت أرض الزلزال..

– تخاريف يا عم الشيخ..

أنتفض الشيخ رشاد وهو يشد على زند عبد الغفار، هتف بصوت منخفض..

– استعذ بالله.. استعذ بالله..

– اعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

– اسمع يا عبد الغفار.. جدى حلف اغلظ يمين.. ابوه رأى بعينيه لما كان يعمل مع السلطة ويقوم بحراسة الأردى..

قاطعة عبد الغفار مندهشا..

– الأردى.. ؟..

– نعم.. تلك الأسوار العالية خلف الطابية، قصر مملوكى قديم، السلطة تستخدمه سجن الآن..

– سجن؟..

– سجن ترحيل.. البيت المملوكى يجاور جامع.. جامع سيدك الأنصارى..

– سجن.. وجامع؟..

– موجودان كل الناس تعرفهما.. المماليك وبعدهم محمد على بنوها..

– محمد على؟..

– محمد على باشا الكبير.. جد مولانا حفظه الله.. المهم.. جدى أقسم أن أباه أخبره أنهم كانوا يبحثون عن كنوز الطابيه، عثروا على سرداب، نزلوا السرداب، تتبعوا مساره، وصلوا أمام بئر مطموره، حفروا حتى وصلت معاولهم باب السرداب تحت مياه البئر العميقة، المياه فى البئر تحت التراب عذبه لاتجف، هذا رغم وجوده تحت سطح البحر المالح!! تلك البئر يا عبد الغفار موجوده ما بين مدخل جامع الأنصارى وحوش الأردى.. حفروا البئر وعزلوا المياه ودخلوا من الباب.. امتد بهم سرداب آخر تحت الأرض طويل ملتوى قادهم إلى أحد الغرف السريه فى أطلال الطابيه.. كانت هذه الغرفة مجهوله، يقولون عن تلك الغرفة أن بها باب آخر متصل بسرداب آخر على نفس عمق السرداب الأول، الغرفة تصل بين السردابين.. تمشى فيه العساكر والمساجين من المغضوب عليهم.. تصور يا عبده.. يمتد هذا السرداب وحتى غرفة مجهوله لم يصل إليها بشر فى داخل أسوار القلعة..

– أى قلعة؟..

– قلعة محمد على فى مصر..

أشاح عبد الغفار بوجهه، قال فى سخرية..

– قلت لك تخاريف..

– قلت لك استعذ بالله..

– اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. وصلنا يا عم الشيخ... تلك الليلة وصل عبد الغفار إلى فراشه داخل عشته الصفيح منهكا، ارتمى فوقه مرهقا، يحس باضطراب معدته، عدم قدرتها تحريك كمية اللحم التى التهمها، ثوم الفته وتوابلها تملأ برائحتها فمه وانفه وصدره.. حرقة المرق كانت لاذعه، استسلم إلى نوم انتابته فيه الهواجس والكوابيس.. استيقظ منزعجا، كان خفاش ضخم ملتصق بوجهه تحت شق عميق فى جدار تل الطابيه، الشيخ رشاد وقف يدق بقدم دجاجة ذهبية فوق جمجمة عظيمة تضع تاج ذهبى مكتوب عليه الملك سوس.،، يحاول طرد الخفاش.. استعاذ عبد الغفار بالله من شر خلقه، مسح عرق وجهه بجلبابه الرث المفرود بجواره.. تمدد مرة أخرى يبسمل، استسلم للنوم بسرعة.. رأى الديك الذهبى كما وصفه الشيخ رشاد، الديك يجر عربه يد، العربه عليها قبه يعلوها

هلال من النيكل اللامع، إنها عربه الدندورمه بألوانها الزاهية، المظله البيضاء تعرشها، ديك الطابيه الذهبى يشدها.. وقف الديك أمام العربة قبالته.. صاح الديك مؤذنا...

فى يوم كأنه الأمس جلس عبد الغفار أمام الكوخ تحت أشعه الشمس يعد نقوده.. ثمانية جنيهات وستون قرشا.. خلال أيام قليلة انفق أكثر من خمسين قرش، استحوذت عليه الكآبه، تذكر الأحلام والكوابيس، يفكر جديا فى شراء عربة اليد، وعده خميس العامل عند معمل العربى للدندورم بمساعدته حتى يتقن عمل الجيلاتى، طمأنه أنه سوف يشرح له ويصف ويعمل معه التجهيزه، لن يتركه حتى يتأكد من استيعابه لحرفتها.. الوقت مازال مبكرا، لايوجد بشر غيره يجلس تحت أشعة الشمس الدافئة.. بعيدا على امتداد البصر شاهد شخص وحيد قادم نحوه.. ميزه.. يلبس قميص وبنطلون، يقبل عليه من ناحية السكة الحديد.. المزلقان بعيد، الشمس خلف الرجل القادم، عرفه من مشيته، دق قلبه.. اقترب الرجل، هتف عبد الغفار بسرور.. جميل..

نهض من مكانه يهرول فى لقاء القادم، احتضن اخيه بشوق، سأله بلهفه عن أمه زين، فى خجل.. كيف حال عزيزه؟..

جميل أخوه قوى، طويل، عريض، ملامحه جميلة، أنفه دقيق، شفتاه خفيفتان ، حواجبه كثيفة، لون عيناه يميل إلى الأخضر، شعره أسود ناعم، كثيف متموج، يشع بحسنه وفتوته، يفرد صدره ويشد وسطه، يرتدى ملابس أفرنجية قديمة، نظيفة وغير مفروده، يحمل فوق كتفه اليمين كيس به حاجياته..

تحدث يبلغ عبد الغفار.. أمه فى شوق إليه، عزيزه فى انتظاره أو حتى رسائله، أمه تحاول بيع الدار حتى تلحق به، الدار إلى اللحظة التى ترك فيها جميل أحمدية البحر لم يأت بالسعر المناسب، لم يثمن باكثر من عشرين جنية ثمنا للدوار والأرض المقام عليها.. خساره!!.. الدوار متسع، بنوه على نصف قيراط، قريبا من الحقول، أمه تحاول رفع سعر الدوار إلى ثلاثين أو حتى خمس وعشرين جنيها..

عبد الغفار لا يرد، يفتح فمه ويغلقه، أخيرا تركه مفتوحا تكسوا وجهه علامات الحيرة..

جميل يجلس أمامه فوق الأرض، أسند عبد الغفار ظهره إلى السور الحجرى لغيطان عقده، من فوق كتف جميل يرى مسجد جليدان بخطوطه العريضة البنية الداكنة، مئذنته

القريبة، يسار الجامع وعلى امتداد البصر تمتد الأرض تتناثر فوقها المنازل ذات الدور الواحد والأكواخ الطينية وتلك المقامة من الخشب والصفيح.. تلك البنايات المتناثرة المكونة لحوارى وأزقة غير مكتملة لاتخفى زرقه البحر بعيدا هناك وهو يلتقى بالسماء.. اشتد حنين عبد الغفار إلى دوارهم، البحر الحلو، المراكب الشراعيه، الحقول المتراميه، النخيل الباسقه بثمرها النضيد، آذان ألف ديك وديك.. الرغبة عارمه تشده من الحنين، تجذبه من الذكريات، تلوح له أمواج البحر المتتالية المتسابقة، امتداده المرعب اللامتناهى، السفينة تسد الأفق تطاول بدخانها السحاب فوقها، آذان الفجر فى مسجدى الأربعين وجليدان.. الشيخ رشاد وليالى القرآن والتواشيح، الفته وكتل اللحم، نكات الشيخ الضرير اللاذعه..

نظر عبد الغفار في وجه أخيه الجميل، سمعه وكأنه يتحدث من وراء حجاب.. هه.. ما رأيك.. رد دون أن يدرى أو يعرف.. ربنا يقدم مافيه الخير.. تحول مرة أخرى ينظر من فوق الكتف الأخرى لأخيه، ناحية اليمين من جامع جليدان.. حارة جديدة.. على ناصيتها بيت سائق القاطرة الحديدية الحاج عباس حلمى، لم تستطع المنازل المتناثرة كأنها نبت فى فم طفل صغير أن تخفى عند آخر امتدادها تلال الطابية تحجب السماء بعيدا هناك..

تفاصيلها غير واضحة، محفوره داخل وجدان عبد الغفار.. الأطلال.. المدافع السوداء فوق عجلاتها النحاسية اللامعه أعلا التل، أسوار الأردى، جامع الأنصارى بقبته الكبيرة ومأذنته الطويلة الرفيعة، الجب والسرداب العميق تحت مياه البئر الغائرة، العساكر يسوقون المساجين فى أعماق السرداب السرى المظلم، يغطى صوت انفاسهم اللاهثه صليل السلاسل الحديدية حول كواحلهم ومعاصمهم.. فى مكان ما هناك تحت المدينة القديمة وأطلال الطابيه تحيطها تنانير النيران المجوسيه يتحفز الديك الذهبى المرصود.. يكاد أن يسمع حفيف ورفيف الهواء حول أجنحته اللامعه، ينتظر سماع صياحه، يومها وقبل الفجر بثوان سوف تنشق الأرض، يرى الكنوز.. كنوز الملك سوس..

.. فى الليل عبد الغفار يستغرق فى نوم عميق، الظلام مازال يلف الكون.. تحرك بجسده فوق العنجريب الخشبى، الحقيقة هى بعض الصناديق الخشبية مدعمه بالحجارة الثقيلة داخلها، فوقها لوح من الخشب رمى به البحر إلى الشاطئ، لم يكلف عبد الغفار غير حمله، صدرت عن الأخشاب المفككة أصوات تدعو إلى القلق والرهبه..

فتح عبد الغفار عينيه، الظلام والسكون، نظر ناحية جدار الكوخ حيث يفترش جميل الأرض تحته لم تقابل عيناه غير الظلام الحالك، مد عنقه يرفع رأسه.. خمن بأنه لا يوجد غيره داخل الكوخ..

جلس عبد الغفار فى فراشه شعر البروده، ضم ساقيه إلى صدره متكورا فى جلسته، لف ذراعيه حول ركبتيه، مال برأسه فوقهما..

جميل أخى.. صبى مزين، الجميع يشهدون لأصابعه، ضحوك، يحبه الناس، واعى.. ياترى هل يستطيع الحاقة بالعمل فى صالون الحاج أبو زيد؟.. عمل يغير من أحوالهم.. الحاج أبو زيد يمتلك صالون حلاقة متسع مبنى بالطوب فى مدخل شارع صدقى، داخل صالون الحلاقة أربعة كراسى..

لم ير فيهم واحدا خاليا مرة منذ وصوله، لو وقف جميل يعمل أمام أحد تلك الكراسى لن يقل دخله اليومى عن خمسة قروش.. ايجار العشه فى شهر كامل.. انتبه يسمع صياح ديك بعيد، فرد ذراعيه يتمطى، تثاءب وهو يغادر الفراش، لمح باب الكوخ منفرجا عن فتحه ضيقه، توجه ناحيته، رأى النجوم تلمع فى سماء صافيه، ندى الفجر يغطى صاج الباب.. اخوه جميل تحت غبشه النجوم ولمعه السماء يتوضأ من علبه صفيح بين يديه، ابتسم عبد الغفار، تعجب أنه لم يسمع الآذان، كان يغط فى نوم عميق، هتف فى صوت ودود.. صباح الخير.. اتجه جميل نحوه، قطرات الماء تتساقط من وجهه وساعديه العاريتين..

-يسعد صباحك يا أخى..

– من زمزم أن شاء الله..

– مع بعض يا أخى باذن الله..

وضع عبد الغفار كفه فوق فتحه فمه وهو يتثاءب، قال بصوت معوج من خلف اصابع يده..

– لأول مرة لا أسمع الآذان..

– لم يؤذن بعد..

توقف عبد الغفار عن التثاؤب، حك رأسه، حك فخذه، نظر نحو أخيه مفكرا، لم يؤذن بعد؟.. هل أخوه يتوضأ لصلاة العشاء؟.. انهما صليا العشاء سويا جماعه فى مسجد

جليدان.. سأل..

- كم الساعة؟..

- تبقى عشرة دقائق علي الفجر..

حك عبد الغفار رأسه مرة أخرى، انفرجت أساريره، دخل لكوخ خلف أخيه، توجه ناحية مصباح الغاز الموضوع فوق صفيحه منكفئه بركن الكوخ، قرص زر شريطها، ملأ الضوء الخافت العشه..

جميل يبسمل ويحوقل ويشكر وهو يجفف قطرات الماء عن وجهه وساعديه.. سأل.

- تعرف عيسى النجار؟..

أجاب عبد الغفار مستغربا السؤال المفاجئ..

- اعرفه.. عز المعرفة..

-اتفقنا لنتقابل بعد صلاة الفجر..

- خير ان شاء الله..؟..

- خير .. يعرف مقاول عمال اسمه حسين الأعمش..

- مقاول البحر؟..

- عفارم.. مقاول البحر.. يحتاج عمال للميناء والغاطس..

- عمال تحميل؟..

- نعم.. اليوميه عشرة قروش..!!..

نظر عبد الغفار ناحية أخيه نظرة حالمه، جميل يبتسم، هتف عبد الغفار..

- عشرة قروش..؟..!..

- عشرة قروش.. الأعمش يخصم منها فى الأسبوع الأول ثلاثة قروش عن كل يوم.. بعدها قرشين عن كل يوم..

- اللص!!؟

- هذا هو ..

سكت الأخوان، تحرك عبد الغفار يملأ العلبه الصفيح بالماء من الزير جوار باب الكوخ من الداخل، جميل يرتدى بنطلونه، سأل عبد الغفار..

– ممكن أى إنسان يشتغل؟..

– مادام بصحته..

– استطيع مرافقتكم؟.

– اتمنى هذا..

تهلل وجه عبد الغفار، ترك العلبه الصفيح المليئة بالماء على الأرض، اتجه ناحية اخيه، احتضنه قال بصوت مؤثر..

– الحمدلله، ربنا فرجها، والله يا أخى أنت أحسن من ديك الطابيه.. نظر إليه جميل مندهشا، تساءل متعجبا..

– ديك الطابيه؟..

– نعم .. والأكيد أنك اتيت تدعونى قبل الفجر بثوان، والله أنت اصح.. نظر جميل إلى عبد الغفار متحيرا، حاول أن يستفسر، سمعا آذان الفجر بعيدا هناك من جامع الأربعين، لما حاول جميل أن يسأل.. جاءهما صوت الشيخ رشاد من جامع جليدان، قويا عاليا يؤذن بحلول فجر يوم جديد.. سمع عبد الغفار زعيق وهرج، خرج من ذكرياته، رجع إلى يومه الذى هو فيه.. الضجة آتيه من جهه السكة الحديد.. المُكن يجرى بأقصى ماتستطيع قدميه أن تحمله، يلم طرف جلبابه بأسنانه، تعثر، أستند على ذراعيه فوق الأرض.. وقف وقد انثنى ظهره، واصل تقدمه مسرعا..

جمع من الناس ورائه، أطفال وغلمان وشباب، جميعهم يقذفونه بالحجارة، شاهد عبد الغفار الدماء تلطخ لحيه المُكن البيضاء المتسخه، خيط الدماء ينساب من بين تكويرات شعر رأسه الفضى المهوش المتكور فى لفافات قذره متداخله يتخذ طريقه بلونه القانى فوق جبهته الضيقة الداكنة، يغذى البقعة الكبيرة المفترشه لحيته..

وصل المُكن إلى عربه عبد الغفار، جلس يلهث خلف العربه يحتمى بها من حجارة المطاردين..

توقف الناس عن قذف الحجارة، تجمعوا حول العربه أمامها عبد الغفار وخلفه «المُكن» جالسا على الأرض، تقدم شاب قوى، سحب المُكن من شعره على الأرض، تجمع عديد من الأولاد يضربون «المُكن»، يركلونه بأقدامهم، يدفعونه بأيديهم كلما حاول النهوض، يتأوه

بصوت مكتوم، يعلو صريخ الأولاد.. اليهودى.. اليهودى.. الاسرائيلى.. الجاسوس، يبصقون عليه.. تدخل عبد الغفار يحول بينهم وبينه، يزعق بأعلى صوته.. حرام .. حرام.. حرام يا مسلمين.. الرحمة يا عباد الرحمان..

نال عبد الغفار دفعات وركلات، أصابته قبضاتهم، جذبه واحد منهم من ياقه المعطف الأبيض الذى يرتديه فوق جلبابه، مزقها، وقع عبد الغفار والدماء تسيل من أنفه وفمه، توقف الجمع عن الركل والضرب، صرخ الشاب القوى.. انتبهوا.. انتبهوا.. انتبهوا.. تضربون عم عبده ياحيوانات..

«المُكن» منكفئا على وجهه فوق الأرض، عبد الغفار عند رأسه يقعى على ركبته.. فاردا ذراعيه ليحمى جسد المُكن، صدره يعلو ويهبط بشده، الدماء تتساقط من أنفه، تعير شفتيه، تختلط بالدماء من فمه فوق فكه، حبات قانيه الحمره تتساقط على المعطف المزق فترسم بقعا مستديرة كبيرة، مال عليه شابان يساعدانه حتى يقف، وقف، دفعهم فى صدورهم وهو يترنح، صرخ فيهم.. أهذا معقول.. تقتلون الرجل الغلبان.. ؟.. لأى سبب؟.. لأجل أنه ضعيف؟.. ألا ترون شيبته؟..

المُكن لا يتحرك فى رقدته، يسمعون صوت نشيجه المكتوم، قال فى صوت مخنوق وهو يدفن وجهه فى الأرض.. الهزيمه قادمه يا غنم.. اسقطنا الف طائرة.. التتار قادمون يا غنم..

صاح ولد وسط الجمع.. اسكت ياجاسوس يا ابن الكلب.. تقدم آخر يحاول ركله، دفعه عبد الغفار فى صدره يبعده.. قال وهو يحجز الدماء المتساقطه من أنفه بالطرف المزق من المعطف.. هل جننتم يا شباب السويس..؟.. الا تعلمون أنه ليس على المخبول حرج؟.. أتعاقبونه على فقدان عقله وهو لادخل له فى ذلك؟.. ألا تخجلون؟..

زعق شاب منهم.. أنه ليس مجنونا ولا مخبولا يا عم عبده، أنه جاسوس.. طابور خامس.. لازم نحرقه.. ردد الغلمان.. نحرقه.. نحرقه الكافر.. زعق عبد التواب.. والله انتم المخبولون.. هل الجاسوس يأتى ويحذر؟.. الرجل يحذركم بما حدثه به عقله المضطرب، انتم لاتريدون الأستماع.. مخكم وارم.. لاتتصورون خبله ومايقول.. بدلا من تنفيس غيظكم فى هذا العجوز المخبول انصرفوا لأموركم وامور بلدكم، على الأقل توسلوا وادعو الله أن

ينصرنا.. ينصر ابنى رخا ومن معه، أن لا يفرح فى هزيمتنا عدو، لاتتحملوا دمه، دعوه لله هو أعلم بحاله.. هيا.. هيا انصرفوا إلى حال سبيلكم..

ترددوا.. سكتوا.. أتاهم صوت صفارة الأنذار المتقطع ينعق.. لأول مرة منذ زمن بعيد فى اجواء المدينة.. انصتوا إلى صوتها الرهيب.. نظروا ناحية السماء، بدأوا فى الأنصراف واحدا تلو الآخر..

انحنى عبد الغفار فوق «المُكن» يجلسه، جلس.. الدماء تلوث شعر رأسه ولحيته الأبيضين المخضبين بالغبار والتراب، جبهته ويداه ملأتهم الندوب والجروح الداميه، عينه اليمين مغلقة بتورم مخيف أزرق داكن.. قال عبد الغفار.. بالله عليك تب عن هذا اللغو الذى لا طائل ورائه.. نظر المُكن إليه بعينه اليسار الدامعه، هتف بصوت مخنوق وهو يرفع يديه فى ألم واضح.. من رأى منكم فليغيره.. استند على الأرض يحاول الوقوف.. سقط.. مال عليه عبد الغفار يساعده، وقف بصعوبة.. سأله.. احضر لك الأسعاف يا مُكن.. ارتعش وهو يدفع عبد الغفار فى صدره.. أحضر الأسعاف للمضروبين يا غبى..

ابتعد يتعثر لاتكاد أن تحمله قدماه، اتجه ناحية المستنقعات فى الكورنيش القديم، تعلق به نظر عبد الغفار حتى اختفى ناحية جامع الانصارى.. سمع عبد الغفار صفاره الأمان تنطلق، همس.. إلى أين تذهب يا ملك سوس؟.. هدموا الطابيه، نقولها بآلاتهم.. بنوا بها مستقعات.. اراك تتجه إلى المستنقعات.. هل الديك الذهبى هناك تحت الردم؟.. أم تراك تختفى الآن فى السرداب تحت جامع الأنصارى؟.. يضربونك، يودون قتلك مع أنك مقتول.. كما قالوا أنك خزعبلات يقولون الان أنك جاسوس.. أدعو الله أن تتضح الحقيقة قبل الضيا ع وفوات الأوان..

دفع عبد الغفار عربته.. افكاره لاتستقر، قلبه منقبض.. يعبر حارة أبو خندق، على ناصية الحارة مع شارع صدقى رأى منضدة خشبية قديمة متهالكه تغطيها طبقات من بقايا زيت محترق ومتجلط، جوارها عدد من الصفائح القذرة وبعض الأوانى الملطخة بآثار بقايا تختر زيت طعام مختلطا بالغبار.. طاوله خبز خشبية مستطيلة وفارغه، ماشاهد أعاده يهيم مرة أخرى فى بحور تلك الأيام البعيده الحبيبه.. فى نفس المكان.. اقام عم شعبان صندوق خشبى كبير ملاصق لجدار منزل عباس حلمى من جهة مسجد جليدان.. وضع

شعبان فوق الصندوق موقد غاز عليه ماعون أسود واسع ملأه بالزيت.. زوجة عم شعبان تقف جواره، تضع طاولة الخبز الساخن من فوق رأسها على صندوق خشبى صغير جوار الصندوق الكبير، اتت بالخبز توا بعد صلاة الفجر من فرن الأومباشى، زوجة شعبان بيضاء كالقشطة ممشوقة القد كعود الملبن، مستديرة الجسد مثل البطه، شعبان قصير رفيع يرتدى جلباب خفيف وطاقيه صوفيه بنيه اللون كالحه، شاربه ينازع انفه فى الحجم الكبير فوق صفحة وجهه الرفيع الداكن..

سحب شعبان ماعون نحاسى مرتفع الحوافى عميق ملئ بعجينه الفلافل.. اقتطع بيده اليسرى قطعة كبيرة من العجينه، بأصابع كفه اليمين يكور قطعة صغيرة يأخذها من كفه اليسار، يلقى بها فى الزيت المغلى فوق الموقد أمامه أعلى الصندوق الكبير، صوت اصطدام قطع العجينه المكوره الطازجة بالزيت الساخن يوشوش اذان المحيطين بشعبان وزوجته والصندوق..

يحيطونهم فى صمت، ينتظرون متلهفون..

تصل رائحة طعمية شعبان وتتسلل إلى البيوت المتناثرة خلف منزل عباس حلمى.. تنساب الرائحة فتعبر شارع صدقى إلى قاطنى الأكواخ الطينيه وتلك الأخرى المقامه من الصفيح، تفتح أبواب الدور، يخرج الرجال والنساء والأطفال فرادى، يتجهون ناحية الدائرة المحيطة بعم شعبان، يقفون ينتظرون.. يقف عبد الغفار وأخوه جميل معهم عيسى النجار وسط الدائرة حول عم شعبان وزوجته وموقدهم فوق الصندوق..

جميل تائه بعينيه الجميلتين فى وجه زوجة عم شعبان، عبد الغفار ينظر ناحية الموقد فوقه الماعون ملئ بالزيت المغلى تسبح داخله حبات الطعميه.. أعجبت الفكرة عبد الغفار، همس عيسى النجار..

– لن يمر وقت طويل وترى شعبان يبنى الأرض الفضاء المقابلة مسكنا ودكانا..

– غمغم عبد الغفار وهو يفكر..

– لعل السر فى ديك الطابيه..

انتبه له جميل مستفسرا، للمرة الثانية هذا الصباح البعيد يذكر امامه الديك..

– سر الديك؟.. أى ديك هذا؟..

- ديك الطابيه..

- الطابيه؟..

ابتسم عيسى النجار ظهرت أسنانه الصفراء من كثرة التدخين.. همس..

- ديك الملك سوس المرصود..

ارتفع صوت جميل محتجا ساخرا..

- ديك!! الملك سوس!! مرصود!! ما هذا؟..

انتبه الناس فى الجمع اليهم.. ارتفع صوت رجل من وسطهم..

- تخاريف.. جهل.. جوعانين..

جاء صوت امرأة مستنكرا..

- استعذ بالله.. بسم الله.. الديك مرصود لصاحب النصيب..

سمعوا صوت صبى داخل الدائرة..

- كوكو.. ككوا..

غطت ضحكات كثيرون منهم استعاذة آخرين بينهم، تناول عبد الغفار لفافه الفلافل الساخنه وارغفة الخبر الطازج من يد عم شعبان، جميل ينظر داخل عينى زوجة شعبان، خرجا من وسط الجمع معهما عيسى النجار وهم يقضمون الخبز الصابح ويزدردون قطع الطعمية الساخنة.. وصلوا ميدان الأربعين بعد أن انتهوا من افطارهم، تقدمهم عيسى النجار إلى مقهى عباس المقابل لمسجد الأربعين، رأوا جمع من الرجال، اقتربوا منهم، سلم عيسى النجار على بعض منهم وهو يلقى بالتحية إلى الآخرين..

- السلام عليكم..

ردوا التحية، اندس الأصدقاء الثلاثة بين الرجال، قبل أن يندمجوا فى الحديث رأوا رجل قصير سمين، فوق رأسه طاقيه من الصوف الكحلى، يرتدى ستره زرقاء غامقة، تحتها جلباب رمادى زاهى، يرمش بجفون جرداء كالحه.. يلتفت حواليه طول الوقت، قال وهو يرفع ساعديه..

- السلام عليهم.. جاهزين؟.

- جاهزين ياريس..

حرك جفونه بسرعة وبشدة، التفت ناحية اليمين ثم ناحية اليسار، تحدث فى حزم..

- القروش.. القروش يا شباب.. ثلاثة وأثنين..

اخرج ورقة مطويه من أحدى فتحات سترته الزرقاء، فردها، تناول قلم كوبيا من الفتحة الأعلى فى السترة، بلل القلم بلسانه، تقدم الرجال ناحيته وهم يضمون اصابع كفوفهم حول القروش، أكثر الكفوف تحوى قرشين، آخرون مترددون داخل كفوفهم الثلاثة قروش.. همس جميل..

- دمياطى؟.

رد عيسى النجار بصوت منخفض يحيطه لغط الرجال وهم ينطقون اسماءهم..

- بور سعيدى.. بورسعيدى..

سأل عبد الغفار..

- مالذى أتى به؟.. عندهم بحر مالح هناك..!!..

همس واحد من الرجال جوارهم وهو يبتسم..

- بلد الغريب.. ديك الطابيه هنا..

تركهم الرجل متقدما، أتبعوه ناحية حسين الأعمش..

المقاول يدون الأسماء بقلمه الكوبيا بعد أن يبلله بلسانه، ينظر إلى الجديد منهم نظره متفحصه قبل أن يضع القروش فى جيبه..

انتهى المقاول حسين الأعمش سريعا من جمع القروش وتدوين الأسماء، طوى الورقة ثم وضعها بحرص مكانها داخل فتحه سترته الزرقاء، مشى يحيط به الجمع الغفير من الرجال، يختفى بجسده القصير المستدير بينهم.. جوار سور السكة الحديد تدافعوا إلى صندوق سيارة نقل كبيرة، تكدسوا بداخله، السيارة قديمه متداعيه، تهتز وهم داخلها بشدة، تصدر منها أنات غريبه متباينه، تنطلق بهم فى اتجاه الميناء.

نظر عبد الغفار إلى الرجال حوله داخل صندوق السيارة، أكثر من ثلاثين رجلا، قرشان من كل فرد، أى ستون قرشا، ربما تكون هناك سيارات أخرى.. يعنى جنيه أو جنيهين فى اليوم، لاكد ولا عناء.. ياه.. كنز.. يا مقسم الأرزاق.. يا الله.. اهدنا بآذان الديك فوق الطابيه قبل الفجر.. أننا مؤمنون.. تنفتح الأرض، تظهر الكنوز..

أى كنوز تلك أسفل تراب الأطلال؟.. ما شكلها؟.. ماعددها؟.. مما تتكون؟.. ذهب؟.. ياقوت؟.. الماظ..؟.. ورق أحمر؟.. يجب أن أعرف، يجب أن اعلم توقف خيال عبد الغفار، خرج من ذكرياته العتيده عندما وصل أمام مسجد جليدان.. كان يدفع عربته أمامه فى طريقه ناحية الهويس، لمح جنود بملابسهم الكاكية تغطيهم ذرات رمال الصحراء، خوادتهم على أكتافهم.. رءوسهم ووجوههم مغطاه بالغبار، ملامحهم يكسوها الأعياء والاصفرار، لايحملون أى نوع من السلاح، الناس يحيطون بهم، توقف عبد الغفار برهه.. نظر إلى الجمع وسطه الجنود، جذب النفير الذى يعلن بنفخه وصول عربته محمله بالآيس كريم فيأتى الأولاد على صوته العالى الرفيع..

نفخ فى النفير نفخات متقطعة كأنها صفارة الخطر.. وضعه مكانه فوق عربته، أشاح بوجهه بعيدا عن جمع الناس، استمر فى طريقه يدفع عربته مبتعدا فى سرعة ناحية الهويس، يهرب بأفكاره بعيدا، لايريد أن يعرف، يتمنى أن لايجيبه أحد، يود أن يتوقف الزمن عن طى المسافات والأحداث، يعود بذاكرته إلى ما كان فيه من الأحداث والأيام..

... اهتزت السيارة المتداعيه بشدة قبل أن تقف داخل الميناء، مثل ما صعدوا إلى صندوقها اندفعوا تاركينه وراءهم فارغا..

اجتمعوا فوق واحد من الأرصفة بالميناء، أمامهم زرقه البحر بأمواجه المتتابعه.. تسد واحدة من البواخر الأفق أمامهم، عملاقة ضخمة، أكبر مما تصوروها.. لايدانيها فى الحجم أكبر البيوت فى المدينة، تعبوا من النظر إليها، وراءهم وحولهم صناديق وأجوله.. من بعيد بشر مهرولين، سائرين، مقتربين، مبتعدين، شموا رائحة البحر تختلط بها روائح ما تحويه الصناديق والأجوله المكدسة من بقول وأشياء لا يعرفون محتوياتها، رائحة البحر أقوى، نفاذه، مرغوبه، تنعشهم، تخفق لها قلوبهم..

رأوا رجال متجهين ناحيتهم، أمامهم رجل طويل رفيع فوق رأسه قبعة، يرتدى ملابس افرنجية لم يرا أجمل منها، عيناه زرقاوتان، يبدو أنه لا يتكلم بجواره شاب قصير، يتحرك فى سرعة ونشاط، شعره اسود غزير، عيناه سوداوان تلمعان، أبيض البشرة، يرتدى قميص نصف كم أبيض، بنطاله رمادى داكن، حذاءه أسود لامع، انبهر الجميع بمشهد الرجلين، انهم من غير البشر نظافة وجمال، سمعوا صوت القصير يتحدث فى رطانه

- صباح الخير يا رجال..

همهم الرجال يردون التحية، همس عيسى النجار إلى جميل..

- الخواجه سبيرو..

واصل الرجل القصير الجميل حديثه برطانته الاجنبية..

- اسمى سبيرو عنصره.. أنا فلاح.. مصرى مثلكم..

اندهش الرجال، الرجل لسنه معوج، يقول أنه فلاح، غريبه!!..

سبيرو يبتسم لهم فى ود.. اطمانوا إليه، اقتربوا منه يبتسمون.. تكلم الرجل يكمل حديثه الودود معهم..

- اسمعوا يا حبايب.. الكبار منكم.. يعنى فوق الثلاثين يعملون هنا على الرصيف.. الشباب.. أدام الله عليهم صحتهم.. يركبون اللنش.. يخرجون مع الصالات للغاطس..

تلفت عبد الغفار بعينيه يبحث عن أخيه جميل ورفيقهما عيسى النجار.. تصك أسماعهم كلمات جديدة عليهم، الرصيف الغاطس، اللنش، الصال، الهتش، العنبر.. سمعوا وسمعوا ولم يستوعبوا بعد، دق قلب عبد الغفار وهو يتحرك ناحية البحر، رأى القارب البخارى كبير.. كبير.. أكبر من مركبين شراعيين عندهم فى أحمدية البحر، رأى الرجال وهم يقفزون من أعلى الرصيف إلى داخل القارب البخارى، جسم القارب يتمايل، سمع خبطات اصطدام جانبه فوق الكاوتشوك المتراص مشدود على طرف الرصيف الحجرى فوق مياه البحر..

دارت الدنيا أمام عينى عبد الغفار لما نظر ناحية المياه المتماوجه داخل الفجوة العميقة السوداء بين جانب القارب وحافة الرصيف.. سمع صوت لطم المياه لأحجار الحاجز الحجرى يرعد داخل اذنيه، ارتعش جسده.. أخوه جميل كاد أن يسقط فى الفجوة المخيفة، تقدم عبد الغفار تحت دفع الأيدى فى ظهره، أحس بجسده وهو يقفز بغير حساب، يبدل بقدميه فى الفراغ فوق الفجوة المرعبه، يمد ذراعيه للأمام، شفتاه مرتعشتان وهو يبسمل..

جذبته الأيدى داخل القارب بقوة، تفادى السقوط على وجهه، تساند على أجساد الرجال داخل صندوق القارب البخارى المتمايل المتراقص، سمعهم يتصايحون.. قال واحد منهم.. جديد.. أول مرة.. رد آخر.. غشيم.. سمع عبد الغفار طقطقه.. هدير.. ضوضاء

شديدة.. قوية.. وضع كفيه فوق اذنيه، جلس فوق أرض القارب الخشبية القذرة، تلفت حواليه، قابلت عيناه سيقان وأقدام الرجال حوله، الأرض الخشبية تتمايل بشدة، ترتفع مرة ناحية اليمين فى زاوية حادة، تهبط فى عنف، قبل أن تستوى ترتفع مرة أخرى متحدية خوفه إلى اقصى مداها ناحية اليسار..

.. وهو فى تقدمه يدفع أمامه عربة الآيس كريم شم عبد الغفار الرائحة التى يميزها جيدا، اختلط عليه الخيال والواقع.. داخل خياله ذكريات يحوطها البحر، أمامه الآن نفس البحر المالح، يمتد بصفحته التى لا حدود لها، تتفاوت درجات اللون فيه.. حول الازرق..

شاهد صفا طويلا من الجنود قادمين فى اتجاه طريق الجناين، أكد من طريقه سيرهم انهم مخذولين، اشاح بوجهه بعيدا، لا يريد أن يتذكر، لم تمر غير اعوام قليلة، نفس العودة..!!.. هل هذا معقول؟.. لا.. لا..

انه يتوهم.. أنهم جنود من المدينة، ليسوا عائدون من جبهه القتال.. القتال اليوم كما سمع وعرف على أشده فى كل الجبهات، المذياع كل دقيقة يذيع بيان اسقاط عدد كبير من طائرات العدو، الواضح أنها معركة بين المدافع والطائرات..

قال لنفسه.. فى الماضى راينا جنودنا بعد ثلاثة أيام طاحنه ضاريه وبعد أن تدخل الانجليز والفرنسيين لصالح العدو، اليوم لم تمر على المعركة ساعات قليلة واسرائيل وحدها، سنلقى بها فى البحر ان شاء الله.. كان عبد الغفار يحدث نفسه بصوت عالى، واصل كلامه.. هؤلاء ليسوا جنودنا.. إنهم بدون سلاح.. تغطيهم الرمال والعرق، وجوههم تكتسى بالمذله والهوان، أما جنودنا نحن فهم البواسل الشجعان، هم من سالت دمائهم الزكية دوما فى سبيل البلد، أقربهم ابن أخى سيف.. زينه الشباب.. وابنى.. ابنى الوحيد.. حبيبى.. صديقى.. أتى من اقصى الأرض.. نحف عوده، غزا المشيب رأسه وهو فى عز شبابه، ارتسمت على وجهه وجسده آثار حياة تفوق سنين عمره.. لم يأكل إلا طقة واحدة معنا ونحن ملتفين حوله، ننظر إليه فى بدلته الكاكية لم يخلعها.. أمه.. أمه سالمه أعانها الله وهدىء من لوعة قلبها، أنه وحيدها على ثلاث بنات.. ذهب إلى سيناء مع وحدته ليقاتل.. لا.. لا.. ليسوا هؤلاء المتخاذلون جنودنا..

عبد الغفار يمد يده، يسحب النفير من فوق عربته، نفخ فيه نفخات عصبية متتالية، لم

ينتبه إليه أحد، نفخ نفخات متقطعة متواصلة كأنها نفير الخطر، نظر إليه بعض الناس بعتاب بعدها اتجهوا ناحية الجنود المتخاذلين..

ترك عبد الغفار نفيره وعربته، اقترب ناحية الجنود الذين توقفوا، جلس بعضهم بجوار عساكر نقطة الحراسة فوق معبر الهويس..

عندما اقترب عبد الغفار من الجنود راعه مشهدهم، ملابس غير مهندمه، بعضهم ملابسه ممزقه، آخرين عيونهم متورمه، بقع من الدم على أكتافهم وصدورهم وظهورهم وسراويلهم.. الغار والرمال تغلفهم من قمتهم وحتى أصابع أقدامهم، تختلط بالدماء والعرق وتلك الهالات السوداء التى تحيط بكل شبر فى ملابسهم أو لحمهم..

اهتز عبد الغفار.. التبس عليه الأمر.. كأنه هو.. كاد أن يأخذه بين أحضانه.. لا.. ليس هو.. صورة طبق الأصل من ابنه رخا.. يخلق الله من الشبه ما يريد، يبكى.. الجندى يضع رأسه بين يديه ويبكى بكاء مهزوم، انتبه عبد الغفار إلى أن هناك عدد كبير وسط الجنود يبكى.. صرخ داخله.. أبدا.. أبدا.. سمع واحدا منهم يقول فى صوت حزين مبحوح.. انسحبنا مرغمين.. جهنم هناك.. لاينفع معها سلاح أو قتال، لا نرى غير النيران والشظايا المتساقطة علينا أفواج وأنهار من السماء، لا جنود تقاتلهم ولا هدف تتعامل معه، ولا أوامر لنا ماذا نفعل..!!؟..

لا ندرى ما يدور حولنا. سكت العسكرى المهان جالسا على الأرض.. وضع عبد الغفار كفه فوق رأسه، زعق.. سترك يارب.. مددك يا قادر.. نحن أمه المؤمنون. انصرنا على المعتدين..

عاد إلى عربته وقد اضطرب فؤاده، زاغت عيناه.. دفع عربته أمامه دون وعى، شق الجموع التى تحيط بالجنود القاعدين على الأرصفة، عبر شارع صدقى، سمع بوق الانذار بصوته المدوى المتقطع يغطى المدينة، لم يتوقف، يدفع العربة اليد الصغيرة أمامه، مظلتها البيضاء تقاوم الهواء، حولها.. يتقدم عبد الغفار يدفع عربته دون هواده.. يعبر حى زرب، يصل بيوت المساجريه، الشوارع خاليه، يندفع بعربته يكاد أن يجرى، شارع النمسا على يساره خالى، على يمينه مقهى رواش يقف ببابه بعض الناس يتحدثون، نادى عليه أحدهم، لم يرد، يميل على العربة أمامه ولا يتوقف..

قلل من اندفاعه عندما رأى زرقة البحر الداكنة البعيدة خلف سور طريق بورتوفيق الطويل، التقى وجهه بالهواء العليل القادم من فوق البحر..، شم الرائحة التى ظل يتمتع بها ويسعى إليها بجوار الأزرق الواسع منذ وصوله إلى تلك المدينة العتيقة.. لايستطيع أن يسلاها، أصبحت كلا من حياته، ادمنها، إذا انتابه القلق أو ألم به الحزن لا يهدأ ولا يلين إلا إذا تنسم رائحة البحر والتقت عيناه بامتداده..

دفع عربته امامه فى هدوء، صعد بها فوق الرصيف على أول الطريق الممتد، وجهها ناحية شجرة صغيرة منزرعه تطل على البحر الواسع، وقف بعربته تحت الشجرة القليلة الأغصان، مشهد المياه المتماوجه والمبانى البعيدة على لسان بورتوفيق تبدو كأنها صورة مطبوعه على كارت ملون صغير، خلفها يمتد البحر حتى يلتقى بالسماء، السفن الكبيرة واضحة نقط صغيرة بعيده، بعض مداخن السفن العملاقة تظهر كعلب صغيرة بين الفتحات المتباعدة للمبانى حول الميناء، خط أخضر من الأشجار المتداخلة غير الواضحة يحيط تلك المبانى..

النسيم رطب ومنعش، الشمس تهدهد أشعتها مترفقة تحاول أن تدفئ الوجود المترامى تحتها..

كل شئ حول عبد الغفار جميل، هادئ، ممتع بعيد عن ما يدور داخله من حزن عارم وعلى الأرض من غضب وصراع، كل شئ خلقه الله حوله فى انسجام ووئام ووداعه ومحبه اندهاش بابداع الخالق العظيم، إلا الناس الذين يعكرون صفو هذا الجمال بصفارات خطرهم وطائرات تدميرهم.. الأقتتال لا يتوقف، سواء عم الجمال أو انتشر القبح..

عبد الغفار يحاول أن يبتعد بعيدا عن كل ما يمزق وجدانه وينشر داخله الحزن.. لايستطيع أن يفكر فى المستقبل لأنه محفوف بالتساؤل والتخمين عما يجرى لابنه الوحيد على جبهه القتال، مآل اسرته بين تلك الغارات المتتاليه.. فليهرب إلى الماضى الجميل، الماضى بعذاباته وهنائه..

رمى بنظره ناحية غاطس الخليج الأزرق البعيد.. يوم تحرك بهم القارب البخارى من الميناء ينقلهم إلى هناك..

لم تر عينا عبد الغفار غير زبد الموج، اسفل الزبد مياه متعرجة مضطربة لازورديه

تتخللها عروق شفافة وأخرى داكنه..

امعاؤه تصل وحتى حلقة، تكاد أن تقفز من فمه المزموم بالألم..

يستند بكفيه فوق حافة القارب الراقص، يسمع همهمه العمال، لايفسر كلماتهم، كثيرين، لغطهم متداخل، ميز ضحكهم، رغم ألمه وضياعه نبهته ثورة دمائه داخل عروقه، أكيد يضحكون منه.. داخل ضباب معاناته فسر الكلمات.. لم ير بعد.. لما يعدى القارب حاجز الأمواج سوف يرى..!!.. يحاول الإنصات، ضم شفتيه بقوة، يحاول السيطرة على أمعائه والقادم منها، تحامل فوق قدميه المهزوزتين، تساند بكلتى قبضتيه على حافة القارب، خيل إليه أن القارب يميل تحت ضغط قبضتاه.. هئ له أن القارب سوف يلفظه إلى الأعماق، خذلته ركبتاه، اصطدم بجدار القارب، حبس صرخته، استقام القارب فوق الأمواج، قبل أن يلتقط عبد الغفار انفاسه مال القارب مرة أخرى بشدة إلى الاتجاه المعاكس، اندفع جسد عبد الغفار إلى الخلف، لم يستطع التماسك، تلقفته أجساد العمال حوله، اصطدم بها فى عنف.. كف تضغط زنده بقوة.. نظر مستجيرا ناحية القبضة..

طالعه وجه ضاحك لصبى، وجه الصبى قريب من وجهه، انحفرت فى ذاكرته نظرات عينى الصبى العسليتين الجميلتين الباسمتين، تحركت شفتا الصبى جوار اذن عبد الغفار.. تماسك يا رجل.. لا تخف.. كلنا أول مرة على هذه الحال.. نظر عبد الغفار داخل عينى الصبى الضاحكتين، ود أن يرد عليه، فتح شفتيه، اهتز جسده، تشنجت عضلات بطنه، غامت الدنيا فى عينيه، أحس بقبضه تدفع برأسه ناحية حافة القارب، سمع لطم الأمواج يغطى هدير ماكينات القارب.. رزاز ماء البحر يصل وجهه، من خلال ضباب متقطع يغشى عينيه رأى زبد الأمواج يتراقص، عندما استوعب لون المياه الداكن دارت رأسه بكل شئ حوله، سقط بشعوره داخل هوه سحيقه، أغمض عينيه وتأكد من الهلاك.. كل مافى داخله ارتد مسرعا إلى فتحه فمه، فتحتى انفه، فتحتى اذنيه، تؤيدهما عينيه، كل الفتحات تتفجر متشنجه، يلقى فمه بكل ما يخرج من جوفه إلى الفضاء أمامه..

مازالت اليد تضغط مؤخره رأسه، خرجت ثلاثة دفعات من داخله قلصت كل عضلات جسده، سمع همس الصبى جوار اذنه..

– تماسك يا أخى حاول أن تسترخى..

راح عبد الغفار فى غيبوبه لم يدر طولها، لما فتح عينيه الملوثتين بالدموع رأى الأمواج يعلوها زبدها، رش وجهه رزاز الموج المتلاطم فى حنان، لم ير أثرا لما افرغه جوفه فوق تعرجات المياه المضطربة، احتوته راحة عابره.. غادرته مسرعه واسلمته إلى رقصة القارب الذى مال مرة أخرى بقسوة.. دارت الدنيا بعبد الغفار، ارتخت اليد خلف رأسه، جاءه همس الصبى صاحب العيون العسلية..

– حاول أن تسترخى.. فكر فى أى شئ بعيدا عن هنا.. تمالك يا رجل.. استدار عبد الغفار، ترك ظهره ينزلق فوق جدار القارب حتى استقر جالسا فوق ارضه المهتزه، التقت عيناه بسيقان العمال، ضم شفتيه بقوة، رخى جفنى عينيه، مختلطة بالطنين داخل اذنيه اتته ضحكات العمال حوله.. ما هذا يا عبد الغفار.. خائف؟.. بل أنت مرعوب.. هل نسيت؟.. كم تمنيت أن تركب البحر الجميل؟.. كم تمنيت أن تمخر العباب؟.. كم انتشيت بخيال ركوب تلك المدن العائمه؟.. كم سرح بك الخيال والشوق؟.. لم تتوقع تلك الأمواج الداكنة المتضاربه تتراقص وترتفع، تمتد نحوك طالبه ابتلاعك.. لم تحلم يا عبد الغفار بمدن عائمه تتراقص فوق تلك المياه، كل همها اخراجك من داخلها وتسليمك إلى اعماق هذا الخضم المتصارع..

ويلك يا عبد الغفار.. الرجال حولك ثابتون فوق السطح المتمايل، أنت وحدك..لا.. ربما لا أكون وحدى..، حاول أن يفتح عينيه، فتحهما، تلوى داخله، الدموع حجبت عنه الرؤيا، تقلص جسده، ضم شفتيه بقوة يحاول منع المد القادم من داخله، اختنق، سيموت، لم يدر كيف استطاع أن يقف فوق ساقيه المهزوزتين، استدار مترنحا، قبض فى ألم وقوة حافة القارب، مال بجسده ناحية المياه الصاخبة، خرجت الدفعات متتاليه من فتحة فمه ورزاز الموج المتسابق يرش وجهه فى تحدى.. سحب ظهره فوق جدار القارب الخشبى وهو لايعى ما حوله..

تكور فى ركن القارب، غابت عنه الأصوات، أدركته رحمة عابره وغفى مرهقا.. انتفض جالسا.. هزه عنيفه، اصطدمت عيناه بما غيب الفهم عن عقله.. القارب البخارى المتراقص يلتصق بجدار من الحديد الشاهق، المياه حول الجدار والقارب لا يدرك وصفها، ليس كمثلها شيئ رآه من قبل، تلك الأمواج التى شاهدها عندما غادر رصيف الميناء وعذبته كل

هذا العذاب ما هى الا قطرات من الماء إذا قورنت بتلك الأمواج أمامه الان.. زبدها عالى، يستطيع أن يراه وهو قابع فى قاع القارب فى الفجوات المائيه التى تتركها الأمواج المتقلبة وراءها.. العمال فوق حافة القارب يقفزون إلى سطح عائم بجوار الجدار الحديدى الهائل، امتد بعينيه وحتى آخر الجدار الشاهق، انبأته رؤيته متحديه خوفه وتخبطه بأنها السفينة الشاهقة بمدخنتها العملاقة والتى طالما حلم بها..

المسطح بجوارها والذى يقفز إليه العمال ما هو إلا ماعون بحرى، تتدلى الأذرع الحديدية الضخمة من الباخرة نحوه محملة بأجولة وصناديق مربوطة فى سلال كبيرة من الحبال الثخينه المعقودة..

تراقص القارب بشدة جوار الماعون ثم سكن، تسلل بعض الأمل إلى قلب عبد الغفار، الماعون بالنسبة إلى القارب أكثر ثباتا وثقلا فوق المياه متعددة الفجوات، المرتفعة الأمواج..

تحامل عبد الغفار، انضم إلى خيط العمال المغادر للقارب الملعون.. فى ساعة الغذاء تقابل عبد الغفار مع جميل وعيسى النجار فوق سطح الماعون الحديدى..

عبد الغفار مهموم، شاحب، مريض، تدور به الدنيا، عيسى النجار ساكت.. بين ايديهم خبز غريب الشكل، ضخم، مبروم ومستطيل، مع جبن لم يرو مثلها أو تذوقوا أطعم منها، عبد الغفار لايبتلع، يمضغ الخبز والجبن يتظاهر بأنه يأكل، عيسى النجار تتحرك يداه فى سرعة يزدرد الطعام ازدرادا.. جميل شاحب يرتعش، يسب فى صوت منخفض، يقسم.. لن افعلها مرة أخرى ولو أعطونى كنوز الأرض جميعها، مالى أنا وهذا المجهول المخيف، أننا لم نتحسب هذا الجبروت الطاغى..

سمعوا كثيرا عن أهوال البحر، غطت على أهواله المسموعه تلك الحركة الدائبة داخل ميناء المدينة العتيقة، عندما قابلوا الواقع وواجهوا الأهوال، لعنوه، سبوه، ها هو جميل يقسم أنه لن يعود.. عبد الغفار يحاول أن ينطق، يكذب فؤاده، يهمس إلى جميل.. لا شئ هناك.. الرجال حولهم ضحكاتهم عاليه، المسألة هى التعود.. سوف يتعودون مثلهم، لايسمع همسه أحد، حتى هو لا يدرى معنى لما يقول!!..

فى أحمديه البحر كانت أمه زين تحذره من النزول إلى البحر.. أى بحر كان هذا؟!..

.. قطع سكوتهم جلبه حولهم، شاهدوا رجال مهرولين، طرقت آذانهم صيحات استغاثة..

الحقوه.. انجدوه..

رأى عبد الغفار رجال أعلى حاجز سطع السفينة المرتفع يشيرون ناحية مياه البحر..

وقفوا مع الرجال، هرولوا إلى حيث يهرولون، لمحوا داخل فجوة من فجوات الموج المتلاطم شيئ تتلاعب به المياه الهادره، جمدت الدماء داخل عروقهم، جسد لايكاد أن يبين داخل الأمواج..

روعوا لما رأوه يختفى داخل الفجوة، غطته موجه عاليه بزبدها المتطاير.. وقف شعر رؤسهم عندما رأوه مرة أخرى يخرج من بين المياه، تحمله موجة

قادمة ترتفع به أعلى فجوة داكنه، يمد ذراعيه يحاول التشبث بشيئ لايرونه، زاد صريخ الرجال فوق الماعون، ارتفع زعيق اولاءك الذين فوق جدار السفينة، انتشر الذعر فوق الجميع..

يشيرون وهم يقفزون بأماكنهم، رأى الجميع قطعة هرميه سوداء، زعنفه ضخمة.. تشق الأمواج المتلاطمة العالية والثنيات الهابطه الداكنة فى ثبات.. الزعنفه الهرميه السوداء الكبيرة تتجه فى خط مستقيم لاتحيد ناحية جسد الرجل تتقاذفه الأمواج..

زاد هياج الرجال.. تخبط الأصدقاء الثلاثة ولم يستوعبوا ما يحدث.. عبد الغفار حيران مرعوب ينظر إلى الرجل بين الأمواج بعيدا يمد ذراعيه متشبسا فى الهواء لايكاد يتبين ما هو.. ارتعد عبد الغفار، توقف فؤاده عن الدق.. تجمدت دمائه، أصابع جميل تضغط ذراع أخيه دون شعور بشدة وتوتر.. عيسى النجار جلس على أرض الماعون الحديدية وقد وضع كفيه فوق رأسه..

رجلان أعلا جدار السفينة الشاهق يلقيان بطوق من المطاط يمتد بحبل طويل بين ايديهما، وصل الطوق إلى الرجل بين الأمواج، الرجل يحاول مد ذراعيه، لاتطولان الطوق المهتز تتلاعب به المياه، يختفى الرجل بين الخضم المتماوج، وصلت الزعنفة إلى جوار الطوق، تختفى الزعنفة فى نفس المكان، اهتز الطوق بشدة مبتعدا يغمره زبد الموج..

سكت صوت الرجال، علا هدير الأمواج المزمجره والمتخبطة بجدارى الماعون والسفينة، صر الماعون وهو يهتز..

تدرج صوت الرجال يغزو الصمت، ينضم إلى صوت نغم الطبيعة المتحدى، اشتد

ارتفاع صوت الرجال حتى غطى صوت الأمواج المتلاطم والصرير.. جلس عبد الغفار معه جميل جوار عيسى النجار فوق سطح الماعون المهتز.. لم يحددوا شعورهم، لفهم وجوم متبلد..

عبد الغفار لديه احساس غريب.. قوى.. الذى اختفى بين الأمواج هو الصبى صاحب العينين العسليتين، لم ير عينى الغريق حينما كان يغرق، لم يحدد حتى حجمه، كانت زعنفة السمكة هى أوضح شئ فى المكان، لم يخبره أحد من هذا الذى راح بين الأمواج، سمع فقط الأصوات تتصايح.. القرش .. القرش..

لت القشعريرة جسد عبد الغفار عندما تخيل الجسد البائس تحت الماء الصاخب مع هذا القرش الضخم المخيف.. ماذا حدث؟..

على أى حال اختفى الرجل، اختفى القرش، بقيت المياه تتلاطم بشدة وقسوة، زبدها يعلو موجها، اللون القاتم يكسوها، مازالتا السفينة والماعون تهتزان، قلوب الرجال جميعها تنبض بشدة، أفكارهم متباينه، ذعرهم واضح، أسفهم ينطق فوق صفحات الوجوه، هرولوا إلى العمل يلوذون به من المجهول..

أقسم عبد الغفار يومها يمينا مغلظة، لن يعودها مرة أخرى.. العينان العسليتان المواسيتان الباسمتان كانتا تحذرانه قبل أن يبتلعها أليم..

مر الوقت على عبد الغفار وهو أمام عربته يستند فوق حافتها بمرفقيه تحت الشجرة..

سمع آذان العصر آتيا من ورائه حيث تترامى البيوت تعلوها مئذنة مسجد الغريب.. وقف طويلا فى مكانه هذا ولم ير مخلوق يمر أمامه، لم تهدأ نفسه بعد.. يشعر بإعياء يتخلل كل جسده، يود ان يترك العربة، يخلع المعطف الممزق الملوث بالدماء، يهيم وحدة، يصل حقل من الحقول، يستلقى فى ظل شجرة يانعه، يشم رائحة ثمارها، يغفو بعيدا عن الأفكار والأحداث.. دفع عربته بتكاسل يغادر الرصيف، يوجه العربة أمامه فوق اسفلت الشارع متخاذلا.. بشر قليلون يمرون، كأن المدينة هجرت، استوقفه بعضهم أمام بار ستلا، اشتروا منه، باعهم وهو واجم بعيدا بأفكاره.. زادت رغبته فى أن يترك عربته ويبتعد.. يسأل نفسه.. إلى أين؟.. واصل دفع العربة أمامه، يكاد أن يغيب عن وعيه، لا يحدد مصدرا للألم فى جسده.. تماسك، تقدم بطيئا أمامه العربه وكأنها جبلا من الجبال.. أمام مسجد أبو العزايم توقف، فكر فى أن يترك عربته ويصلى العصر داخل المسجد، لأول مرة منذ زمن بعيد لايلحق بجماعة العصر، خلع معطفه الممزق، هم بأن يتوجه ناحية الجامع.. رأى عيسى النجار قادما من جهه حوارى المرور، دق قلب عد الغفار.. عيسى يجرى، نادى عليه، لم يلتفت إلى نداء عبد الغفار ولم يتوقف، جرى عبد الغفار وراءه، لحق به عند مزلقان زرب سأله بعتاب.. لماذا لاترد ندائى يا عيسى؟.. توقف النجار وهو يلهث، أجاب بصوت مخنوق.. ابنىٰ يا عبده.. ابنى، اخبرنى جندئ من العساكر المنسحبين أنه كان جواره حين أصيب بشظيه فى رأسه.. لما سألته.. مات؟.. اجابنى بأنهم نقلوه إلى المستشفى..

تقاذفت عبد الغفار الأفكار، سأل بصوت مرتعش.. إلى أين تجرى.. أجاب عيسى وهو لايقدر على تجميع الكلمات بسهوله.. أذهب إلى المستشفى.. انطلق عيسى النجار يعدو.. تبعه عبد الغفار، قدماه لاتكادان أن تحملاه.. أين أنت الآن يا رخا؟.. مصاب مثل ابن

عيسى؟. أم مدفونا تحت الرمال؟.. أدعو الله أن تكون سليما معافى.. أن تعود لأمك سالمه سالما.. أجبر بخاطرى يا الله.. أنا عبدك المؤمن الضعيف اسألك النجاه لوحيدى، لم أسألك ياربى شيئ لنفسى.. كل تمنياتى احتفظت بها داخل فؤادى.. اسألك يا قادر يا عظيم أن يعود ولدى من تلك المتاهه المكتوبه علينا..

شاهدا من بعيد تجمع الناس أمام بوابه المستشفى، اقتربا منهم، البوابه مغلقة يقف أمامها صف من الشرطة العسكرية، هناك نساء يبكين، رجالا يجلسون على الأرض بجانب السور العالى الممتد، اخترقا الازدحام، اوقفهم ضابط صغير تزين كتفه نجمتين.. مثل ابنه رخا، كان متجهما، الجنود يصطفون خلفه كأنهم تماثيل من الحجارة.. قال فى صوت هادئ حازم.. إلى أين يا والدى؟.. خرج صوت عيسى النجار باكيا.. ابنى.. ابنى عسكرى. أصابوه فى رأسه.. موجود فى المستشفى..

سأل الضابط بجفاء.. من أخبرك بذلك؟.. أجاب عيسى متوسلا.. زميله.. واحد من رفقائه.. قال الضابط فى حزم.. لامصابون من المعارك هنا.. من أبلغك هذا لاتصدقه..

توجه الضابط بحديثه إلى الناس المتجمعين.. إن لم تنصرفوا سأعمل على وضعكم فى الحجز جميعا.. زعق.. كل منكم يذهب لحال سبيله.. أؤكد لكم لا يوجد ولا عسكرى واحد جريح داخل هذه المستشفى.. أنتم هنا منذ الصباح.. هل رأيتم أى سيارات للاسعاف دخلت.. أرجوكم انصرفوا.. لاتدفعونى إلى اللجوء لما لايرضيكم ولايرضينى.. هيا ياست.. انصرف ياعم.. بدأ الضابط فى دفع الناس بعيداً عن باب المستشفى، تحرك الجنود الجامدون خلفه يدفعون الناس بعيدا، انصرف عدد كبير من المتجمعين.. بقى قليلا منهم يتوسلون إلى الضابط ملحين، توجه الضابط إلى سيارته الجيب التى كانت فى انتظاره، يوصى الجنود متوعدا بعدم دخول أى مخلوق من باب المستشفى.. جلس عيسى النجار بعيدا تحت سور المستشفى الحجرى، جلس عبد الغفار بجواره.. ينظر إلى عيسى فى جلبابه الأبيض الخفيف النظيف، رأسه العاريه اللامعه من وسطها، جوانب الشعر المتبقية صارت بيضاء فى لون القطن..

سنين طويلة منذ قابلة أول مرة فى تلك الليلة يسأله عن الحاج عبد الفضيل.. كان عيسى يومها فتى نحيل شاحب شعره أسود غزير تترامى خصلاته الناعمه المصففه فوق

جبهته البيضاء اللامعه، وسيم حلو الكلام..

نبه عبد الغفار إلى قيمة الايجار وأن لايزيد عنها.. علمه ليلتها كيف يبدأ حديثه مع الحاج عبد الفضيل، متى يراوغه ولا يزيد عن الخمسة قروش ايجارا للكوخ مليما واحدا.. أن لايدفع أكثر من شهرين مقدما..

لم يعرف أنه قبطى إلا عندما رآه يحمل سعف النخيل فى يوم الغطاس ويذهب إلى الكنيسه..

فى خضم الآلام المحيطة بهما.. يكتشف عبد الغفار الآن أنه لم يصادق أحد فى حياته كما صادق عيسى النجار.. عيسى هو صديقه الوحيد تقريبا.. الحبيب من قلبه، يماثله فى العمر، يبادله أسراره، معه دائما فى الأفراح وحين الشدائد، غنى له فى زيجاته الثلاث، حضر ولاده ابناءه جميعهم، دفن معه عزيزه، حضر دفن نبيلة أم سيف، يوم أتى خبر الشهيد استقبل معهم المعزين فى السرادق كأنه واحدا من اسرتهم، يجلس يستمع إلى القرآن خاشعاً، لايتذكر انهما اختلفا أو تشاجرا، أثبت صداقته العميقة وحبه لعبد الغفار، توسط له فى شراء الأرض بحارة رشيد.. بل أن عيسى دفع من جيبه مانقص من ثمن الأرض قبل أن يطلب منه عبد الغفار ذلك.. أقرضهم مرة أخرى مبلغ كبير عندما اشتروا الأرض التى فى شارع صدقى.. دائما كان بجانبهم واحدا منهم.. دخل عبد الغفار الكنيسة مع عيسى النجار لما مات أبو عيسى، حضر معه احتفال طقس تعميد ابنه البكرى نيسان أمام القسيس.. تدخل كأنه واحدا من عائلة عيسى لما اختلف مع زوجته دميانه.. أهل دميانه تعجبوا واندهشوا، الخلاف بين الزوجين كان قد وصل إلى حد تدخل الكنيسة، وتدخل عبد الغفار بقلب مخلص وصادق، أبدى رأيه وحكم بينهما، نجح فى أن يضع الصفاء بين الزوجين، صداقته الصادقة أسعدت أبو دميانه وأمها، أسعدت الجميع، وعاد الوئام..

ينظر عبد الغفار إلى عيسى النجار الجالس أمامه مستندا على الجدار الحجرى مقرفصا يضع رأسه الأصلع المشتعلة جوانبه شيبا بين ركبتيه يبكى فى حرقة لايستطيع عبد الغفار التماسك، تنفجر آلامه ووساوسه، يحس بدموعه تجرى فوق صفحة وجهه، يحاول مداراة دموعه بكم جلبابه، يقول لعيسى النجار بصوت مبحوح.. مالك يا عيسى؟..

ليس هكذا ألرجـال..!!.. لم أرك تبكى من قبل.. أنا مـثلك يا رجل.. ابنى هناك مـع ابنك.. إختنق صوت عبد الغفار.. ارتفع بصوته المتقطع يدارى بكائه.. ألا تؤمن بالله يا عيسى؟..

رفع عيسى رأسه، مسح دموعه بطرف جلبابه، قال فى صوت ضعيف صافى.. الحمد للرب فى الأعالى هو الراعى لرعيته.. وقفا.. تساند عيسى النجار على كتف عبد الغفار، مشيا سويا فى شارع المستشفى الأميرى يتجهان ناحية عربة عبد الغفار التى تركها جوار مسجد أبو العزايم أمام الكنيسة القبطية ومدرسة الأقباط..

بعد صلاة المغرب، خرج عبد الغفار من مسجد الأربعين، لايكاد أن يرى عربته القريبة من باب المسجد، الظلام حالك، أنوار البلدة كلها مطفأه، المتطوعون ينتشرون يشددون على مراعاة الإظلام التام.. السيارات القليلة التى تمر تعكس اضواء زرقاء خافته،

تقدم عبد الغفار يجر عربته يتحسس طريقه إلى حارة رشيد..

الحوانيت مغلقة، المارة قليلون، السوق الكبيرة حول سكة حديد حوش البضائع ومدخل شارع صدقى لأول مرة منذ قدم تلك المدينة يراها مطفأ وخاويه على عروشها.. أشباح عربات اليد متناثره تحت الظلام كقبور الموتى.. انقبض قلب عبد الغفار.. يدخل بالعربة يدفعها أمامه إلى حارة رشيد، حدد فى الظلام بعض أشباح لناس متجمعه أمام مقهى شاهين.. لم يقف.. يرغب التخلص من العربة جوار المنزل حتى يلحق صلاة العشاء بالمسجد..

لأول مرة منذ عهده الطويل بعربته يشعر بساعديه لاتطاوعانه فى دفعها.. الألم يشتد فى ظهره وعضلات كتفيه، أرض الحارة مدكوكه ببلاط الزلت الصغير المستطيل، تخيل عبد الغفار هذا البلاط الذى حمدالله كثيرا حين وضعوه منذ زمن انقلب صخورا جباره تعوق العربة فى تقدمها أمامه، أخيرا إقترب.. وقف يلهث أمام بيت محمد رسلان المجاور لبيتهم، لمح تحت جنح الظلام سيارة نقل صغيرة خلفها سيارة أخرى واقفتين أمام منزلهم.. دق قلبه بعنف.. توجس.. استجمع قوته وهو يدفع عربته بكتفه بعد أن كلت يديه..

هرولت ناحيته زوجته ساله أم رخا عندما لمحته، دفعت عنه العربه، سأل لاهثا.. خيرا؟.. ما الذى يجرى؟.. كيف حال أمى؟..

همست ساله بلهجتها الريفية.. أمك بخير.. جميعنا بخير إن شاء الله؟..

– ما هذه السيارات؟..

– أخوك جميل أحضرها..

– أحضرها؟..

– معه أولاده، حمل الحاجة زين وينتظرك، جميعنا تجهزنا.. نحن فى انتظارك

– فى انتظارى!!.. لما كل هذا؟..

– لما!! ظننتك تعرف..

سمعا صوت جميل ورائهما متلهفا..

– عبد الغفار.. أين أنت يا أخى؟.. هيا .. هيا.. لا وقت هناك..

إنكمشت سالمه بجانب عبد الغفار، إستعاذ جميل بالله، أتى صوت بوق الخطر يولول من أعلى عمارة الكرانى يشق ظلام الليل، ينصب فوق حارة رشيد كأنه إنفجارات مدافع متواليه..

لأول مرة ومنذ زمن بعيد، تلك اللحظة يشاهدون السماء تومض بلمعات ضوء متعاقبة وسريعة، اخترقت آذانهم الإنفجارات الشديدة المروعة والتى اهتزت لها قلوبهم.. التصقوا بجدار المنزل، عبد الغفار استند على عربته ينظر ناحية السماء..

استمر الوميض والانفجارات لحظات ظنوها لن تنهى، شملهم بعدها السكون، انطلقت صفارة الأمان، زعق جميل ملهوفا..

– هيا.. هيا.. لاوقت هناك..

الأطفال يبكون خائفون، سأل عبد الغفار بصوت هادئ.. أين أمى؟.. أشار جميل إلى سيارة الأجرة القابعة خلف السيارة النقل..

على ضوء النور الخافت فى صالون السيارة الأجرة رأى أمه زين مستلقيه فى غيبوبتها.. رأسها فى حجر مريم الجالسة فى حزن بركن السيارة ودموعها تجرى فوق وجنتيها الشاحبتين، كانت شديدة الأمتقاع، نظرت إلى أبيها بعينيها المرتخيتين، أحس عبد الغفار بقلبه يقفز من بين ضلوعه حنانا وشفقه على ابنته المعذبه، انحنى على وجه أمه الشديد البياض.. أنفاسها ضعيفة متلاحقة، قبل جبينها، سمع بكاء الأطفال حول أمهم سالمه، رأى أولاد جميل منتظرين ركوب السيارة.. رغم الظلام يلاحظ أن الأولاد اشتد

عودهم، يطرقون مرحلة الشباب، قال لنفسه.. هؤلاء المتسابقون لمغادرة المدينة هم كل ما حلمت بهم ولهم.. تكلم بصوت عالى..

– توكلوا على الله.. أنا لن آتى معكم..

صرخت سالمه..

– أبدا.. أنت قبلنا.. سوف أنتظر معك أنا والأولاد وذنبنا فى عنقك.. تحدث عبد الغفار فى رفق..

– بل ستذهبون الآن جميعا إن شاء الله، سألحق بكم فى أحمديه البحر.. هيا تحركوا.. لاوقت، أريد اللحاق بصلاة العشاء..

ساعدهم فى ترتيب أغراضهم اللازمة بسيارة النقل، إطمأن على ركوبهم فى سيارة الأجرة، قبل أمه مرة أخرى، لأول مرة يقبل ابنته مريم، قبل أطفاله الصغار، سلم على جميل وأولاده وأخيرا ودع أم رخا..

رحلت السيارات بمن فيها مهاجرة إلى أحمديه البحر، غمر السكون المقبض الحارة، لم يدخل عبد الغفار المنزل.. قدماه تحملانه، يخترق الطريق المظلم، عبر حارة رشيد، تجنب الزقاق الصغير الموحش المهجور والذى كان فى يوم مضى مرتعاً للفسوق، وصل إلى مكان الطابية التى يهدمونها بهمة ونشاط، يعرف أنهم رفعوا أكثر من ثلثيها، إختفت بقايا التنانير المجوسية التى طالما سمع عنها الحكايات وتخيل هو فى عقله أحداثها، انهارت الجدران والصخور..

تحت الظلام الموحش هياكل أسياخ الحديد والمسلح تبرز قائمة من حفرها فى الأرض.. أكياس الأسمنت متراصة فى العتمة كأنها المتاريس.. أكوام الرمال والزلط مثل تلال فى جوف صحراء، اختفت مدافع رمضان، راحت كل الأطلال التى أوحت له بأجمل الأحلام.. أنتهى كل شئ.. لا ديك هناك.. لا يوجد الملك سوس.. ولا حتى المُكن.. ترقرقت الدموع داخل عينيه.. لا ملك ولا كنوز، كله أحلام.. أوهام.. خزعبلات.. خرائب مهدمة.. حكايات سمار......

يستدير مولياً ظهره للأطلال.. يخترق الشارع المظلم جوار سور سكة حديد حوش البضائع، يتجه ناحية المسجد، تعودت عيناه الظلام المنتشر.. سمع صوت أذان العشاء يأتيه عالياً متدثراً بضجيج صفير متقطع من خلال مكبر الصوت أعلا مأذنة جامع الأربعين..

رقم الإيداع : ٣٥٥٤/ ٢٠٠٠

الأمل للطباعة والنشر